(١)

لم يهتم (سامر) أبدًا لطول رحلته التي قد تستغرق منه أيامًا يبحر خلالها جوًا بين عدة مطارات دولية ومحلية، فمن الخرطوم إلى القاهرة ومنها إلى كازابلانكا، ومن (كازا) يطير داخليًا إلى مدينة أكادير المغربية الساحلية، وفي مطار أكادير يلتقيه أحد المعارف الذي تطوع أن يُقلَّه بسيارة دفع رباعي إلى الشخص المراد لقاؤه في رحلة لا يعلم كُنْهِهَا حتى الآن.

إنه مستعد للذهاب إلى القطب الجنوبي ذاته إذا كان في ذلك خَلاَصُه، فمنذ شهور وهو في معاناة ولا يعرف ما الذي يعانيه بالضبط، تارةً يشعر بصداع يشطر جمجمته حقيقةً لا مجازًا! وتارةً يجد دموعه تنساب رقراقة غزيرة وبدون أن يعرف لها سببًا، (سامر) الذي كان يَعْتَزُّ بأن الله قد وهبه أسنانًا كأسنان سمك القرش ويفخر بأنه لم يَزُرْ طوال سنوات عمره الأربعين طبيبًا واحدًا للأسنان؛ إذا به هذه الأيام يشكو آلامًا مفاجئةً بها وتَسَوُّسًا في بعضها بل ويفقد ضرسين في هذه المدة القصيرة.

وكل هذا يهون بجوار حالات الكآبة والاكتئاب اللذَين صارا مسيطرين على تفكيره ونفسيته بعد فترة من حط رِحَالِه في أسبانيا.. نعم هي بالتأكيد أيام أسبانيا وزواج أسبانيا؛ لم يسمع نصيحة من حَذَّره من (بثينة) ومن الزواج منها.

●●●

(سامر كُتُبي) لم يعتد النوم في فراشٍ باردٍ منذ أن كان في ال ٢٥ من عمره، وقت أن تَخَرَّج في جامعة (الملك عبد العزيز) في مدينة جدة، وسافر فور ذلك إلى السودان ليبدأ فيها أولى خطواته كتاجرٍ شابٍّ، بدأها بتصدير رُءُوس الماشية من السودان إلى دول الخليج، ثم تنوعت تجارته وتقافزت محطاته التجارية إلى مصر فالمغرب فلبنان فسائر البلاد العربية عدا بلده الأم سوريا التي لم يرها طوال حياته، ومنذ أن عرفت قدماه طريق التجارة عرفت يداه طريق عقود الزواج والطلاق.

هو لا يعشق امرأة في الحرام أبدًا، ولا يجمع بين زوجتين، ولا يصبر على حالة العزوبية لأكثر من شهر. ولأن الله قد وهبه نعمتي المال والجمال وحَرَمَه من نعمة الإنجاب؛ فقد تزوج وطلق عدد ما لا يذكر!

وتَنَقَّل بين أحضان زوجاته ومحطاتهن المترامية في أنحاء العالم بغير مشاكل تذكر، إلى أن هبطت تجارته أرض أسبانيا التي بدأ فيها نشاطه الأخير منذ قرابة العام كتاجر يعمل في تصدير زيت الزيتون، وكَسِمْسَار للعقارات في مدينة (مايوركا) وتعرف خلال ذلك إلى (بثينة)، وخلال لقائين اثنين كان كل ما فيهما يمتلئ بالآخر إعجابًا ورغبةً، وفيها وجد كل ما يشبع قلبه و عقله وجسده...

لكن الشيء الذي لم يحسب حسابه هو أن (بثينة) إن أحبت فهي تحب حب امتلاك والتصاق، تلتصق به ليلاً وتأبى أن تنفصل عنه بقية اليوم، تريد أن تشاركه حتى في مكالماته الهاتفية، سواء أكانت مكالمات عمل أو تلك الخاصة بأُمِّه أو أُختِه التي استقرت بالسعودية وتزوجت

فيهـا، فكيـف لزوجـة كهـذه أن تتركـه يعيـش حيـاة الطيـر المهاجـر التـي اعتادهـا؟

لقـد كان يظـن أن حنينهـا للإنجـاب سيطغى علـى حبهـا لـه كمـا طغـى مـن قبـل علـى قلـوب مـن سَبَقْنَهـا مـن زوجـات، لكـن (بثينـة) كانـت مختلفـة في كل شـيء، و مـن حَذَرِه منهـا؛ لـم يخبـره أنهـا إذا عشـقت عشـقت بجنـون لا يتـورع عـن فعـل أي شـيء .

في البدايـة كانـت تغضـب حـين يسـافر وحـده متحججًـا أنـه سـفرٌ قصيـرٌ مشـحونٌ بالعمـل فـلا مجـال لاصطحابهـا فيـه، ثـم تحـول الغضـب إلـى اتهامـات لـه بخيانتهـا أثنـاء سـفره، اتهامـات مصحوبـة باتصـالات هاتفيـة لا تنقطـع منـذ أن يطـأ صالـة السـفر في المطـار، فـإذا أغلـق هاتفـه لاجتمـاع عمـلٍ أو لرغبـةٍ في النـوم؛ فهـو إذن متهـم بأنـه في أحضـان زوجـة أخـرى أو بـين ذراعـي عشـيقة.

فَكَّـر مـرارًا أن يطلقهـا رغـم أنـه أحبهـا؛ فهـي لـم تكـن الحـب الوحيـد في حياتـه والـذي ينتهـي بالطـلاق...كل القـرارات العاطفيـة المؤلمـة تُنْغِزُ القلـب بشـدة في مَرَّاتهـا الأولـى، و بعدهـا يخـف الألـم حتـى يـزول الإحسـاس بـه، و بالتدريـج يكتسـب القلـب مناعـة التكـرار.

وفجـأة توقفـت (بثينـة) عـن غيرَتِهَـا، و بـدأت بعدهـا أعـراض معانـاة (سـامر) في الظهـور. ولـم يحتـج لكثيـر فطنـة كـي يـدرك أن (بثينـة) قـد قـررت أن تريـح بالهـا وأن تَسْـحَر لـه بمحبتهـا، كان يظـن أن وطـأة ذلـك السـحر سـتكون في القلـب فقـط، لكـن يبـدو أن صانـع السـحر قـد أفـرط في مقاديـر طبختـه!

سـألها...واجهها...صرخ فيها...ضربها...وهـي لـم تَـزْدَد إلا إنـكارًا و دموعًـا، لـو كان رجلٌ آخرُ غيـر (سـامر) لربمـا صَـدَّق دموعهـا، لكنـه رجلٌ عَرَكتـه التجـارة و النسـاء و الترحـال بـين قـارات العالـم لأكثـر مـن ١٥ عامًـا.

●●●

في أول رحلـة لـه إلـى السـودان ذهـب إلـى الشـيخ (جعفـر) ذلـك الشـيخ الـذي طالمـا صَلَّـى وراءه في سنواته التـي قضاهـا في السـودان ولـم تنقطـع صِلَتُـه بـه بعـد ذلـك. كان بـاب مسـجد الشـيخ (جعفـر) يزدحـم عـادة بعـد صـلاة العشـاء كل يـوم و يشـتد زحامـه بعـد صـلاة الجمعـة، تلـك الأوقـات التـي يخصصهـا الشـيخ لطالبـي الرُقْيَـة والعـلاج، وكـم اهتـزت جنبـات المسـجد بصرخـات بعضهـم أثنـاء الرُقْيَـة حتـى يُخَيَّـل إليـك أن الجـدران سـتتصدع منهـا، وقتهـا يهـرع أربعـة مـن مسـاعدي الشـيخ الأقويـاء ويمسـكون بالمُصَـاب؛ حتـى يفـرغ الشـيخ مـن رُقْيَـاه.

قَصَّ (سـامر) كل التفاصيل على الشيخ (جعفـر) الـذي اسـتمع إليـه في سـكينة ثـم طلـب منـه أن يسـترخي تمامًـا و يغمـض عينيـه، وبـدأ الشـيخ يقـرأ آيـات متفرقـات مـن سـورة البقـرة ثـم انتقـل فجـأة إلـى فـواتح سـورة الصافـات ثـم سـكت فجـأة...فتـح (سـامر) عينيـه لَمَّـا طـال سـكوت الشـيخ؛ فوجـده يتفصـد عرقًـا وعينـاه مغروقتـان بالدمـوع!

- مَالَك يا شيخ (جعفر)؟ سـأله (سـامر)

سكت الشيخ ولم يُجِبْ لفترة ثم قال:

- هـو سـحر أسـود بـكل تأكيـد، لكنـه سـحر سـفلي ثقيـل لـم يَمُـرّ علـيَّ مثلـه مـن قبـل إلا مـرة واحـدة، يومهـا أخذتنـي الحَمِيَّـة أننـي لهـا واسـتَمرَّيتُ في رقيـايّ، لـم آبَـه لصرخـات المصـاب لكنـي أَفَقْتُ علـى صيحـات المسـاعدين.
- أمعقول ما تقوله يا شيخ؟ و ماذا صَنَعْت؟
- مـا كان لـي أن أعـدو قـدري، مـا زدت علـى أن توقفـت و نصحـت أهـل المصـاب أن يذهبـوا بـه إلـى الشـيخ (يَحْـيَ) في صنعـاء باليمـن!

وبالفعـل ذهـب (سـامر) إليـه، و لـم يسـتفد منـه أكثـر مـن أن قـال لـه الشـيخ (يَحْـيَ):

- لا شـك أن هـذا السـحر مـن عمـل (أورهايـون) و أنـه قـد عُقِـد لـك باسـتعمال قطـرات مـن سـائلك المنـوي أو قطـرات مـن دمـك.
- ومن هو هذا ال (أورهايون)؟
- ساحر رهيب يعيش في المغرب.
- هل أذهب إليه ليفك سحري؟
- إذن تكفـر بربـك إن التجـأت إلـى سـاحر مثلـه، يـا بُنَـيَّ عـلاج السـحر لا يكـون إلا بالقـرآن.
- فماذا أصنع يا شيخ (يَحْيَ)؟
- عليك بالشيخ (سيدي محمد البرغواطي) في جنوب المغرب...

●●●

لـم تكـن هـذه هـي المـرة الأولـى التـي يسـمع فيهـا (سـامر) اسـم الشـيخ (البرغواطـي) إنـه نفـس الشـيخ الـذي ذهـب إليـه قبـل ذلـك أحـد نُسـبائِه السـعوديين، فأسـرة (سـامر) تقيـم بالمملكـة العربيـة السـعودية منـذ السـتينيات وقـت أن عمـل والـده بالتدريـس في جامعـة (أم القـرى) ولـم يعـد بعدهـا إلـى سـوريا، و هنـاك وُلِـد (سـامر) و إِخْوَتـه، وتزوجَـتْ إحـدى أخواتـه هنـاك.ابـن أخـي زوج تلـك الأُخـت، شـاب سـعودي نَابِـه أرسـله والـده لدراسـة الطـب في الهنـد- دراسـة الطـب في تلـك البـلاد لهـا آفـاق مختلفـة مـن الخبـرة و الممارسـة...

فجـأة؛ أصـاب هـذا الشـاب فيـروسٌ غريـب، ولـم تفلـح كل المحـاولات لعلاجـه هنـاك في الهنـد، وأعـاده أهلـه بالطائـرة رأسًـا إلـى مستشـفى الملـك فيصـل التخصصـي بالريـاض، صارحهـم الأطبـاء بـأن الشـاب في حكـم الميـت سـريريًا، وأنهـم لا يعرفـون حتـى تحديـد نـوع ذلـك الفيـروس...أمُّ هـذا الشـاب لـم تتقبـل هـذا الـكلام أبـدًا، رفضـت غريـزة الأمومـة عندهـا الاستسـلام، خاطبـت أهلهـا في المغـرب، كانـت كالغريـق الـذي يتعلـق بـأي قشـة، نقلـوه بسـرير المستشـفى إلـى مطـار الريـاض ومنـه إلـى المغـرب، وبعـد رحلـة طويلـة دخـل الشـاب ممـددًا علـى سـريره إلـى مسـجد الشـيخ (البرغواطـي) ليخـرج بعـد ثلاثـة أيـام يمشـي علـى قدميـه!

لـو طلـب وقتهـا الشـيخ (البرغواطـي) مـن أهـل الشـاب وزنـه ذهبًـا لفعلـوا، لكنـه رفـض أن يتقاضـى منهـم (سـنتيمًا) واحـدًا، وبعـد إلحـاح منهـم قـال لهـم:

- كل ما تجود به نفوسكم ضعوه في أعمال الخير في أي مكان.

الهدية الوحيدة التي قبلها الشيخ من والد الشاب كانت قارورة عطر ثمينة من دهن العود الفاخر الممزوج بخلاصة الورد الطائفي، وعِدّة دعوات لتأدية فريضة الحج وهبها الشيخ (البرغواطي) لبعض أهله.

وأفاق (سامر) من خواطره و ذكرياته على صوت مضيفة طائرة مصر للطيران تطلب منهم ربط الأحزمة استعداداً للهبوط في مطار كازابلانكا.

●●●

(٢)

عادت (سلمى) إلى منزل أسرتها في حي المعادي الراقي بالقاهرة بعد رحلة سفاري إلى البحيرة المسحورة و وادي حيتان بالقرب من مدينة الفيوم الرابضة في وسط مصر، كانت (سلمى) هي المسئولة هذه المرة عن تنظيم هذه الرحلة تبع أسرتها الجامعية (أسرة السندباد)؛ أسرة- بالضبط كما يقول اسمها- تهتم بكل ما هو رحلات.

وتجاوز أعضاء هذه الأسرة الرحلات التقليدية المعتادة إلى بورسعيد أو الأقصر وأسوان أو شرم الشيخ...إلخ، وإنما مَدَّت آفاقها إلى ما هو أبعد، بداية مع رحلات السفاري في صحراوات مصر المختلفة وإلى سيوة وجبل الطور والصحراء الشرقية، ثم تخطت ذلك إلى ارتياد الأماكن غير المشهورة عند مرتادي الرحلات في مصر مثل سهل حشيش ورأس شيطان وشرم الناقة، و وادي قولان و وادي دجلة، ومحمية أبو جالوم ومحمية الصحراء البيضاء، وغيرها.

كما ينظمون فيما بينهم بعيدًا عن إدارة الجامعة رحلات إلى أوروبا يسمونها رحلات التسكع و الصعلكة... المعضلة تكون فقط في استخراج تأشيرة الشنجن إلى أوروبا، ومعظم أعضاء الأسرة تجاوزوا هذه المعضلة بسبب كثرة سفرياتهم خارج مصر، ثم بعد التأشيرة تكون كل الأمور سهلة؛ تذاكر الطيران يتم إيجاد أرخصها على مواقع sky-scanner أوkayak أو expedia أو غيرها، ويزورون أكثر من دولة في الرحلة الواحدة، ويتنقلون بطريقة الأوتوستوب أو بالقطار الدولي

بين دول أوروبا والذي أحيانًا تكون تذاكره مخفضة للطلبة، ويحجزون المبيت في أي هوستيل - نُزُل شباب أو أرخص موتيل يمكن إيجاده، والطعام هو آخر شيء يفكرون فيه، رحلة لا تتجاوز تكلفتها الألف يورو من أولها لآخرها.

بعضهم يَدَّخر لسنة كاملة لاستكمال هذا المبلغ و بعضهم لا يمثل له هذا المبلغ رقمًا يذكر، لكنه يطير إليها فرحًا بحب المغامرة الجماعية والتسكع مع شلة الصعاليك كما يسمون أنفسهم.

لا وقت لدى (سلمى) للراحة بعد عودتها برغم رحلتها المرهقة هذه، دخلت شارعها الذي لا يزال يحتفظ بهدوئه و رونقه في حي (المعادي القديمة) برغم ما بُنِيَ فيه من أبراج سكنية مكان بعض الفيلات، صعدت إلى شقتهم التي تتغيب عنها أغلب اليوم في أنشطتها المتزاحمة، ألقت حقيبتها الجاهزة دائمًا لأي سفر واحتضنت أمها، وقبَّلت أباها الغاضب منها عادةً بلا سبب سوى ما يراه تحررًا منها وانطلاقًا زائدين، ومازحت أخاها الصغير على عُجَالة ثم ألقت بجسدها على سريرها.

ساعة واحدة ثم أفاقت، قفزت إلى الحمام و أخذت حمامًا سريعًا ومنه إلى المطبخ حيث مزجت الأرز مع الخضار مع قطع اللحم في طبق واحد، والتهمت الكل على عُجَالة من ليس لديه وقت لطقوس موائد الغداء.

هـي الآن تقـود سـيارتها الصغيـرة في طريقهـا إلـى مركـز سـاقية الصـاوي الثقـافي؛ لحضـور نـدوة عـن تفاقـم ظاهـرة التحـرش الجنسـي واللفظي في الشـارع وأسـبابها وطـرق مواجهتهـا، بعض أصدقائهـا أعضـاء في حركـة (امسـك تحـرش) لكنهـا تـرى أن هـذا مجـرد مُسَـكِّن سـطحي يشـبه تنـاول حَبَّـة لتسـكين الصـداع بـدون عـلاج أسـبابه.

في طريقهـا للنـدوة عرجـت علـى إحـدى صديقاتهـا؛ كـي تلتقـط منهـا نسـخًا مـن المحاضـرات التـي فاتتهـا خـلال أيـام رحلـة الفيـوم و بحيرتهـا و حيتانهـا...

هكـذا هـي حياتهـا لا تـكاد تلتقـط فيهـا أنفاسـها، مـا بـين الجامعـة ورحـلات داخليـة وخارجيـة و نـدوات وأنشـطة اجتماعيـة، إنهـا تحمـد اللّه علـى نعمـة الهواتـف الذكيـة؛ فالفراغـات البينيـة في جدولهـا اليومـي المزدحـم هـو الوقـت المتـاح لديهـا لتصفـح بريدهـا الإلكترونـي أو متابعـة آخـر الأخبـار أو الفعاليـات عبـر الواتسـاب والفيسـبوك، وأصبحـت تعتمـد كثيـرًا علـى برامـج S Planner و Evernote و Dropbox، لذلـك فـإن أهـم مـا في حقيبـة يدهـا هـو شـاحن المحمـول و الباوربانـك.

(سـلمى) نشـيطة و متحركـة منـذ نعومـة أظافرهـا، لكنهـا لـم تصبـح بكل ذلـك الجـدول المزدحـم إلا منـذ سـنتين، أحيانًـا مـا تسـأل نفسـها: هـل هـي أصبحـت كذلـك لأنهـا أحبـت هـذه الدرجـة العاليـة مـن النشـاط وتحـس فيـه بمعانـي الوجـود؟ أم أن هـذا كان هـو ردة فعلهـا النفسـية بعـد قطـع العلاقـة مـع (هشـام)؛ الحـب الأول والصدمـة العاطفيـة الأولـى أيضًـا؟

إنها لا تزال تذكره، وتفكر فيه كل ليلة برغم مرور هاتين السنتين، لا تصدق أن حبهما الكبير الذي بدأ منذ مقاعد المدرسة الثانوية بسنواتها الثلاث واستمر في السنة الجامعية الأولى يمكن أن يتوقف هكذا ببساطة!

فجأة قرر(هشام) السفر إلى أمريكا في صيف السنة الجامعية الأولى كما يحاول الكثير من الطلبة، وبالفعل نجح في السفر إلى هناك وهو يعد (سلمى) – ودموعهما تملأُ أعينهما – بأنه الصيف فَحَسْب ثم يعود إليها قبل بداية العام الدراسي الجديد.

كانا يتحدثان كل يوم على برامج الدردشة المختلفة ثم بدأت الاتصالات تتباعد منه بحِجَجٍ شَتَّى، وفجأة انقطعت كل اتصالاته، كادت تُجَنُّ من الظنون السيئة التي راودتها بشأن مكروهٍ أصابه، وبعد أسبوعين رَقَّ قلبه للهفتها عليه وأرسل لها رسالة تحمل كلام الشباب إياهم من عينة: أتمنى لكِ التوفيق مع من يستطيع إسعادك، وأنا طريقي طويل ولا أستحقك...إلخ. هذه المقاطع المحفوظة كأنها موسيقى الختام لنشرة الأخبار؛ متى تسمعها تدرك أن النَّشرة – أقصد العلاقة – قد انتهت.

تلقت (سلمى) الصدمة بشكل مختلف، لم تبكِ ولم تكتئب أو تغلق على نفسها باب حجرتها، جاءتها الصدمة بأعراض عكسية؛ فصارت على ما هي عليه الآن من نشاط يستهلك كل وقتها و طاقتها، لا تريد أن تتذكر أنها فكرت يومًا أن تهب (هشام) فرصة التجول داخل حديقتها ومداعبة بعض ثمارها، إنها تحتقر نفسها كلما تذكرت ذلك، وصَاحَبَ

ذلـك كُفـرٌ شـديدٌ منهـا بالحـب فأغلقـت قلبهـا وأصَمَّـت أذنيهـا عـن أي طـارق جديـد يحـاول التسـلل منهمـا، و حَوَّلَـت نفسـها إلـى داعيـة تنشـر كُفْرَهـا بالحـب بـين صديقاتهـا و تُعَـدِّد لهـن الأمثلـة الدالـة علـى صـدق عقيدتهـا والتـي تتكـرر أمامهـن كل يـوم.

ولأنَّ (سـلمى) لا تؤمـن إلا بالـزواج عـن طريـق الحـب فقـد أغلقـت كتـاب الـزواج أيضًـا، حتـى أنهـا طلبـت بعـد ذلـك مـن والدتهـا أن تعطيهـا تلـك القـلادة المتوارثـة بـين نسـاء عائلـة أمهـا المَقْدِسـيَّة الجذور...فمنـذ أكثـر مـن عشـرة أجيـال مـن الأمهـات - و قبـل أن يهاجـر أحـد الأجـداد الأوائـل مـن القـدس إلـى مصـر - و كل أم تهـدي هـذه القـلادة إلـى ابنتهـا الكبـرى قبـل زفافهـا.

إنهـا قـلادة مثيـرة للحيـرة؛ فـلا تـدري أهـي قـلادة أم سـبحة، و حَبَّاتُهـا ال ٣٣ مثيـرة للإعجـاب بلونهـا العاجـي الصـافي و بنقوشـها المتقنـة الغريبـة الغيـر مفهومـة، وتتوسـط هـذه الحبـات قطعـة مـن حجـر اليشـب الأخضـر محفـورة بنقـشٍ غامـضٍ كالطلسـم لكنـه جميـل.

ولمـا سـألت (سـلمى) أمهـا عـن معنـى النقـوش و هـل لهـا علاقـة بالقـدس أو بفلسـطين أجابتهـا أنهـا لا تعـرف، وأمهـا و جداتهـا كذلـك لا يعرفـن سـوى أنهـا قـلادة متوارثـة بـين الأمهـات منـذ أجيـال بعيـدة، وهنـاك حكايـة تقـول أنـه قـد عثرعليهـا في إحـدى الحفريـات في القـدس أيـام الحـروب الصليبيـة ثـم اشـتراها أحـد الأجـداد بعـد ذلـك بزمـن وأهداهـا لزوجته...لـم يُصَـدِّق الجَـدُّ بالطبـع تلـك الحكايـة التـي حكاهـا لـه التاجـر بائـع القـلادة، لكـن النـاس مولعـون بتناقـل القصـص والأسـاطير.

وكتمت الأم حزنها على حال ابنتها لكنها أهدتها القلادة شفقةً بها؛ فهي ابنتها الوحيدة و وَارِثَة القلادة على كل حال و عِنْدًا في الزواج أو حبًا منها للقلادة الجميلة؛ قررت سلمى ذات ليلة أن ترتدي القلادة فوضعتها حول عنقها وسرعان ما غَطَّت في نوم عميق.

●●●

(٣)

كعادتها كانت (سالمة) أول من استيقظ من أسرتها الكبيرة قبل الفجر بمدة يسيرة، أوقدت سراج الزيت في غرفتها و حملته وهبطت به من الطابق العلوي في الدار، اتجهت إلى الحمام فوجدت الجارية (صُبح) وقد أشعلت موقد الحمام وبدأت في تدفئة الماء، وبوجهٍ لا يزال يملؤها النعاس تبادلتا تحيات الصباح، ثم أخذت (سالمة) إبريقًا نحاسيًا ملأته بالماء الدافئ وصعدت به ثانية، وضعته و معه طست نحاسي صغير على باب غرفة والديها ونقرت الباب بلطف حتى فتحت والدتها، تبادلتا الصباح و تركت لأمها مهمة صب ماء الوضوء لوالدها ثم ذهبت هي لإيقاظ باقي إخوتها وأخواتها.

منهم من سيسارع بالوضوء كي يدرك صلاة الفجر في المسجد مع الوالد، ومنهن من ستسارع إلى المطبخ كي تساعد (سالمة) في تجهيز الفطور والذي بدأت الجارية (صُبح) في إعداده بالفعل.

مع الشروق يكون الجميع قد انتهى من إفطاره، فيخرج الأب (الحاج محمد البكري) ممتطيًا عربته الأنيقة التي يجرها زوج من الخيل الأصيلة مصطحبًا ابنه الأكبر الذي ناهز الثانية والعشرين، وبدأت مفاوضات والديه معه في أمر الزواج منذ أعوام، حتى وصلت إلى حد الغضب منه ولكنه لم يتحمس للزواج بعد، فيعرجان أحيانًا على بستان نَخِيلِهِم القريب من أطراف مدينتهم (مدينة رشيد) النائمة في سلام على فرع النيل المسمى باسمها عند التقائه بالبحر الأبيض،

فيشـرفان علـى الأعمـال فيـه إن كانـت هنـاك أعمـال، أو يكتفيـان بنظـرة اطمئنـان عليـه وعلـى المزارعـين فيـه، ثـم يوليـان وجهيهمـا ثانيـة شـطر سـوق رشـيد؛ حيـث يباشـران عملهمـا اليومـي في حانـوت الوالـد الخـاص بتجـارة التمـور والحبـوب، و يذهـب باقـي الإخـوة الصبيـان إلـى مدارسـهم أو كتاتيبهـم في حـين تبقـى (سـالمة) مـع أمهـا وأخواتهـا البنـات لرعايـة أمـور الـدار.

سـتكون (سـالمة) أكثـر أخواتهـا نشـاطًا وعمـلاً برغـم أنهـا أكبرهـن سـنًّا، لكنهـا تفعـل مـا في وسـعها لتشـغل عقلهـا عـن أحزانـه، إنهـا برغـم جمالهـا الواضـح و بياضهـا الناصـع الـذي ورثتـه عـن جدتهـا المَقْدِسـيَّة إلا أنهـا قليلـة الحـظ في هـذه الدنيـا - أو هكـذا يعتبرونهـا - فقـد تأَّخـر الخُطَّـاب في طـرق بابهـا إلـى أن ناهـزت السـابعة عشـرة مـن عمرهـا، حتـى بـدأت أمهـا في السـعي لاكتشـاف إن كانـت ابنتهـا قـد رُصِـدَت بعمـل أو سـحر، فمـن هـي في مثـل جمالهـا وحَسَـبِهَا لا يمـر عليهـا عامهـا الخامـس عشـر إلا وهـي تنتظـر مولـودًا!

ولـم تصـدق الأم كلام العَرَّافـين بمعافـاة ابنتهـا حتـى جاءهـا بالفعـل مـن الخُطَّـاب مـن يطلـب يدهـا ويليـق بهـا. وطـار البيـت و بيـوت الجيـران والأحبـة بالفـرح لسـالمة ولأسـرتها المحبوبـة بالفعـل بـين أهالـي رشـيد، وزُفّـت (سـالمة) إلـى عريسـها الصيـاد الشـاب الـذي يعمـل ريسـآ علـى مراكـب والـده...لكـن مـا هـي إلا شـهور قليلـة و ابتلـع البحـر عريـس (سـالمة) وابتلـع معـه فرحتهـا.

ولـم تَـرِثْ (سـالمة) مـن فقيدهـا مـن يحمـل بصمتـه ﻓﻲ أحشـائها، وحمـل البحـر عريسـها ﻓﻲ جوفـه قبـل أن تحمـل هـي منـه، وكأنهـا كانـت هـي السـبب ﻓﻲ تأخـر الحمـل خـلال تلـك الأشـهر المعـدودات؛ فصَـبَّ أهـل زوجهـا عليهـا اللـوم، إذ لـو كانـت تحمـل منـه ولـدًا ﻓﻲ رحمهـا لربمـا عوضهـم ذلـك عـن فقـد ابنهـم.

وبـدلاً مـن أن يكـون تأخـر الحمـل نعمـة علـى وليـد نجـا مـن أن يولـد يتيمًـا أصبـح نقمـة علـى (سـالمة)؛ إذ تشـاءمت منهـا أمهـات العرسـان، بـل ربمـا لـو كانـت تحمـل جنينًـا ﻓﻲ بطنهـا لضمنـت أن يبـادر أهـل زوجهـا إلـى تزويـج أرملتـه مـن أحـد أبنائهـم كـي يراعـي ابـن الفقيـد مـع أولاده.

وهكـذا صـارت (سـالمة) أرملـة جميلـة دون العشـرين و لـم تكتسـب مـن زواجهـا المشـئوم إلا تلـك القـلادة التـي أهدتهـا إليهـا أمهـا ليلـة زفافهـا؛ سـيرًا علـى العـادة المتوارثـة بـين أمهـات تلـك الأسـرة، إذ تهـدي كل أم إلـى ابنتهـا الكبـرى قبـل زفافهـا تلـك القـلادة المتوارثـة عبـر أجيـال مـن الأمهـات.

إنهـا قـلادة عجيبـة فـلا تـدري أهـي قـلادة أم سـبحة، وحباتهـا الــ ٣٣ مثيـرة للإعجـاب بلونهـا العاجـي الصـافي ومـا فيهـا مـن نقـوش متقنـة وغريبـة غيـر مفهومـة، وتتوسـط هـذه الحبـات قطعـة مـن حجـر اليشـب الأخضـر محفـورة بنقـش غامـض كالطلسـم لكنـه جميـل...

تتـوارث الأمهـات قصـة أسـطورية عـن هـذه القـلادة وأنهـا عثـر عليهـا أيـام الحمـلات الصليبيـة تحـت أنقـاض بعـض الحفريـات واشـتراها أحـد الأجـداد المَقْدِسـيين مـن أحـد التجـار وأهداهـا لزوجتـه، وحملـت هـذه

الأسـرة هـذه القـلادة و هـذه القصـة معهـا عندمـا نزحـوا مـن القـدس واسـتوطنوا مصـر، وتوارثـت الأمهـات القـلادة حتـى وصلـت إلـى (سـالمة) التـي أشـفقت عليهـا أمهـا أن تسـتردها منهـا حتـى بعـد أن خُطِبَـت أختهـا (توحيـدة) الأصغـر منهـا.

●●●

(٤)

أخيرًا حطت طائرة الخطوط المغربية ب (سامر) أرض مطار مدينة (أكادير)، وعلى بوابة الخروج وجد في انتظاره ذلك الشاب من أقارب سِلْفِة أخته التي تعيش في السعودية... شاب خدوم تطوع مشكورًا لاصطحاب (سامر) إلى حيث يلقى الشيخ (محمد البرغواطي)، كما تطوع من قبل لاصطحاب الشاب السعودي - ابن قريبته - الذي جاء مسجد الشيخ ممدًا على ظهره وخرج منه يمشي على قدميه كأن لم يمسسه سوء.

استقل (سامر) والشاب المغربي سيارة دفع رباعي استأجرها الشاب بسائقها لتُقِلَّهم إلى حيث يلقون الشيخ، فسأله (سامر) بعد أن استقلوا السيارة و انطلقت بهم:

- هل هي رحلة طويلة؟

- لا أبدًا، إننا في طريقنا إلى مدينة تزنيت وهي لا تبعد عن هنا إلا أقل من ١٠٠ كيلو مترًا، لكن الشيخ (البرغواطي) لا يقيم داخل تزنيت نفسها، إنما اختار أن يبني مسجده على أحد أطرافها كأنه يختلي بنفسه أو كأنه يتعرض للهواء النقي الذي يحمل عبير المحيط الأطلسي القريب من المدينة.

هزَّ (سامر) رأسه وحمد الله أنه قد اقترب من غايته، فهو على سفر متصل منذ يومين تقريبًا، وعلى وقع اهتزاز السيارة غفلت عيناه

قليـلاً و لـم يشـعر إلا ويـد الشـاب توقظـه أن قـد اقتربنـا مـن مسـجد الشـيخ، صحـا (سـامر) وجـال ببصـره في المكان مـن نافـذة السـيارة، الهـدوء يلـف كل شـيء و الهـواء يـكاد فعـلاً يحمـل أريـج الأطلسـي رغـم أنـه يبعـد عنهـم أكثـر مـن عشـرة كيلومتـرات، والمكان صحـراوي تتناثـر فيـه البيـوت البعيـدة عـن بعضهـا، وعلـى ضفـة الطريـق تتناثـر عـدة دكاكـين وأحـد المقاهـي ومحـلات لخدمـة المسـافرين أو لإصـلاح السـيارات. وانحرفـت السـيارة عـن الطريـق و توغلـت قليـلاً داخـل المـكان و صعـدت تبـة صغيـرة ترتفـع عـن باقـي المكان كأنهـا تشـرف عليـه، ثـم توقفـت أمـام بـاب المسـجد.

نزلـوا ثلاثتهـم ووجـدوا علـى بـاب المسـجد أحـد الشـباب يرحـب بهـم، يبـدو مـن هيئتـه و جلبابـه و غطـاء رأسـه أنـه أحـد مسـاعدي الشـيخ، قادهـم الشـاب إلـى داخـل المسـجد وغـاب لدقيقـة وعـاد يحمـل صينيتـي طعـام، وسـألهم:

- من منكم الشاكي؟

فأشـاروا لسـامر فوضـع أمامـه الصينيـة التـي لا تحمـل لحمًـا ولا أي منتـج مـن منتجـات الألبـان، ثـم قـدم الصينيـة الأخـرى لمُرَافقيـه.

لقـد التـزم (سـامر) حرفيًّـا بالتعليمـات و لـم يتنـاول أي لحـم ولا منتـج ألبـان لمـدة أسـبوع، وظـل طـوال أيـام الأسـبوع علـى طهـارة - هـو أصـلاً بعيـد عـن زوجتـه منـذ شـهر تقريبًـا، وبعـد الغـداء قادهـم الشـاب المسـاعد إلـى إحـدى الغـرف الملحقـة بالمسـجد ليلتقـوا بالشـيخ (البرغواطـي)...

رجل خمسيني متوسط القامة له لحية قصيرة قد غزاها بعض الشيب، يملؤه الوقار وله عينان نفاذتان، أحس (سامر) عندما التقت عيناه بهما وكأنهما تخترقان عظامه. جلسوا جميعهم أمام الشيخ وبدأ (سامر) يقص عليه حكايته والشيخ يستمع إليه منصتًا ويقاطعه أحيانًا ببعض الأسئلة، حتى إذا فرغ (سامر) مما لديه التفت الشيخ البرغواطي إلى شابٍ يجلس على يمينه وملامحه تشبه ملامح الشيخ كثيرًا، و قال له:

- (حسن)؛ هل أنت لها؟

فأجابه الشاب:

- بإذن الله يا أبي.

وتوجس (سامر) وحدَّث نفسه: هل جئت إلى هنا لكي يتدرب عليَّ المبتدئون؟

قام (حسن) وجلس أمام (سامر) و وضع يده على رأسه بدأ يقرأ بعض آيات من القرآن ثم توقف و قال (لسامر):

- منذ متى وأنت تلبس قميصك هذا؟

استغرب (سامر) لكنه أجاب:

- منذ يومين تقريبًا.

- حسنٌ جدًا، اخلعه!

خلع (سامر) قميصه في استسلام وهو ينظر متعجبًا إلى (حسن) الذي قام و أحضر دَلوًا فيه بعض الماء وأدخل يده فيه أخذ يقلب الماء بأصابعه وهو يقرأ بعض آيات من القرآن، ثم قال لسامر:

- توضَّأ من الماء وهو داخل الدلو ودع الماء يتساقط من وضوئك داخله.

فعل (سامر) ذلك وبعد أن انتهى من وضوئه أعطاه (حسن) مجموعة عيدان صغيرة، وكل عود مربوط حوله خيط رفيع قال له:

- امسك العيدان بيمناك وضعها على قلبك و أغمض عينيك.

فعل (سامر) كما قال (حسن) الذي أخذ يقرأ من جديد و يده فوق رأس (سامر)، ثم قال له بعد أن فرغ من قراءته:

- أعطني العيدان.

نظر (حسن) في العيدان فوجد عودين منهما وقد انقطع الخيط الذي يلف كل واحدٍ منهما، أمسك (حسن) بالعودين وقال:

- هذا سحر محبة و ذاك سحر أذى...غريبة أن يجمع من سحر لك بين المحبة والأذى، الآن نبدأ العلاج بإذن الله... الآن غَطِّي فوهة دلو الماء بقميصك ولفه حوله بإحكام ثم احتضنه بقوة.

فعل (سامر) ذلك فقال له (حسن):

- أغمض عينيك واسترخ تمامًا.

ثم أخذ حسن يقرأ ويقرأ و صوته يعلو بالقراءة أحيانًا وينخفض أحيانًا أخرى، ثم أخذ يدعو الله بأسمائه الحسنى و يناجيه بما قال أنه اسمه الأعظم ثم سكت... وقال (لسامر):

- ارفع قميصك و انظر داخل الدلو.

شهق (سامر) و هو يرى في الماء داخل الدلو سروالاً داخليًّا له وأحد جواربه، وتذكر أنهما كانا مفقودين منه وتذكر أنه فقد هذا السروال بعد ليلةٍ كانت له في أحضان زوجته (بثينة).

- هل هذه الأشياء لك؟

سأله (حسن)، فقال (سامر) و صوته لا يكاد يخرج منه: نعم.

- ارفعها من الماء.

ففعل (سامر) ذلك فإذا به يرى تحتها عدة أحجار صغيرة لم تكن هي أيضًا في الدلو قبل أن يضع عليه قميصه، رفع (سامر) الأحجار وتأملها فوجد اسمه و اسم (بثينة) منقوشين بدقة غريبة على كل حجرٍ منهم.

- هل تعرف الأسماء المنقوشة على الأحجار؟

- نعم ، اسمي و اسم زوجتي التي أخبرتكم عنها.

-حسنًا، هذه هي مادة السحر الذي صنع لك، الآن تَحْرِق السروال والجورب و تَدُقُّ هذه الأحجار حتى تفتتها ثم تنثرها في الهواء.

نظر الشيخ (البرغواطي) إلى ابنه (حسن) في رضا و هو يبتسم ثم قال (لسامر):

- مبروك يا ولدي، ولكن خذ حذرك فيما بعد وتخير لفراشك و داوم على الأذكار وقراءة سورة البقرة...الآن يمكنك أن تطلق زوجتك بغير أن يصيبك بأس.

●●●

(٥)

خـرج (نـواف) مـن بوابـة فيلتـه الفاخـرة القابعـة في حـي الخزامَـى الراقـي في (الريـاض) تُقلِـه سـيارته الفارهـة عبـر الشـوارع الفسـيحة إلـى مطـار الملـك خالـد، وبينمـا سـائقه مشـغول بالتركيـز في الطريـق كان هـو يسـترجع في رأسـه مشـادة الليلـة المنصرمـة مـع زوجتـه (نـوف).

هـي اعتـادت أن تفتعل معـه المشـاجرات في كل مـرة يسـافر فيهـا إلـى (بيـروت) وهـو لا يـرى أي سـبب منطقـي في مشـاحناتها تلـك، هـي تعلـم أنـه متـزوج هنـاك في بيـروت وتعلـم أن زوجتـه اللبنانيـة تديـر لـه مشـاريعه السـياحية المتناثـرة في لبنـان وغيرهـا... لكـن (نـوف) لـم تقتنـع أبـدًا أنـه تزوجهـا فقـط لخبراتهـا الإداريـة في المشـروعات السـياحة.

لمـاذا تغـار منهـا ؟ هكـذا سـأل (نـواف) نفسـه، إن الـزواج بأكثـر مـن زوجـة أمـر عـادي في السـعودية، بـل كانت بعض الزوجـات يخطبن لأزواجهن بأنفسـهن إذا استشـعرن نيـة الـزوج في الإقدام على تلك الخطوة! فتضمـن بذلـك على الأقل أكبـر قـدرٍ من التفاهـم مـع ضرتهـا.

لمـاذا تغـار (نـوف) إذن و الزوجـة الثانيـة (كوليـت) لا تجاورهـا في ربـوع المملكة بأسـرها؟

هـل غـارت لمَّـا شـاهدت صورتهـا معـه مصادفـة؛ فوجدتهـا فاتنـة ينبغـي أن تُزَيِّـن صورتهـا أغلفـة مجـلات الموضـة والجمـال؟

لا أظن...

هكذا قال لنفسه...

(فنوف) أساسًا نموذج صارخ للجمال العربي و فتنة الشرق، من أول شعرها الأسود الثقيل اللامع الذي يمتد في خطوط حريرية طويلة تنساب حول بشرة حنطية صافية كالمرآة المصقولة، تغلف قوامًا ممشوقًا تلتف تضاريسه في عناية و سحر و لا هو بالنحيف ولا هو بالممتلئ، وتتراص ملامح وجهها في تناسق بديع، و تشع بينهما جوهرتي عينيها كأصدق ما تكون عليه عيون غزال (المَهَا) حين توصف بهما عينا غادة حسناء!

هي تعلم أنه يعشق جمالها العربي الأصيل، و تعلم حجم المنافسة التي دخلها مع عدد من أعيان شباب الرياض عليها حتى فاز بيدها من دونهم، منافسة لم يكن سلاحه الوحيد فيها ثراءه و نسبه، قال ذلك لنفسه و هو ينظر إلى وجهه في المرآة التي تتوسط صالون السيارة، ويتأمل لثوانٍ ملامحه القسيمة و لِحْيَتِه الخفيفة التي تبدو وكأنها مرسومة بالليزر في إتقان.

هو لم يقتنع بكلام (نوف) و مقارناتها بين حياته المحافظة في الرياض وتضييقه عليها كما تدعي و بين حياته المنفتحة – كما تقول هي – مع زوجته (كوليت) و خارج المملكة عمومًا...

هل نَسِيتِ يا (نوف) أنك سيدة سعودية؟ خَاطَبَهَا (نواف) في باله...

أنتِ بطبعك فتاة محافظة و تأبين خلع الحجاب عن رأسك، أو حتى خلع العباءة عندما تسافرين للخارج كما يفعل ذلك كثيرات غيرك وإنما تكتفين بإظهار وجهك.

هل تنتقدين تسامحي مع (كوليت) في مظهرها؟ وتقارنين ذلك بأنني لا أسمح لكِ بالسفر خارج المملكة في الأيام التي أغيب فيها عنكِ لمباشرة أعمالي؟ بين تساهلي في النقاش مع (كوليت) التي تحتد عليَّ أحيانًا كما تتخيلين من مكالماتي معها و بين صرامتي معكِ؟

أنتِ تُسَمِّينَ ذلك تناقضًا و أنا أسميه مرونةً، فحياتي المحافظة هي الأساس الذي تربينا عليه في مجتمعنا، أما حياتي الأخرى فهي مسايرة للدنيا، وهذا التساهل مني في النقاش مع (كوليت) إنما هي مناقشات خاصة بالعمل والمرونة شيء أساسي فيه.

وتَذَكَّر (نواف) أحداث المشادة السريعة التي دارت بينهما بالأمس عقب رفضه لسفرها:

– أنت تغيب بالأسابيع وخلالها يقتلني الملل.

– أنا لا أغيب عبثًا، هذه متطلبات العمل.

– إمَّا أن تأخذني معك إلى بيروت وإمَّا أن تدعني أسافر عند أخي في لندن هذه الأيام.

– وأنا لا أقبل أن تشترطي عَلَيَّ، لا بيروت ولا لندن.

– أنا لا أشترط عليك، أنا أكاد أختنق من تضييقك عَلَيَّ.

ثم بدأ صوتها يختنق و تحتد عباراتها وتتداخل كلماتها في بعضها كما هو المعتاد أن يحدث منها كلما تكلمت وهي غاضبة، ولم يكن عنده أي استعداد لسماع هذا اللغط الغير مفهوم من الأصوات؛ فهو مشحون بما فيه الكفاية طوال اليوم، فوضع يده تلقائيًّا على فمها ليوقف هذه الحشرجات التي لا يفهمها، بينما ظنت هي أنه يمنعها حتى من حقها في الكلام والاحتجاج، وأحست كأنها تختنق فنفضت يده بعيدًا عن فمها في عنف، فانقطعت السبحة الثمينة التي لا تفارق أصابع يده وانفرطت حباتها في الأرض...

نظر (نواف) في غيظ إلى حبات سبحته وهي تتدحرج على الأرض في كل اتجاه، فأقسم على (نوف) ألا تغادر- ليس فقط الرياض - بل حتى الفيلا حتى يعود من بيروت، وأن تُعِيد حبات السبحة إلى ترتيبها التي كانت عليه...

إنها تعلم مدى اعتزازه بهذه السبحة، إنها سبحة مثيرة للحيرة؛ فلا تدري أهي سبحة أم قلادة، وحباتها الـ ٣٣ مثيرة للإعجاب بلونها العاجي الصافي و نقوشها المتقنة الغريبة الغير مفهومة، و تتوسط حباتها قطعة من حجر اليشب الأخضر محفورة بنقش غامض كالطلسم لكنه جميل...

وابتسم (نواف) في أسًى وهو يتذكر ذلك اليوم البعيد الذي أهداه فيه جَدُّه هذه المسبحة، و أخبره يومها أنه اشتراها منذ زمن بعيد - وهو بعد شابٌ صغيرٌ - من حانوت صغير لعجوز هندي في مدينة (أحمد أباد) في إحدى رحلاته التجارية القديمة إلى الهند، وقص

عليه كيف سَخِرَ منه أهله؛ أنه صدق كلام التاجر الهندي العجوز عندما أخبره أنها سبحة مسحورة يعود تاريخها لمئات السنين، لكن أحدًا لم يستطع أن يفسر تلك النقوش، ولا أن يَدَّعي أنها نقوش بلا معنى من شدة إتقانها، وانتبه نواف إلى صوت سائقه وهو يخبره في أدب بوصولهم إلى بوابة صالة السفر.

●●●

(٦)

أخذت (نوف) تذرع غرفة نومها ذهابًا وإيابًا و دورانًا حول نفسها، تحس أن جدران غرفتها تكاد تطبق على أنفاسها برغم مساحتها الواسعة التي تقارب مساحة شقة صغيرة.. ها هو (نواف) يقسم عليها من جديد ألا تبارح سجنها - تقصد قصرها - حتى يعود من السفر، إنها ما غضبت منه مرة، أو شَكَتْ له الملل؛ إلا و سألها:

- وماذا ينقصك حتى تكونين أسعد النساء؟

يقولها وعيناه تدوران في أرجاء القصر وكأنه يقول لها انظري لقصرك ولحياتك المترفة...

حياتي المترفة؟

هل هذا غاية ما تتمناه الزوجة؟ هل هذه هي الوعود الرومانسية التي ملأت بها أذناي أيام الخِطْبَة وأيام الملِكة؟

وسرحت (نوف) بذكرياتها في تلك الأيام، لقد اختارت (نواف) من بين من تنافسوا عليها؛ ليس لأنه أكثرهم مالاً وأرفعهم حسبًا. فكلهم كانوا أندادً له في ذلك؛ ولكن لأنه عرف كيف يغزو قلبها من بينهم... وصل لرقم جوالها - لا تدري كيف - وملأه برسائل و وعود عاطفية عذراء حالمة تذيب مشاعر أي فتاة.

وبعدها جاءتها هدية من لندن على أنها من صديقتها (مرام) التي سافرت بعد الدراسة الثانوية لتكمل دراستها الجامعية هناك مع أهلها، وإذا بها تفاجأ أن الهدية من (نواف)...كيف أرسلها من لندن؟ كيف عرف بأمر صديقتها (مرام)؟ لم تسأل تلك الأسئلة بعد أن تعلمت أنه واسع الحيلة، لكنها توقفت عند اختياره لهدية تناسب فعلاً أن تكون من صديقة لصديقتها، ولمستها اعتذاراته الرقيقة عن أنه لجأ لفعل ذلك كي يثبت لها أنه على استعداد لفعل أي شيء من أجلها، أنه يطلب فقط أن تُقْنِع أبيها - عن طريق أمها - أن يكون هو صاحب الفرصة الأولى في زيارتهم في بيتهم من أجل الرؤية الشرعية.

لم يكن (نواف) هو المتقدم الوحيد في هذه الأيام لخطبة (نوف)؛ فخلال ذلك العرس الجميل الذي زَيَّن إحدى ليالي الرياض والذي حضرته (نوف)، تكلمت عليها أكثر من عشرين أم؛ كل أم تخطبها لابنها، وتكلمت عليها والدة (نواف) ومدحت له جمالها كما لم تمدح فتاة قبلها، فعرف (نواف) أنها هي التي يبحث عنها؛ فهو يعرف ذوق أمه.

وانتهز فرصة الأيام التي يستقصي فيها أهل (نوف) عن الشباب المتقدمين لخطبتها و قرر أن يطرق شباك قلبها كما طرق باب أهلها.

وقد كان...وخلال شهور قليلة كانا يطيران بين باريس وجزر الكاريبي ولوس أنجلوس في شهر عسل كامل متكامل الأحلام لتعود بعده إلى أرض الواقع...

إلى زوج يقضي نصف أيامه خارج الرياض بدعوى متابعة

مشـاريعه، والنصـف الآخـر مـن أيامـه التـي في الريـاض ينفـق نهارهـا في مكتبـه، و ليلهـا فيمـا يسـميها جلسـات عمـل، أو في أحـد بسـاتين أصدقائـه يلعبـون (البلـوت) بـورق الكوتشـينة...زوج لا يتسـع يومـه لأهـل بيتـه إلا سـاعة وقـت الغـداء وسـاعة أخـرى أو أقـل قبـل النـوم.

هـل يسـتطيع أن يفعـل ذلـك مـع هـذه ال (كوليـت) عندمـا يسـافر إليهـا؟

قالت (نوف) لنفسها...

(كوليـت) التـي يظـن أننـي أغـار منهـا في حـين أننـي أضـع علامـات استفهام علـى (نـواف) الـذي يُضيِّقُ عَلَيَّ بحجـة أنـه رجـل شـرقي محافظ، بينمـا زوجتـه الأخـرى تلبس مـا يحلـو لهـا بـل و تشـرب أحيانًـا بدعـوى أنهـا مسـيحية و قليلٌ مـن الخمـر ليس عندهـم بحـرام!

الحقيقيـة أننـي لا أغـار مـن (كوليـت) ولكـن أَحْسُـدهَا، نعـم أَحْسُـدهَا، ليـس علـى مـا هـي عليـه مـن تحـرر و لكـن علـى مـا هـي فيـه مـن حريـة، والفـرق كبيـر بـين الحريـة و التحـرر... كمـا هـو بـين أن أمـارس الرياضـة في نـادي نسـائي مغلـق و بـين أن أمارسـها في نـادي مختلـط وسـط مزاحمـة الرجـال، وهـي في الحالتـين ممنوعـة.

فحتـى الصالـة الرياضيـة النسـائية التي كانت تجمعنـي أنا وصديقاتي ناديًـا و متنفسًـا أُغلقـت بدعـوى أنهـا غيـر مرخصـة و بعـد فتـاوى تقـول بـأن فتـح بـاب الرياضـة للنسـاء هـو بمثابـة فتـح بـاب لخطـوات الشـيطان! سـتؤدي بهـن رويـدًا رويـدًا إلـى التحلـل مـن الأخـلاق. لا زلـت أذكـر أيـام

كنت طالبة في مدرسة (مدارس الرياض) و كنا نتساءل؛ لماذا نُحْرَم من وجود حصص لممارسة الرياضة في حين ندرس في السيرة أن رسول الله قد سابق زوجته السيدة عائشة في الجري مرتين؟

أحسد (كوليت) لأنني وهي زوجتان لنفس الزوج لكن أنا لا أستطيع أن أغادر الفيلا حتى يعود (نواف) بعد يمين الطلاق الذي ألقاه في وجهي بالأمس؛ بسبب سِبْحَتِه العزيزة التي قَطَعْتُهَا رغمًا عني بعد أن كدت أختنق و هو يضع يده على فمي، بينما (كوليت) تروح وتجئ بل وتسافر دون أن تستأذنه أحيانًا بحجة مباشرة العمل...العمل؛ نعم؛ لماذا لا أعمل؟ سعوديات كثيرات تعملن بينما يمنعني (نواف) منه و يسخر قائلاً:

- الـ ٧ آلاف أو حتى ال ١٠ آلاف ريال التي ستتقاضينها من أي عمل أنتِ تنفقين أكثر منها أحيانًا في جولة واحدة للتسوق.

وكأنَّ الإنسان يعمل من أجل المال فحسب.

ودارت (نوف) حول نفسها ثم ألقت بجسدها البَضّ فوق أحد المقاعد المتناثرة في غرفة نومها، وألقت برأسها الجميل وشعرها الذي يُطَاوِل خَصْرَهَا إلى الوراء، فوق ظهر المقعد الوثير وسرحت في ذكرياتها البعيدة؛ ذكريات الثانوية العامة و أحلام التفوق فيها، ورغبتها بأن تلحق بأخيها في لندن لدراسة الطِب هناك، و كيف غضب والدها المُسِن والذي أنجبها من زوجته الثانية بعد أن تجاوز الخمسين من عمره:

– أي لندن أي طِب؟ بنت في مثل سنك و تسافر لتعيش في بلاد الكُفَّار؟

– أخي يدرس هناك يا أبي، سيكون مَحْرَمِي وسأكون موضع رعايته.

– أخوكِ رجل لا خوف عليه، كما أنه لن يترك دراسته ويتفرغ لرعايتك، هل تريدين أن تصبحي مثل بنات الغرب المُنْحَلاَّت؟

– وأين تَرْبِيَتِي و أخلاقي؟ هل أنا ضعيفة لهذه الدرجة؟

– لا تتعبي حالك، لن تسافري، ثم أي طِب هذا الذي دراسته ٧ سنوات؟ ونصف خريجاته عوانس؟ أنتِ يأتيكِ الخطاب منذ سنوات.

بَكَتْ...تَوَسَّلَتْ إليه أن يتركها تدرس الطب في المملكة...سَاقَتْ عليه أعمامها و أخوالها فلم يستجب الأب لشفاعة من رضي منهم أن يشفع لها عنده، وبالكاد وافق الأب أن تدرس في إحدى الكليات النظرية في جامعة الملك سعود، لأنَّ الدراسة النظرية لا تستغرق سوى ٤ سنوات، والذي أقنع الأب بذلك أن شباب الطبقة الراقية هذه الأيام لا يُقْبِلُون على الفتاة الغير جامعية...إنَّ فتاة في جمال (نوف) و في حَسَبِهَا جديرة بعريس يُسْكِنها قصرًا...هكذا فكر الأب، فلا بأس إن وافق – على مَضَضٍ – على التحاقها بالجامعة مثل بعض بنات أعمامها وأخوالها.

لا الدراسة التي كنت أتمناها ولا الحب الذي كنت أحلم به... خاطبت نوف نفسها...

ويحسدونني على حياة الترف التي أحياها، مع أنهم لو خيروني لاخترت مثلاً أن أتبادل حياتي مع (نورة) ابنة خالي التي تعمل مُدرِّسة، وتساهم في تكاليف الحياة مع زوجها الذي يعمل مدرسًا أيضًا في إحدى المدارس الأهلية و راتبه لا يكاد يصل إلى ٤ آلاف ريال، لكنها ما زارتها مرة في بيتها؛ إلا وأحَسَّتْ بالدفء الذي فيه وبالسعادة التي تملؤه، هي طبعًا لا ترى زوجها أثناء الزيارة، لكن السعادة كائن حي إذا سكن بيتًا فإنك ستسمع ضحكاته بمجرد دخولك باب هذا البيت، والزوجة السعيدة تشع عيناها بنظرات الرضا التي لا تُخطِئُوها عَيْنَا امرأة حالُها كَحَالِي.

●●●

(٧)

(حسـن) ابـن الشـيخ (محمـد البرغواطـي) ووريثـه في علمـه ومجلسـه، لكنـه لا يـزال في بدايـة ذلـك الطريـق، فقـد أظهـر منـذ صبـاه شـغفًا بعلـوم والـده؛ فاجتبـاه أبـوه لذلـك مـن بـين أبنائـه و بـدأ يعلمـه مـا يصلـح لسـِنِّه، فحفـظ القـرآن صبيًّـا و تعلـم الرقيـة الشـرعية وهـو دون ال١٥ مـن عمـره، ومـارس الرُقْيَـة و فـك السـحر والمَسّ وهـو دون ال ٢٠، وسـمح لـه أبـوه – برغـم صغـر سـنه – بدراسـة مجموعـة ابـن سـينا، ومنبـع أصـول الحكمـة، وشـموس الأنـوار، والجواهـر اللمَّاعـة وغيرهـا مـن الكتـب المماثلـة، ثـم درس كتـاب الضمياطـي وكتـاب الاسـترابازي، وعلّمـه أبـوه كيـف يكـون علـى حـذر مـن هـذه الكتـب ففيهـا الصالـح والطالـح، وعلَّمـه كيـف يفـرق بينهمـا وينتقـي ممـا فيهـا، وعلّمـه أنهـا علـوم شـائكة؛ شـريفة في نفسـها لكـن السـلامة فيهـا وعـرة، وحـذره أنهـا علـوم يشـقى بهـا صاحبهـا لكـن لابـد لهـا مـن حامـل يحملهـا!

علـومٌ لا تنبغـي لمـن يطلـب بهـا المكاسـب أو المكـارم، وإنمـا لمـن يقـدر علـى تحمـل مـا ورائهـا مـن أعبـاء ومغـارم.

علومٌ تطلب صاحبها ولا تكون لمن يطلبها.

ولـمَّـا اطمـأنَّ إلـى رسـوخ علمـه لَقَّنَـه السـحر الأسـود و سـحر القبـالا وسـحر الفـودو؛ لا ليمارسـها ولكـن ليعالجهـا، كمـا يتعلـم الصيدلـي أنـواع العقاقيـر والسـموم.

والليلة بعد أن نجح (حسن) في فك سحرٍ أسود من أعمال الرهيب (أورهايون) وتعافى (سامر) منه في جلسة واحدة فقط للعلاج؛ فقد طلب منه والده أن يختليا في المسجد بعد العِشاء. وكم كانت فرحة (حسن) بذلك غامرة، فلابد أن (الشيخ البرغواطي) يراه الآن أهلاً لأن يطلعه على (خزائن الأسرار)!

تلك الخزائن المخبوءة في قبو المنزل والذي لا يدخله سوى الشيخ (البرغواطي)، والتي تحوي بين دَفَّاتها أسرار بحور هذه العلوم والتي لا يزال (حسن) يسبح على شواطئها الضحلة...لا بد أنها الليلة الموعودة التي طالما حلم بها (حسن) ليبدأ والده في الأخذ بيده إلى الأعماق والأغوار من هذه البحار.

وجلس (حسن) ينتظر قدوم والده، أخذ يتذكر ذلك الحوار الذي دار له مع والده منذ سنة وهو يمهد له أنه قد اقترب من ولوج مفاتيح خزائن الأسرار:

- هل تذكر ما قلته لك عن طبيعة علومنا هذه؟

- نعم بالتأكيد يا أبَتِ.

- قل لي ما تذكره عن طبيعتها.

- نحن لا نُسَخِّر الجآنّ وإن كنا نَتَلَقَّى المساعدات من بعض المؤمنين منهم، لكننا في الأساس نُسَخِّر قوى الطبيعة عن طريق قوانينها التي وضعها الله فيها.

- وما هي هذه القوى؟

- هي قوى ومجالات طبيعية للنجوم والكواكب، وقوى أخرى للنفوس والأرواح، وثالثة للحروف و الأعداد... قوى هائلة مُودَعَة فيها، ولها سُنَنها وقوانينها بالضبط كقوانين الفيزياء ولكيمياء، من تعلمها بأصولها أطاعته و لكن لها خطورتها وفتنتها.

- عظيم جدًا، وماذا تختلف قوانين هذه القوى عن قوانين العلوم المعهودة بين الناس؟

- تختلف بأنها ليست علومًا تطبيقية ولا تجريبية؛ وبالتالي لا يمكن معرفتها بالتجربة والملاحظة، وإنما هي علوم تلقينية متوارثة عن طريق هاروت وماروت و سيدنا الخضر و...

وقاطعه والده محتدًا:

- أنا قلت لك أنها متوارثة عن مَلِكَيّ بابل أو عن سيدنا الخضر أو غيرهم؟

ارتبك (حسن) قليلاً و قال:

- لا لم تقله لي صراحة ولكني استشفَّيتُ ذلك مما درست من الكتب ولمحته أيضًا من بعض كلامك.

- وأنا سألتك عما تعلَّمتُه مني بشكل صريح وليس عن تخميناتك.

اكتسى وجه (حسن) ببعضٍ من ملامح الحيرة وسأل أباه:

- إذا لم تكن متوارثة عنهم فممَّن ورثتاها إذن؟

- أنا لم أنفِ أننا ورثناها منهم و لم أؤكد ذلك، وستعرف كل شيء في وقته...والآن أكمل.

ابتلع (حسن) ريقه ثم قال:

- نحن في عصرنا الحديث و برغم كل ما فيه من تقدم وتقنية إلا أنَّ البشرية لا تعرف إلا القليل من قوانين الكون العلمية والتي بواسطتها وصلنا لكل هذه المخترعات، فلا معنى للشك في وجود هذه القوى الأخرى.

- وما حاجتنا أنا أو أنت لتأكيد هذا المعنى؟

- حاجتنا أن تسخير هذه القوى مرتبط باليقين بوجودها والإيمان بقوانينها، لا نفع لاستحضارها لمن يشك في صحتها وفاعليتها.

هَزَّ الأب رأسه قليلاً ثم قال:

- ليس ذلك فحسب، إن هذه العلوم تحتاج أيضًا لطاقة نفسية معينة لتَحَمُّلِها، تحتاج لإيمانيات وقرب من الله، ففيها من الفتوح ما يفتحه الله على أصفيائه.

- إذن فهذه الطاقات لا تُسَخَّر إلا لمؤمن؟

- ليس شرطًا بالطبع، فأبسط مثال لهذه القوى هو الحسد الذي هو طاقة نفوس سلبية، أو كمثال الطاقة الإيجابية التي في الممارسات الروحية كاليوجا أو في التخاطر عن بُعد؛ كل ما سبق يمكن أن يحدث

لـمن هـو غيـر مؤمـن بـالله أصـلاً. بـل إنـك سـتجد ‫في‬ قصـة (السـامري) الـذي كان مـن قـوم (موسـى) عندمـا قبـض قبضـة مـن أثـر الرسـول أنـه اسـتعمل أحـد هـذه القـوى فأطاعتـه، فبرغـم أنـه أخـذ شـيئًا مباركًا وهـو أثـر فَـرَسِ سـيدنا (جبريـل) ‫في‬ الأرض و اسـتعمله ‫في‬ أكبـر معصيـة وهـي الشـرك بـالله إلا أنهـا أطاعتـه؛ لأنهـا سـنة الله التـي كتبهـا.

- حَيَّرتَنِي يا أبي؛ فأي استعداد إيماني إذن و ما لزومه؟

- أنـا أحدثـك عمَّـا هـو فـوق التسـخير أو الاسـتخدام، أكلمـك عمـا يمكـن أن تسـميه البركـة، عـن أن تتناغـم مـع هـذه القـوى ‫في‬ عبوديتهـا لربهـا فتصيـر كأنـك منهـا، تأتيـك طائعـة بـلا تكلـف، يكـون هواهـا معـك إذا زاحمـك فيهـا غيـرك.

وأفـاق (حسـن) مـن ذكرياتـه علـى صـوت أبيـه وهـو يقـول لـه وكأنـه كان يقـرأ أفـكاره:

- وهـذه البركـة وهـذا التناغـم هـو بالضبـط مـا طلبتـك مـن أجلـه الليلـة!

دقَّ قلب (حسـن) ‫في‬ عنـف؛ فقـد حانـت اللحظـة التـي ينتظرهـا منـذ سـنوات، ونظـر إلـى أبيـه الـذي قـال:

- أنـت الآن ‫في‬ الــ٢٥ مـن عمـرك، أتقنـت خلالهـا كثيـرًا مـن مبـادئ مـا أنـت مقبـل علـى تَعَلُّمِـه، ولكـن مـا ينتظـرك يحتـاج طاقـةً واسـتعدادًا، وهـذه العلـوم لا تُلْقَـى إلا لمـن بلـغ ال ٣٣ مـن عمـره وكان أهـلاً لحَمْلِهـا.

وأحس (حسن) بقلبه يغور في الأرض و بالدماء تنسحب من رأسه؛ فقال وصوته يكاد يختنق:

- وكل ما تعلمته يا أبتِ لا يجعلني أهلاً لحملها؟

- الحكمة غير العقل، والخبرة غير الدراسة، والبصيرة غير الذكاء، ولن تتلقى هذه العلوم قبل أوانها؛ فهي أثقالٌ إن طرحت فوق كتفي من لا يطيق حملها قصمت ظهره.

- وماذا أصنع طوال هذه السنوات الثمانية؟

- إن ما هو مطلوب منك الآن يا ولدي أشق بكثير مما مضى، أن تسمو بنفسك فتؤهلها لتَحْمِلَ ما سيُلْقَى عليها، أن تبحث وراء كل نقائصك وتعالجها، أن تُعَوِّد جسمك الزهد وعقلك التركيز ونفسك الرُّقِيّ وروحك الخلوة، وأعلم أن هذه السنوات الثمانية مليئة بالاختبارات الخفية بغير أوانٍ محددٍ لها ولا سابق إنذارٍ بها، وليس أمامك إلا النجاح فيها، ففرصتان فقط للفشل كفيلتان باستبعادك عن طريق العلوم هذه.

- أهذا كل شيء ؟ لقد ظننت حين طلبتني الليلة أنني...

قاطعه أبوه من جديد وقال:

- لا تظن أن ما قلته لك أمر يسير، إنها الخطوة الأصعب لو كنت تدري.

- وخلال هذه السنوات الثمانية، ماهي وظيفتي؟

- أَتْقِنْ ما تعلم و مارس ما تتقن وساعد من يحتاجك، العلوم يا ولدي كالبحور؛ لا تصنع بحارًا ماهرًا إلا ممن يلج بسفينته أعالي البحار، مطلوب منك أيضًا أن تتعلم بعضًا من العِبْرية والفارسية والهندية، فكثير من الطلاسم مكتوبة بهذه اللغات.

وتمتم (حسن) في خيبة أمل:

- وهذا كل شيء؟

قام أبوه من مجلسه إيذانًا بانصرافهما وهو يقول:

- وإنه لأمرٌ لو تعلم عظيم.

●●●

(٨)

منـذ أن ابتكـر (جوزيـف) الشـخصية الكرتونيـة (العفريـت دامـون Demon Damon) وهـو بعـد لا يـزال طالبًـا في الجامعـة، ثـم باعهـا لشـركة Pixar المتخصصـة في إنتـاج أفـلام الرسـوم المتحركـة؛ وحياتـه تغيـرت بشـكل جـذري، وجـد نفسـه مليونيـرًا مـن حصيلـة اسـتغلال هـذه الشـخصية في الفيلـم المنتـج باسـمها، و في بضعـة أشـهر دخلـت خزانتـه عـدة ملايـين مـن الـدولارات كحصتـه المتفـق عليهـا مـن شـباك تذاكـر الفيلم، هـذا غيـر مـا يتقاطـر فوقهـا كل شـهر مـن حصيلـة بيـع البوسـترات و التـذكارات وحقـوق البـث التلفزيونـي للفيلـم.

حـدث لـه كل ذلـك و هـو بعـد لا يـزال في سـنته الأخيـرة في الجامعـة حيـث كان يـدرس الأنثربولوجيـا في جامعـة مدينتـه (سـياتل)؛ تلـك المدينـة الأمريكيـة السـاحرة التـي تضـارع في جمالهـا أرقـى مـدن كنـدا وشـمال أوروبـا.

وبعـد أن كان يفكـر في اسـتكمال دراسـاته العليـا في الأنثربولوجيـا الـذي يسـتهويه منـذ مراهقتـه قـرر أن يـدرس ذلـك عمليًـا؛ بـأن يسـافر مشـارق الأرض و مغاربهـا ليدرسـها و لكـن مـن وجهـة نظـر سـياحية أكثـر منهـا علميـة، وأن يتخصـص في أنثربولوجيـا النسـاء!

(جوزيـف) سـاحر نسـاء منـذ مراهقتـه، سـاعدته وسـامته العاليـة في مصاحبـة فتيـات بـلا عـدد، هـو ذَوَّاقَـة أصيـل لهـن، أمـا وقـد هبطـت

عليه الملايين من السماء؛ فقد قرر أن يزور مطابخ الأرض التي تشتهر بإنتاج أشهى صنوف المرأة، الأمر بالنسبة له ليست مجرد شهوة تذوق، بل تتعدى ذلك إلى شغفه في دراسة المرأة، مثلها مثل شغفه بدراسة حضارات الإنسان و ثقافات الشعوب، و كما يجمع تذكارات أثرية أو حضارية أو ثقافية من كل بلد يزوره فإنه يحرص كذلك على جمع تذكارات عاطفية، و تكاد تختمر في عقله نظرية علمية تربط بين ثقافة كل بلد وبين مطبخها الغذائي و بين طعم الحب فيها!

بَقِيَ ذلك السؤال الذي يحير عقله منذ صباه وقرر أن يتريث في الإجابة عليه لعله يعثر على جوابه في رحلة ما إلى بلد ما...أين الله إن كان ثمة إله!

كاد جوزيف أن يكون ملحدًا في بداية شبابه، لكن عقله لم يستسغ أبدًا أن يكون كل هذا الذي نراه حولنا هو محض صدفة أو نتاج تلقائي لنظرية تطور أو انتخاب طبيعي...

قرأ كثيرًا عن الجينوم البشري و عن نظرية الانفجار الكبير ونشأة الكون، فتيقن أن هذه الأوركسترا الرهيبة لابد لها من مايسترو يقودها...من مؤلف وضع ألحانها...من صانع وهبها آلآتها الموسيقية المعقدة.

لم يقتنع أبدًا أن فرضيات الصدفة والاحتمالات التي يتضاءل احتمال حدوثها حتى يقترب من الصفر أن تكون هي المتكررة دائمًا لتكون وراء كل مظاهر الحياة حولنا وفي الكون فوقنا.

العلم وبعد أن ظن أنه قد أحكم تصورًا عقليًّا وميكانيكيًّا للكون وللمادة، فوجئ - بعد أن تعمقت دراساته - أنه لا يعلم إلا القليل، لا يعلم إلا تجريدات مترجمة في معادلات و رموز، مجرد أوصاف بمحض كلمات لا تبلغ أبدًا حد اليقين من أي شيء و لا تصف بدقة أي شيء... بات العلم لا يعرف هل المادة هي مادة حقًّا أم مجرد شكل من أشكال الطاقة والموجات.

كل اليقين العلمي يُنْسَف نسفًا بمزيد من التعمق في المعرفة، أصبحت المعرفة نسبية والعالم كله نسبي بل والإنسان نفسه نسبيًّا.

أصبح التفسير الوحيد للوجود عند (جوزيف) الذي يقبله عقله هو وجود مهندس أعلى لهذا الوجود شديد التعقيد، ولكن أين أنت منا أيها المهندس الكبير؟ دائمًا ما تساءل جوزيف: لماذا لا تتجلَّى لنا وتريح عقولنا بأجوبة حاسمة؟ لماذا تترك الشر والشك ينهشان أركان اليقين بداخلنا؟

نعم...هي معضلات الشر و الظلم التي طالما دفعت عقله بعيدًا عن فرضية وجود الإله و عن تصديق كلام الأديان لكنه لا يلبث أن يعود متسائلاً: إذا كانت كل الكائنات وكنا معهم مجرد خطوات في سلم التطور والانتخاب الآلي؛ فما الداعي لوجود المعاني والأحاسيس؟ ما الحاجة للحب...للخير...للجمال...للفن...للروحانيات؟ كيف نشأ الذكاء؟ كل هذه اللاماديات كيف تنشأ من تطور مادي بحت؟ بل ما تفسير نزعة التَدَيُّن الغالبة على كل أجناس البشر؟

هل خلق الله العالم و وضع له قوانينه ثم تركه يعمل آليًّا وانصرف لشأن آخر تاركًا البشرية تكابد الشرور والأذى؟

ويدور عقل (جوزيف) في متاهات تساؤلاته تلك و في دوامات حيرته، فقرر أن يضيف هدفًا آخر إلى أهداف رحلته؛ بحثٌ دقيقٌ عن الإله في أرجاء هذا العالم بعد أن عجز عن العثور عليه بين صفحات كتب الأديان التي قرأ فيها ولم يقتنع بأي دين منهم.

وهكذا فإن (جوزيف) مليونير أمريكي شاب في منتصف العشرينات من عمره يطوف بلاد الدنيا ليجمع من كل بلد تذكارًا أصيلاً من ثقافتها وقصة حب من مطبخ نسائها و يحمل أسئلةً وجوديةً تبحث عن أجوبتها.

●●●

(٩)

استيقظ (يوسف) صبيحة ذلك اليوم الموافق للذكرى ال ٣٥ ليوم مولده، يوم ليس له أي معنى عنده سوى أن يُذَكِّره بِعَدَّاد عمره الذي يدور في دوائر فراغية تتمحور حول اللاشيء!

نظر (يوسف) لوجهه في مرآة الحمام المغبشة بفعل الزمن المار عليها وبسبب رداءة خاماتها، وأخذ يتأمل ذقنه التي لم يمر على حلاقتها أكثر من أسبوع؛ هل يحلقها اليوم كمظهر وحيد للاحتفال بعيد ميلاده؟ أم يظل على عادته فلا يحلقها إلا مرة كل أسبوعين توفيرًا للجنيهات القليلة ثمن أمواس ومعجون الحلاقة؟

كاد أكثر من مرة أن يريح نفسه ويربيها استجابة لكلام شيخ المسجد الذي في حارتهم عن مشروعية إعفاء اللحية، لكنه لا يحب المشاكل، صحيح هو ميال للتدين ويغض بصره ما استطاع ويلتزم بصلاة الجماعة أحيانًا في المسجد لكنه من النوع المُسَالِم الذي لا يطيق أن يشتبه في لحيته مُخْبِر أو يأخذه أمين شرطة إلى قسم البوليس كإجراء للتحريات، خصوصًا وأن ملابسه البسيطة لن توحي لأحد منهم بأن عليهم احترامه، أو أنه قد يكون ابن عائلة فيها من أصحاب المناصب من يذود عن قفاه هذه الإجراءات!

وأخيرًا قرر حلاقتها؛ لأنها تعطيه عمرًا أكبر مع ملامح وجهه متواضعة الوسامة والتي تستجيب بسرعة لعوامل السن والزمن.

وتأمل يوسف ملامحه بعد الحلاقة، إنها الشيء الوحيد الذي يتغير في حياته، فلا شيء تغير تقريبًا منذ تخرجه في كلية الآداب قسم فلسفة بجامعة (القاهرة)، فلم يلتحق بالتجنيد لكونه ابنًا وحيدًا لوالديه مع أخته الوحيدة (سارة)، و كغيره من أبناء الطبقة الكادحة لم يجد يد الواسطة التي تضعه على السلم الوظيفي لأي وظيفة، فجرب أعمالاً شَتَّى: مدرس بالحصة، و دروس تقوية للطلبة في المسجد القريب من منزله المتواضع في أحد الحارات المزدحمة في حي (مصر القديمة) في القاهرة، و بائع في محل ملابس...إلى آخر ذلك من أعمال هامشية لا يذكر عددها.

وهكذا يميل مع الحياة يمينًا ويسارًا حتى يتلَقَّط رزقه منها، أو على الأقل مصروفه الشخصي اللازم لحياة شاب لا يصح أن يشارك أمه وأخته - التي لم تتزوج بعد - في معاش والدهم الذي يسترهما بالكاد.

لم يُوَرِّث لهم الأب بعد وفاته إلا هذا المعاش و الشقة القديمة الضيقة التي تسترهم بين جدرانها، ولم ينفرد يوسف بشيء من ميراث أبيه إلا بتلك السِبْحَة التي كانت لا تفارق يد الوالد حتى وفاته، وكان يعتقد لسبب ما أنها سبحة ذات قَيِّمَة في حين كانت أسرته تعتبر ذلك الاعتقاد نوع من التعويض النفسي عن خسارته التي عاد بها من العراق!

فأيام غزو العراق للكويت كان الأب وقتها يعمل في العراق مدرسًا للغة العربية، ووقع الغزو كالصاعقة عليه وعلى كل العاملين المغتربين

هنـاك، وبـدأت سُـحُب الحـرب تتجمـع في سـماء الخليـج العربـي، فقـرر الأب أن ينفـد بحياتـه قبـل اندلاعهـا، و لأنـه كان يعلـم أن الهـروب بَـرًّا عبـر الحـدود إلـى سـوريا محفـوف بالمخاطـر و بالتفتيـش وبالرشـاوى، فقـد وزع مـا بحوزتـه مـن نقـود بـين عـدة أماكـن سـرية، ولسـبب مـا اقتنـع أن هـذه السـبحة التـي كان قـد اشـتراها مـن (سـوق الهـرج) العتيـق في بغـداد تسـتحق أن يحملهـا مـع مـا اسـتطاع حملـه مـن أمتعـة خفيفـة، وكمـا توقـع الأب فقـد فَقَـدَ معظـم مـا كان معـه مـن نقـود ونجـت السـبحة مـع مـا نجـا مـن أمتعتـه.

إنهـا سبْحَة مثيـرة للحيـرة فـلا تـدري أهـي سـبحة أم قـلادة، وحباتهـا ال٣٣ مثيـرة للإعجـاب بلونهـا العاجـي الصـافي وبمـا فيهـا مـن نقـوش متقنـة وغريبـة غيـر مفهومـة، وتتوسـط حباتهـا قطعـة مـن حجـر اليشـب الأخضـر محفـورة بنقـش غامـض كالطلسـم لكنـه جميـل.

وبعـد أن أفـاق الأب مـن صدمـة الغـزو وأهـوال رحلـة العـودة وضيـاع ثمـرة تَعَبِـه هنـاك وانقطـاع الـزرق الـذي كان في العـراق، وبعـد أن بـدأت سُـحُب الأحـزان تنقشـع مـن علـى ملامـح وجهـه، وبـدأ يعـرف طعـم الابتسـام مـع الوقـت الـذي يـداوي أي جـرح، بعـد كل ذلـك صـارت السـبحة هـذه موضـع تَنـدُّر أسـرته:

يا لها من سبحة ثمينة كلفتك سنين عمل في أرض الغربة.

وكان الأب يُصِـرُّ – ربمـا مـن بـاب مواسـاة النفـس – أنهـا سـبحة قَيِّمَـة بـل و أثريـة مباركـة، وصـدّق بائـع سـوق الهَـرَج عندمـا أخبـره بـكل ثقـة أنهـا

سبحة عُثِرَ عليها في مغارة (هاروت و ماروت) التي ببَابِل بأرض العراق، وأنها – لسبب لم يستطع الأب معرفته – غَفَلَ من وجدها عن قيمتها حتى صارت إلى يد الأب، وأصبحت هذه السبحة لا تفارق يد الأب وكأنه يستعيض بها عن تعب السنين الذي ضاع.

لكن هذا التَندُّر تحول بعض الشيء إلى اهتمام عند (يوسف) عندما بدأ في دراسة الفلسفة، أحس أن نقوشها قد تكون ذات معنى، وعَرَضَهَا على أحد أساتذة قسم الآثار في كلية الآداب؛ فقال له إن بعض النقوش عبارة عن أحرف سومرية لكن عدا ذلك ليس له معنى يعرفه.

وبعد وفاة الأب ورث (يوسف) هذه السبحة كعادة الأُسَر المصرية أن يرث الذكور أغراض الأب الشخصية بينما ترث الإناث مصاغ الأم وأغراضها، أصلاً لم يجد (يوسف) من يشاركه الاهتمام بهذه السبحة سواءً أُمَّه أو أخته، و إنما اعتبرت الأم أن ابنها قد ورث من أبيه بعض جنونه في الاهتمام بهذه السبحة.

ولم يُفَرِّط (يوسف) بسهولة في السبحة برغم أنه عرضها للبيع أكثر من مرة؛ عندما كانت تضيق عليه أموره المالية الضيقة أصلاً، عرضها على تجار البازات و محلات العاديات في (حي مصر القديمة) حيث يسكن، ثم عرضها على تجار خان الخليلي، فلم يحصل إلا على أرقام زهيدة لم تتجاوز الألف جنيه في أكثرها سخاءً، لكنه كان يوقن أنها تساوي أضعاف هذا المبلغ.

- آه لو كنت فقط أعرف قيمتها أو ما تعنيه رموزها؟

هكذا كان يسأل نفسه و ينفخ في ضيق، حتى جاءه الفرج عن طريق صديقه (وليد) الذي يعمل في أحد بازارات مصر القديمة:

- سائح أمريكي؛ شاب صغير لكنه مليونير، لقد اشترى أمامي بَرْدِيَّة فرعونية ب ١٠ آلاف دولار، ويبدو أنه قد يهتم بسِبْحَتِك تلك، لكن الشاب برغم حداثة سِنِّه إلا أنه يبدو خبيرًا بهذه الأمور و يُفَرِّق بسهولة بين البردية الأصلية والمزيفة، لقد زار نصف بلاد العالم كما يقول، كما أنه دارس للأنثربولوجيا.

- على الله أن أجد من يقدرها حق قيمتها، أنا فعلاً بحاجة لأي مال أبدأ به أي مشروع مهما كان تافهًا.

- ونعم بالله، لكن لي نصيبي وسَمْسَرْتِي ١٠ ٪ من قيمة البيع، بالمناسبة اسمه (جوزيف) مثل اسمك عندما تُتَرْجِمه إلى الإنجليزية.

- حتى و لو كان اسمه (عفركوش) المهم أن يدفع بسخاء ولا يبخسها كتجار العاديات عندنا.

بالفعل أثارت السبحة اهتمام (جوزيف) و إن كان مثل (يوسف) لم يفهم منها شيئًا، لكنه قال إن نقوشها أصيلة و بديعة وخاماتها واضح أنها عتيقة جدًا. وبدون مفاوضات طويلة دفع (جوزيف) ٢٠ ألف جنيهًا مصريًا.

وكأنها طاقة القدر وفتحت بابها (ليوسف)، فاشترى التوكتوك الذي كان يحلم بامتلاكه! والآن يمكنه أن يبدأ في ادِّخَار المال كنواة لزواجه الذي قد يحدث يومًا ما.

وأخيرًا صار يوسف بعد أكثر من عشر سنوات من تخرجه في الجامعة...صار من أصحاب الأملاك والمشاريع!

●●●

(١٠)

كان عقـل (حسـن) لا يتوقـف عـن التفكيـر، يـكاد يُجَـن مـن شـدة الفضـول؛ لمعرفـة مـا تحويـه خزانـات الأسـرار هـذه، وبعـد أن ظـن أن جلسته مـع والـده سـتكون الـدرس الأول، إذا بـه يخبـره بخبـرٍ كالصاعقـة؛ أمامك ثماني سنوات من تزكية النفس حتى تتم ال ٣٣ من عمرك، ثم تبـدأ ـ في حمـل مفاتيـح هـذه الخزانـات!

الفضـول يقتلـه مـن اليـوم فكيـف الانتظـار طـوال هـذه الأعـوام؟ إنـه يـود أن يُلْقِـي ولـو نظرة...مجـرد نظـرة علـى شـكل هـذه الخزانـات دون النظـر ـ في محتواهـا.

ولكن...مـا المانـع؟ إنَّ والـده ينهـاه أن يتعلـم مـا فيهـا من علوم وأسـرار، حَسَنًا...سننتظر موعـد التعليـم ذلـك، لكـن سـأكتفي الآن بـأن أُلْقِـي عليهـا نظـرة فضـول مـن بعيـد، تمامًـا كمـا كنـت أفعـل و أنـا صغيـر عندمـا ألقـي نظـرة فضـول طفوليـة علـى مكتبـة أبـي، وأدواتـه فـكان يسـحبها منـي ـ في رفـق ويقـول لـي سـتتعلم كل شـيء ـ في أوانـه، أنـا الآن متشـوق لتعلـم مـا ـ في خزانـات الأسـرار فمـا الضـرر أن ألقـي نظـرة فضـول عليهـا؟

طـرد (حسـن) هـذا الهاجـس مـن رأسـه عـدة ليـالٍ، حتـى اسـتبد بـه حـب الاسـتطلاع ذات يـوم فقـرر التسـلل إلـى هنـاك وليكـن مـا يكـون... نظـرة عابـرة لـن تضـر.

ولكن كيف السبيل إليها؟ إنَّ الخزانات في غرفة القبو المغلقة أسفل المنزل والتي لا يدخلها إلا الشيخ ولا يعرف (حسن) أين مفتاحها، حسنًا ...فليحاول البحث عن المفتاح محاولة سريعة، فإن وُفِّق إليه على الفور فهي إشارة له بالمُضِيّ قُدُمًا في فضوله وإلا فهي إشارة عكسية.

ما هو أوقع مكان يمكن أن يضع فيه الشيخ هذا المفتاح؟

- الأقرب أنه في شكمجية أوراقه الخاصة التي في درج مكتبه الذي في غرفة مكتبته العتيقة...حسنًا، إن لم أجد المفتاح فيها سأصرف النظر عن هذا الفضول الذي لا يطمئن إليه قلبي.

واستغل (حسن) فرصة دخول والده للاستحمام فتسلل على وجل إلى مكتبة والده، وعبث في درج المكتب فوجده غير مغلقًا بالمفتاح...فتح الشكمجية و بيدٍ مرتعشة قلَّب بين محتوياتها؛ فوجد بالفعل مفتاحًا كبيرًا يرقد في قاعها، دسه في جيبه وخرج من الغرفة مسرعًا.

نزل (حسن) سلالم القبو و وقف أمام باب الغرفة في تردد و قلبه يكاد يشق صدره من عنف ضرباته، لكنها لحظات قليلة من التردد استجمع خلالها أنفاسه و دس المفتاح في قفل باب الغرفة و فتحه...دفع (حسن) الباب في هدوء مخافة أن يصدر صريرًا عاليًا كما هو المعتاد من الأبواب الثقيلة التي لا تفتح إلا نادرًا لكنه استغرب أن الباب لم يصدر عنه أي صوت.

دخل (حسن) الغرفة و أغلق الباب خلفه وبحث عن مفتاح إضاءة الغرفة لكنه لم يجد للغرفة أي مصابيح لإضاءتها. أضاء كشاف هاتفه

المحمـول وأداره في الغرفـة مستكشـفًا إياهـا؛ الغرفـة بـلا مصابيـح ولا نوافذ و لا أي فتحـات تهوية، والغريـب أن هواءهـا غيـر فاسـد ولا متغيـر الرائحـة بـل تفـوح منـه رائحـة أشـبه برائحـة حبـة البركـة حينمـا تحـرق كبخـور.

الغرفـة خاليـة إلا مـن صناديـق ثلاثـة كبيـرة تشـبه صناديـق كنـوز قراصنـة البحـار كمـا كان يشـاهدها في أفـلام الرسـوم المتحركـة وهـو صغيـر.

هـمّ (حسـن) بالانصـراف مكتفيًـا بهـذا القـدر مـن الفضـول الـذي قـد لا تُحْسَـن مَغَبَّتـه، لكنـه قـال لنفسـه: ومـاذا صنعـت إذن؟ التفـت إلـى الصناديق الثلاثـة متحيـرًا ثـم اقتـرب منهـم، الصناديـق بغيـر أقفـال عليهـا، مجـرد رتـاج صغيـر يغلـق غطـاء كل صنـدوق منهـا.

اختـار (حسـن) أقـرب الصناديـق إليـه و قـرر أن يلقـي نظـرة خاطفـة عمـا بداخلـه، فتحـه ببـطء و نظـر بداخلـه فوجـد مخطوطًـا ضخمًـا يبـدو عتيقًـا جـدًا، وسبْحَة غريبـة الشـكل ذات خـرزات عاجيـة اللـون ويتوسـطها حجـر يشـب أخضـر وكلهـم عليهـم نقـوش كأنهـا الطلاسـم، وقـارورة مـاء مُحْكَمَـة الإغـلاق وعـدة صخـور صغيـرة ملسـاء في غايـة الصلابـة وشـديدة السـواد كأنهـا قـرون الخـروب.

أمسـك (حسـن) المخطـوط الضخـم بتـردد فوجـده أثقـل بكثيـر ممـا يوحـي بـه شـكله و حجمـه، قـرأ عنوانـه: (زهـر آصـف) وجـد العنـوان كأنـه محفـور بعنايـة في غـلاف الكتـاب الجلـدي السـميك، و مكتـوب بحبـر غريـب

و كأنه يُضِيء ذاتيًّا كأنه حبر فوسفوري، و تحت العنوان الكبير مكتوب بخط أصغر (قال الذي عنده علمٌ من الكتاب).

ولأن الفضول مثل الوحش يسهل أن تقتله وهو صغير ويصعب ذلك كلما تُرك لينمو و يكبر، لهذا أخذ الفضول (حسن) إلى مراحل أكبر؛ فقرر أن يلقي نظرة عابرة داخل الكتاب، فتح غلاف الكتاب بحذر فإذا به يصدر طقطقة ثم صريرًا عاليًا كأنه يفتح باب حظيرة ضخم صدأت مفاصله.

الصفحة الأولى عبارة عن رسوم باهتة...ما هذا؟ إن الرسوم تتحرك!

هكذا قال (حسن) وهو يجد بالفعل هذه الرسوم تتجمع وتتصاعد في الهواء كأنها دخان، ثم تشكلت على شكل رجل عملاق يطاول برأسه سقف غرفة القبو و ينظر (لحسن) في فضول و يبتسم ابتسامة طفولية ولا ينطق بحرف.

جفل (حسن) قليلاً وهو المعتاد على صرف الجآن والشياطين لكنها لم تسبق أن حضرت له من داخل كتاب!

تمتم (حسن): سلامٌ قولاً...

فوجد المارد يردد: من ربٍ رحيمٍ

استغرب (حسن) للحظات لكنه بدأ يفطن لحقيقة ما يجري فقال:

- وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين.

وسكت، فأكمل المارد: وأعوذ بك رب أن يحضرون.

فبدأ (حسن) يتلو آية الكرسي فوجد المارد يقرأ معه، فتوقف في منتصف الآية و قال له:

- أنت مسلم؟
- أنت يا شيخ (حسن) من تسأل هذا السؤال؟ كيف وأنت ابن كبيرنا و وارث مكانته بإذن الله.
- إذن فأنت...وسكت (حسن) كأنه يستنطق المارد الذي رد عليه بالفعل:
- أنا (برقان) حارس كتاب (زهر آصف) و حامل طلاسم خزانة الأسرار هذه.
- و مم تحرسهم؟
- أحرسهم في حالة إن فتح الخزانة من لا يحق له فتحها، فإمَّا نحجت في درئه عنها وإمَّا أحرقت الكتاب قبل أن يستولي عليه.
- وأنا فتحت الخزانة والكتاب قبل أن يأذن لي أبي أو يحكم الله لي؟
- لستَ منهم يا شيخ (حسن)، أنت تعلم جيداً من لا ينبغي لهم الاقتراب منها.

- إذن فعلى الأقل أنا أخطأت في تحضيرك قبل الأوان وسأندم؛ لأنني لا أعلم القراءة التي تصرفك.
- الأمر أبسط من ذلك، يكفيك أن تفتح غلاف الكتاب ثم تغلقه ثانية، و لكن لم العجلة؟ دعني أحدثك عن بعض ما في هذه الخزانة من أعاجيب محبوسة، ولست أدري لماذا هي محبوسة مع أنها قد تغير وجه الدنيا!

لكن (حسن) فتح الكتاب ثم أغلقه فاختفى المارد بالفعل داخل الكتاب، وأسرع حسن بإعادة الكتاب إلى خزانته و إغلاق الخزانة والقبو من بعدها، ثم أعاد المفتاح إلى شكمجيته التي كان يرقد داخلها في سلام.

●●●

(١١)

الفضـول ليـس فقـط كالوحـش ينبغـي أن تقتلـه وهـو صغيـر، بـل هـو كالفتنــة لا بـد مــن وأدهــا قبـل ولادتهــا، فهــا هــو الفضــول يــأكل صـدر (حسـن) لمعرفـة مـا كان يريـد المـارد أن يحدثـه عنـه، ولأن يـداه قـد عرفتـا طريـق المفتـاح و قدمـاه عرفتـا طريـق غرفـة القبـو؛ فلـم يكـن مُسْتغربًا أن يعـاود الكَرَّة في الليلـة التاليـة، ولـم يفاجـأ بـه المـارد وإنمـا قـال لـه بعـد أن فتـح كتـاب (زهـر آصـف) مـن جديـد:

- كنـت واثقًا مـن عودتـك، فـلا أحـد يصبـر كل هـذه الأعـوام علـى هـذه الأسـرار المذهلـة بينمـا هـي في متنـاول أصابعـه.

سـكت (حسـن) كأنـه يفـوت علـى الجنـي فرصـة الزهـو بنفسـه، وتذكـر أنـه ينبغـي أن يتعامـل معهـم مـن موطـن القـوة و القيـادة، فلـم يـرد علـى كلامـه ولكنـه غيَّـر الموضـوع قائـلاً:

- علـى غـلاف كتابـك مكتـوب (قـال الـذي عنـده علـمٌ مـن الكتـاب)؛ هـل في هـذا الكتـاب بعـضٌ مـن ميـراث علـم ذلـك العَالِـم جليـس سـيدنا (سـليمان)؟ والـذي جـاءه بعـرش (بلقيـس) قبـل أن يرتـد إليـه طرفـه؟

ظهر الفزع على ملامح المارد وعلى نبرات صوته وهو يقول:

- اسـمع يـا شـيخ (حسـن): لا تسـألني مـالا طاقـة لـي بـه، ولا تنتظـر منـي أن يكـون عنـدي مـا عنـد والـدك مـن علـم، إنمـا أنـا مجـرد حـارس وخـادم لهـذا الكتـاب و لهـذه الخزانـة.

خيم الصمت بينهما للحظات حتى قطعه المارد قائلاً:

- ما رأيك أن أريك قوة طلسم واحد من طلاسم الكتاب؟

تردد (حسن) قليلاً لكنه ما كان ليفعل كل ما فعل ويصل لهذه النقطة ثم يحجم عن تجربة و لو طلسم واحد مما ينتظره من بحور تلك العلوم، وكأنَّ المارد أحس بموافقته الضمنية فقال له:

- خذ قارورة الماء التي في الخزانة و توضأ من بعض مائها، ثم خذ المسبحة وضعها حول عنقك كأنها قلادة و اقرأ الطلسم الذي في الصفحة رقم (ب ن س) من صفحات الكتاب.

تساءل (حسن) وقد أخذه الفضول:

- وماذا سيفعل ذلك الطلسم؟

- سيريك قوة الحرف والكلمة في استحضار صور الناس وقراءة الأفكار عن بُعد، هذه المسبحة لها أخواتها و قريناتها، سترى في ذهنك صور كل من مَرَّت عليهم هذه السِبْحَات منذ تاريخ صنعها الذي يعود لأكثر من ألف سنة، ستُبْحِر بذلك في الماضي مع كل من اقتناهنَّ من البشر، أو مَرَّت عليهم بتسلسل تاريخهم. ومع الوقت ستقرأ الماضي والتاريخ، ولو كانت إحدى هذه المسابح قد مَرَّت على شخصية لها وزنها في التاريخ - وهذا شيء متوقع من سبحات قَيِّمة كهذه - ربما بذلك تتمكن من قراءة تاريخ العظماء وصناع الأحداث، فتقرأ التاريخ كأنك تعاينه وتقع على حقيقة بعض ما اختلف عليه المؤرخون أو نَسُوه أو حَرَّفوه!

انبهر (حسن) بما سمع، وفعلاً أخذ القارورة وبدأ يمسح من مائها على أعضاء الوضوء بأقل كمية ماء ممكنة كما علَّمه أبوه من قبل، ثم ارتدى السبحة وفتح الكتاب و دأ يردد مع المارد طلسم تلك الصفحة.

فجأة اهتز بهما القبو كأن زلزالاً قد ضربه، فتوقف (حسن) ونظر إلى الجني في فضول؛ فوجده لا يقل عنه فضولاً ولا يفهم شيئًا مما يحدث، لحظات واقتحم عليهما الغرفة الشيخ (البرغواطي) ونظر (لحسن) في غضب و قال:

- لقد فشلت في اختبار الصبر الذي كان عليك اجتيازه لتثبت أنك أهل لحمل هذه الأمانات؛ فمن ليس لديه قبسٌ من صبر أيوب قد يصنع بها مصائبًا كما فعلتما للتو...ما هذا الزلزال؟ ماذا صنعتما؟

قَصَّ عليه المارد وهو يرتبك ما قاما به؛ فظهر الاهتمام والهلع على وجه الشيخ (البرغواطي) و قال في غضب:

- بئس الصنيع...هذه عاقبة من يمارس عملاً لا يحيط به علمًا، كان ينبغي عليك يا (برقان) أن تتأكد من باقي القلادات وأنها مستقرة بيد أصحابها سبعة أيام بلياليهن لم تغادرها إلى غيرهم.

ثم اكتسى وجه الشيخ بالهمّ و قال وهو يفكر:

- هذه الهزة معناها أن شيئًا ما قد حدث.

قال (حسن) وهو يبلع ريقه خجلاً من أبيه:

- ماذا عساه أن يكون قد حدث؟

سكت الشيخ ولم يجبه ثم قال و كأنه يكلم نفسه:

- أي أيام السنة هذه؟...صمت لحظات ثم قال:

- يا لطيف يا خبير، هذا يوم بداية السنة الفلكية في التقويم القديم و تزامن شروق الشمس مع الشروق الاحتراقي لنجم الشِعْرَى اليمانية؛ معنى ذلك أن القلائد الأخرى لو كانت غير عاطلة فإن حياة بعض الناس سوف تتغير، ولا بد أن هذا هو سبب هذه الهزة التي حدثت.

التفت الشيخ البرغواطي إلى المارد (برقان) و قال له بلهجة آمرة:

- تطوف الآن في الأرض تبحث وراء قلائد ثلاث مشابهة، ستعرفها من طاقاتها التي تتذبذب حولها لأنها الآن نشيطة، وعليك أن تعرف ما كانت عليه خلال الأيام الخالية.

طار المارد من فوره بينما بقي (حسن) مطرقًا رأسه في خجل ثم استجمع بعضًا من شجاعته وقال:

- والآن ماذا؟ هل فشلت في الاختبار وانتهى كل شيء؟

رد عليه الأب بعد فترة:

- نطمئن أولاً على عاقبة ما حدث ثم ننظر في أمرك.

ثم أردف بعد فترة:

- لعلـك تذكـر مـا قلتـه لـك مـن قبـل أنـك سـتمر في مسـار طريـق العلـوم باختبـارات كثيـرة لتثبـت جدارتـك بحملهـا، وقلـت لـك أن أمامـك فرصتـان فقـط للفشـل و بعدهمـا تُسْـتَبْعَد، الآن أنـت اسـتنفدت واحـدة لكـن ليـس معنـى ذلـك أنـك مـا زلـت في الطريـق وبقيـت أمامـك فرصـة أخـرى، كلا، لابـد أن تصلـح - ومعـك (برقـان) - مـا صنعتمـا.

ثم أدار رأسه الناحية الأخرى وبدأ يقرأ بعضًا من أوراده.

ساعات قليلة وعاد المارد (برقان) وقال في أسًى:

- السبِْحَات الثـلاث كانـوا في حالـة نشـيطة؛ واحـدة قَطَعْتَهَـا سـيدة تُدْعَـى (نـوف) مـن يـد زوجهـا (نـواف) فتركهـا لهـا لتصلحهـا، والثانيـة باعهـا صاحبهـا (يوسـف) لأمريكـي يُدْعَـى (جوزيـف)، و الثالثـة أهدتهـا صاحبتهـا (لبنـى) لابنتهـا (سـلمى) التـي لبسـتها حـول عنقهـا كمـا اعتـادت أمهـات هـذه العائلـة منـذ أجيـال.

خبط الشيخ البرغواطي رأسه وقال و هو يبتسم ابتسامة غضب:

- لا أصـدق أن يتزامـن حـدوث كل ذلـك في ليلـة واحـدة؛ تقـرَءُون الطلسـم في ليلـة تزامـن شـروقي الشـمس والشِـعْرَى، وتنتقـل السـبحات الثلاثـة مـن صاحـب قـديم إلـى صاحـب جديـد وكلاهمـا يحمـلان نفـس نغـم الاسـم و طاقـة حروفـه...إنَّ أم (سـلمى) اسـمها مختلـف في نَغَمِـه، سـتكون (سـلمى) محظوظـة إذا لـم تكـن جدتهـا أو إحـدى جداتهـا الأوائـل تحمـل نفـس نغـم اسـمها، إن كل مسـبحة قـد ربطـت بـين الشـخصين وسـيصحو كل واحدٍ منهما ليجد نفسـه مكان الآخـر؛ قد حلَّ في جسـده وأخـذ حياتـه بـدلاً منـه!

قال حسن مذهولاً:

- هل هذا معقول؟ وهل سيدرك كلٌّ منهم أنه قد صار شخصًا آخر، أم سيظل هو الشخص الأول في جسد الآخر دون أن يدرك، أم ماذا؟ إنني أكاد أُجَن.

رد الشيخ:

- هو الشخص الأول قد حلَّ في جسد الشخص الثاني وأخذ حياته مكانه، والثاني في جسد الأول و في حياته أيضًا، و سيكون لزامًا علينا أن نخبرهم بما حل بهم قبل أن يُصْدَمُوا به بعد استيقاظهم كي لا يفقدوا عقولهم، وهذا هو دورك يا (برقان).

قال حسن:

- وكيف سيخبرهم (برقان)؟ وكيف عرف أصلاً بما حدث للسبحات في الأيام الماضية؟

نظر (برقان) إلى الشيخ (محمد) فأومأ إليه الشيخ أن احكي ما عندك، فقال برقان:

- إنَّ من يعيش على كوكب آخر و ينظر الآن إلى كوكب الأرض لا يرى ما يحدث الآن على كوكب الأرض، بل يرى ما حدث منذ فترة زمنية تساوي بُعد كوكب الأرض عنه بسرعة الضوء، فلو كان في كوكبٍ يبعد عنا يومًا ضوئيًّا؛ فإنه يَرَى الآن ما حدث عندنا بالأمس، ومن يَبْعُد أسبوعًا ضوئيًّا فإنه يرى الآن ما قد حدث عندنا منذ أسبوع،

ومـن يبعـد شـهرًا أو سـنة يـرى مـا قـد حـدث منـذ شـهر أو منـذ سـنة حسب بعده الضوئي عنًّا. وما صنعته أنني اتصلت عن طريق التخاطر عبر دهاليز و ممرات الفضاء بقرناء لي يعيشون في كواكب تبعد عنًّا بأيام ضوئية متفاوتة، فأخطرني من كانوا في الكواكب التي تبعد عنا بأيام ضوئية قليلة بهذا الذي أخبرتكم به؛ لأن كل ذلك قد حدث في الأيام القليلة الماضية، وأنا تتبَّعْتُ طاقات هذه القلادات وتأكدت مما أخبروني به.

تساءل (حسن) وعقله يجاهد لاستيعاب ما يقال:

- أنت تقول أن قرناءك يبعدون عنا بأيام أو شهور ضوئية، فكيف تتخاطر معهم في التو و اللحظة؟

أجاب الشيخ (البرغواطي) هذه المرة و قال:

- التخاطر غير المشاهدة، ما يشاهدونه هو ما يصل لأعينهم بسرعة الضوء بعد أن يقطع ما بيننا و بينهم من مسافات، لكن التخاطر شيء عقلي ووجداني، لا تقيده مسافات و لا تحدده سرعات، يكفي (برقان) أن يعلم بوجود قرين له على أي جِرْم سماوي، فيتخاطر معه في التو مهما كان بُعد ذلك الجِرْم!

قال (برقان) في فخر و حماس طفولي:

- بل إننا نستطيع أن نتواصل و أن نتلاقى عبر ممرات السماء ودهاليز المجرات...ممرات مختصرة كأنها أنفاق تنقلنا في لحظات بين أطراف المجرات التي يحتاج الضوء لسنين ضوئية طويلة كي يسافر

بينها...إنَّ بعضنا أحيانًا حينما يريد أن يتأكد من حقيقة شيء حدث في الماضي فإنه يسلك إحدى تلك الدهاليز؛ لينظر إلى كوكب الأرض من بعيد، فيرى ذلك الماضي على حقيقته ثم يعود إلى الأرض ثانية... وهناك من يتوقع أننا لو عكسنا الرحلة بطريقة ما فإننا قد نرى المستقبل، والبعض منا يحاول...

هنا قاطعه الشيخ (البرغواطي) وقال:

- هيهات...لا تحاولوا ما لن تفلحوا فيه أبدًا، الماضي والحاضر والمستقبل كأنه زمنٌ واحد عند خالق الزمن، لكنه سبحانه اختص نفسه بعلم المستقبل، قَيَّدَنا في أزماننا ليس لنا أن نتجاوزها!

فتح (حسن) فمه مدهوشًا وقد أدرك كم هو جاهل وأن والده كان محقًّا في أن يرجئه إلى السن الذي يتحمل فيه ثقل هذه الأمانات، ثم ابتلع ريقه وسأل:

- وكيف سيُخْطِر (برقان) من تبدلت حياته بما حدث له؟

ابتسم الشيخ البرغواطي ابتسامة خفيفة لأول مرة منذ أن اقتحم القبو، لكنه تداركها بسرعة وارتسم ملامح الجدية من جديد وقال:

- هذه هي الحلقة الأسهل؛ سيكون على (برقان) أن يُخْطِر كل واحدٍ منهم في منامه برؤيا شديدة الوضوح بما حدث له وبمن يُنْتَظَر أن يكونه بعد أن يصحو من نومه ليجد نفسه مكانه.

هز (حسن) رأسه وقد بدأ يستوعب هذه الدنيا الجديدة عليه

تمامًا وبدأ يدرك أصولها، ثم فكر قليلاً و قال:

- ولكن ماذا عن (سلمى)؟ إننا لا نعرف إن كانت هي التي ستصحو أم إحدى جداتها مكانها؟ وإذا كانت إحدى جداتها مكانها فكيف سيُخْطِر (برقان) (سلمى) بما حدث لها وهي ستكون قد سقطت في بئرٍ من الماضي السحيق؟

رد عليه أبوه:

- علينا أن ننتظر لنرى من سيصحو في فراش (سلمى)، و بعد أن نعرف من تكون؛ سيكون دور برقان أن يتخاطر مع قرنائه في تلك الكواكب السحيقة البعد عنًّا حتى يصل إلى قرين يتطابق بُعد سنواته الضوئية عن الأرض بنفس زمن بُعد هذه الجَدَّة في الماضي، ثم يتفضل هذا القرين مشكورًا بإخطار (سلمى) في منامها!

فتح (حسن) فمه بدرجة أكبر هذه المرة وهو مذهول بشكل أشد وقال:

- و هل هذا ممكن؟ يتخاطر جني اليوم مع إنسان الأمس؟

رد الشيخ (محمد):

- ألا يحدث لك أو لي أو لكثير من الناس أن يرى أحدهم في منامه الرؤيا ثم يراها تتحقق بعد ذلك بيوم أو بشهر أو حتى سنة؟ كيف برأيك يحدث ذلك؟

حَكّ (حسن) رأسه بيده في عنف و كأنه يحاول استيعاب ذلك الكلام الذي لا يصدق و قال:

- إذا كان كذلك فإنَّ هؤلاء القرناء يستطيعون تغيير مسار الأحداث بل و مسار التاريخ، و يحذرون أبطال التاريخ مما ينتظرهم في مستقبلهم.

رد الشيخ (البرغواطي) وقال في حزم:

- لاااا...إنهم مأمورون و في عملهم هذا مُقَيَّدون، ولا يُؤْذَن لهم بما يغير وجه التاريخ، ثم هل رأيت أو سمعت أو قرأت عن إنسانٍ غيَّر مجرى حياته بناءً على رؤيا جاءته؟ فما بالك أن يتخذ قرارًا يغير مسار التاريخ؟

قال (حسن) في اندفاع و كأنه يفكر بصوتٍ عالٍ:

- إذن فهل يمكن أن نكون نحن الآن نعيش في الماضي ويكون أبناؤنا وأحفادنا قد ولدوا بالفعل في المستقبل الذي حدث بالفعل؟ هل يكونون هم أيضًا ماضٍ لمستقبلٍ آخر قد أصبح بدوره ماضيًا لمستقبلٍ ثالث وهكذا؟ أيكون المستقبل قد أصبح ماضيًا و الماضي لم يأت بعد؟...

وهنا قاطعه والده في حسم:

- (حسن)! لا تترك عقلك للشطط ولا تحمله فوق ما لا يستطيع فهمه، و علم أن علمي وعلمك وعلم أهل الأرض جميعًا نقطة في بحر علم الله، أن هناك أمورًا يستحيل على عقولنا أن تفهمها تمام الفهم.

إن البشرية حتى الآن لا تدرك كينونة النار أو الضوء أو الصوت، تقول هي موجات؛ فما هي الموجات؟ نَصِف خواصها وتذبذبها وندرس قوانين تصف ظواهرها، أما ذواتها فلا ندري عنها، بل إن معظم علومنا مجرد وصف لظواهر ما تدرسه هذه العلوم ...مجرد وصف لمجرد قوانين تحكم مجرد ظواهر، لكننا لا ندري ذاتيتها أبدًا. هل أدركت الآن لم منعتك عن الدخول في عالم خزانات الأسرار قبل الأوان؟

سكتوا جميعًا ثم قطع الأب حبل الصمت و قد غيَّر نبرة صوته إلى النبرة الحازمة الآمرة:

- والآن يا (حسن)؛ فرصتك قبل أن تُطْرَد من طريق العلوم، وأنت يا (برقان) قبل أن تُحْرَم من شرف حماية خزانة الأسرار هذه، فرصتكما أن تعيدا كل ما فعلتما بالعكس! بعد عامٍ من الآن حتى يدور الشِعْرَى دورة كاملة و يعود تزامن إشراقه الاحتراقي مع إشراق الشمس، وتكون كل سبحة قد رُدَّت إلى صاحبها الأول من صاحبها الثاني، فتتلو يا (حسن) الطلسم من جديد و أنت ترتدي القلادة؛ ليعود كل واحدٍ منهم إلى شخصيته الأصلية...وادعوا الله أن لا يقرر أحدهم خلال هذه السنة - وتكون حياته الجديدة قد أعجبته - فيأبى أن يعود إلى أصله.

قال (حسن) في اندفاع:

- وما ذنبنا إن كان أحدهم قد أعجبته حياته الجديدة؟

قال أبوه في غضب:

- ومن أذن لكما من البداية أن تغيرا حياته بحياة بديله؟

قال (حسن):

- فإن رضي الطرفان بحياتهما المتبادلة فيما بينهما؟

سكت الشيخ لثوانٍ ثم قال:

- وقتها يكون لكل حدثٍ حديث، و لكن لا تراهنا على حدوث ذلك، فمن سيرضى بحياته الجديدة خلال سنة قد يندم على ذلك بعد سنين.

والآن يا (برقان) أنت تعرف دورك...أن تُخْطِرَهم جميعًا في منامهم بالقصة كاملة، و بما ينتظر كل واحدٍ منهم بعد أن يصحو من نومه.

سكت ثوانٍ ثم أكمل:

- ولا تنس أن تخطرهم أن أمامهم عامٌ كامل يختارون مصيرهم خلاله...قبل أن يعود الشِعْرَى!

●●●

(١٢)

تستطيع أن تتخيل صدمة كل واحدٍ من الأشخاص الستة بالتحول الذي جرى له...

عندما يرى (نواف) نفسه قد بات في بيروت في أحضان زوجته (كوليت) فيرى في منامه أنه سيصحو و لكن في فيلته التي في الرياض وقد تَبَدَّل جسده بجسد زوجته (نوف)! و يصحو بالفعل ليدرك أن ذلك لم يكن كابوسًا رآه في منامه؛ بل كابوس حقيقي عليه أن يعيش فيه سنةً كاملةً، وأنَّ عودته متوقفة على عدة ظروف أهمها موافقة (نوف) هي الأخرى على العودة!

أو تتخيل (نوف) بعد أن نامت مقهورة من الحزن لتستيقظ و هي في جسد (نواف) و ضرتها بين أحضانها! لتدرك أن ذلك حقيقة واقعة وليس منامًا صَوَّرَه لها عقلها الباطن انتقامًا من قهر زوجها لها.

هل تدرك مقدار الصدمة التي صُدِمَ بها (جوزيف) وهو يفقد جسده الجميل وملايينه وحياته المترفة في (سياتل) الهادئة وخَطَطٌ سفره ومغامراته ليجد نفسه مكان (يوسف) الذي ابتاع منه تلك القلادة اللعينة! يصحو ليجد نفسه في أحد أزقة حي مصر القديمة في شقة ضيقة داخل بيت قديم متآكل السلالم، ويتحدث اللغة العربية؛ تلك اللغة التي لم يكن يفهم منها إلا بضع كلمات، وما يعرفه عنها أنها إحدى اللغات السامية القديمة و كُتب بها كتابٌ يقدسه أتباعه ويؤمنون أنه وحيٌ من السماء؟

وبعـد أن كانـت علاقتـه بالمـال هـي خطاباتـه البنكيـة التـي تخطـره بحركتـه الماليـة أو إخطـارات شـركة Pixar بأرباحـه الجديـدة وعـدة كـروت ائتمـان يحملهـا في جيبـه ولا يحمـل هَمًّا للمـال؛ هاهـو تصبـح حياتـه معلقـة - يومًـا بيـوم - بإيـرادات هـذه المركبـة الهنديـة العجيبـة التـي هـي في أصلهـا الأنثربولوجـي الأُحفُـوري كانـت خنفسـاء عملاقـة متحجـرة ثـم تـم إحياؤهـا مـن عصـر الديناصـورات المنقرضـة.

هـذه همـوم كبيـرة (لجوزيـف) بـدون شـك، لكـن الهـمّ الأكبـر منهـا بالنسـبة إليـه أن ينبهـر (يوسـف) بحياتـه الجديـدة الرائعـة فيأبـى أن يعـود إلـى حياتـه البائسـة السـابقة - وهـذا بـدون شـك احتمـال شـبه أكيـد... وبعـد أن كنـت أطيـر بـين قـارات العالـم لأحصـل مـن هنـا و هنـاك علـى تـذكار أثـري قيـم أو تـذكار نسـائي مثيـر سـأُعَلّق هنـا مكـان (يوسـف) هـذا؛ لأحصـل علـى خـازوق الحيـاة الأكبـر! هكـذا حـدَّث (جوزيـف) نفسـه.

ليتنـي لـم أشـترِ هـذه القـلادة ولا أتيـت إلـى مصـر ولا درسـت الأنثربولوجـي ولا كنـت مليونيـرًا ولا اخترعـت شـخصية العفريـت (ديمـون) هـذه أصـلاً، يبـدو أن هـذا هـو عقـاب العفاريـت و الجـآن لـي علـى سـخريتي السـابقة ممـن يؤمنـون بوجودهـم، و إصـراري علـى أن كل ذلـك مـن اختـراع ميثولوجيـا الشـعوب القديمـة المولعـة بالأسـاطير...ويـا لـه مـن عقـاب موجـع!

أمـا الصدمـة عنـد (يوسـف) فهـي صدمـة عكسـية تمامًـا، عندمـا يسـتيقظ ليجـد نفسـه مليونيـرًا وسـيمًا تمتلـئ حياتـه بالنسـاء وهـو الـذي لـم تتعـد علاقتـه بهـن خيـالات الفـراش الملتهبـة، و بضـع مناكشـات مراهقـة

توقفت بعد أن عرف طريق المسجد و الالتزام، و شيدت حالته المادية المنتكسة جدارًا سميكًا عاليًا يحول بينه و بين أي أحلام للزواج.

ليس ذلك فحسب، بل هو الآن أصغر بعشر سنوات ومُتَع الدنيا بين أطراف أصابعه بعد أن كانت علاقته بهذه المتع لا تتجاوز أن يتفرج عليها في شاشة التلفاز ثم يتحسر على نفسه؛ ذلك الشاب الثلاثيني الذي كانت أقصى متعة حصل عليها هي السفر إلى شواطئ مدينة الإسكندرية.

أما الشيء الذي دُهِش به وضحك منه فهو لسانه الجديد وطلاقته في اللغة الإنجليزية وهو من كان يتلعثم فيها حتى في توجيه سائح من السياح الذين يجولون أحيانًا في شوارع حي مصر القديمة، فيتلعثم حتى في إخباره أن انعطف يمينًا أو يسارًا أو اذهب في طريقك مباشرة أو اذهب إلى الجحيم و دعني لهموم الدنيا!

أما صدمة (سالمة) فهي بالتأكيد تفوق ما قبلها من صدمات، صدمة أولى و هي تتبادل حياتها مع حفيدة حفيداتها، وصدمة ثانية وهي تقفز أكثر من قرنٍ و نصف في المستقبل؛ فتصحو لتجد نفسها في دنيا جديدة تمامًا وتختلف تمامًا عن دنياها في كل تفاصيلها.

لكن المهمة الصعبة التي واجهت (حسن) و (برقان) كانت بعد أن صحت (سلمى) ليجدوها و قد تبادلت مكانها مع جدتها (سالمة)، و يكون دور (برقان) أن يبحث عن التاريخ الذي كانت تعيش فيه (سالمة)، وأن يحسبا كم سنة تفصل بينهم و بينها، ثم يبحث (برقان) عن كوكب

يبعد عن الأرض بمقدار نفس العدد من السنين الضوئية ليجد فيه ماردًا يساعده ويخاطر (سلمى) التي ذهبت مكان جدتها ويخبرها بطبيعة ما حدث لها ويقص عليها القصة ﮯ منامها.

كان (حسن) و (برقان) يدعوان الله ألا يصيب (سلمى) الجنون قبل أن يتم ذلك التخاطر، تخيلها (حسن) و هي تأوي إلى فراشها ﮯ القرن الحادي والعشرين لتصحو من نومها ﮯ القرن التاسع عشر، وبين أناس لا تعرفهم ﮯ بيت غير بيتها و جسد غير جسدها، إذن فلا بد أن يتم ذلك التخاطر ﮯ أسرع وقت ممكن.

وكان الله رحيمًا بهم جميعًا إذ تم ذلك خلال يوم و ليلة، استيقظت خلالهما(سلمى) بالفعل على كابوس رأت خلاله هذه القلادة التي ارتدها حول عنقها و كأن عفاريت خرجت منها، وأخذت تتراقص حولها ﮯ دائرة ثم حاولوا سحبها إلى باطن الأرض فقاومتهم بشدة، فتركوها للحظات ثم فجأة حملوها وطاروا بها لأعلى، فانشق سقف الغرفة عنهم ليصعدوا بها ﮯ السماوات البعيدة، و هي حائرة بين أن تقاومهم ليتركوها وبين أن تتشبث بهم ﮯ نفس الوقت كي لا تسقط من السماء؛ فأخذت تصيح: أعيدوني أعيدوني.

واستيقظت (سلمى) من ذلك الكابوس لتجد نفسها تعيش ﮯ كابوس حقيقي أسوأ منه، ولا تفهم شيئًا مما يجري حولها، ولا تدري إن كانت استيقظت ﮯ الحقيقة أم ما زالت تغط ﮯ كابوسها الثقيل، فأخذت تجري ﮯ دار (سالمة) و التي لا تعرفها و تقابل أشخاصًا أول مرة تشاهدهم بينما هم ينادونها ﮯ ذعر:

- ما بكِ يا (سالمة)؟ ماذا أصابك يا بنيتي؟

فيزداد صراخها وهي تجري: أعيدوني أعيدوني...

ثم تسقط مغشيًّا عليها ويدخل عقلها في إغماءة طويلة، وكأنَّ عقلها يرفض هذا الذي يراه ويجري حوله، أو كأنه قد اتخذ خط دفاع لا إرادي منه؛ كي يحمي ذاته ولا يفقد صوابه فيقرر أن يدخل في إغماءة خيرٌ له من أن يصاب بالخلل أو الجنون.

إغماءة كانت نعمة من الله عليها إذ طالت بها حتى تواصل (برقان) مع قرنائه (هلال) و (أبانوخ) الرابضين في كوكبٍ بعيد عن الأرض بعدد السنين التي بين (سلمى) الآن و بين حياتها الأصلية؛ ليخبراها ويخطراها في منامها بكل ما حدث لها، فتفيق لتجد أمها وأخواتها - في الحقيقة أم (سالمة) و أخواتها - يجلسون بجوارها وينظرون إليها في إشفاق، فلمَّا بدأت تحرك جفونها أمامهم نادوا باقي أسرتها - تلك الأسرة الجديدة التي سيكون عليها أن تعيش معهم سنة كاملة و ذلك إن كانت محظوظة و لم يطرأ ما يعيق تفعيل الطلسم من جديد.

وبرغم كل ما هي فيه من صدمة و حيرة و خوف من المجهول الذي سقطت فيه، إلا أن المطلوب منها أن تتماسك وأن تعزو ما بدر منها قبل الإغماء إلى كابوس مخيف زارها في منامها، وأن تبدو أمامهم طبيعية ولا تخطئ في ذكر تفاصيل حياتها أو تخلط بين القديم والجديد كي لا يظنوا بها الجنون - هي لا تعرف كيف يعاملون المجانين في ذلك العصر، وعليها أن تتقبل ولو على مضض كل ما سيطلقونه في وجهها من تفاسير لما حدث.

لكن الميزة الوحيدة في ما انتابها من كوابيس وإغماءات؛ أن ذلك سيعطيها المبرر أن تأوي لفراشها يومًا أو بضعة أيام حتى تستجمع عقلها وتستوعب الصدمة وتفكر كيف ستحيا طوال شهور ذلك الكابوس الحي!

●●●

(١٣)

عـاد (نسـيم أورهـايـون) مسـاءً إلـى فيلتـه الواقعـة في حـي النخيـل الراقـي في مدينـة كازابلانـكا، اكتسـب الحـي اسـمه مـن كثـرة النخيـل المزروع في فيلات هـذا الحـي، و فيـلا (أورهـايـون) بالـذات يتـراص النخيل خلف سـورها كأنـه سـورٌ آخـر يحجـب الرؤيـة عـن أي عـين متلصصـة ولـو مـن بعيـد.

نـزل (أورهـايـون) مـن سـيارته و أمـر سـائقه أن يوافيـه في الغـد تمـام العاشـرة صباحًـا، هَـزَّ السـائق رأسـه علامـة علـى الاسـتجابة؛ فهـو يعلـم أن (أورهـايـون) لا يحـب الكـلام الكثيـر، دلـف (نسـيم) داخـل فيلتـه التـي لا يقيـم فيهـا سـواه، فحتـى الخادمـة والطبـاخ يعملـون نهـارًا فقـط، ولا يحـرس الفيـلا سـوى مجموعـة مـن الكـلاب الشرسـة و حـرسٌ آخـر مـن نـوع خـاص!

نزل سلالم القبو بدلاً من أن يصعد إلى غرفته...

تُرى ما هو الشيء المهم الذي يريدني فيه (داهار)؟

دخـل (أورهـايـون) القبـو وبغيـر مقدمـات جلـس يسـتمع في اهتمـام إلـى المـارد (داهـار) وهـو يقـص عليـه قصـة القـلادات الثـلاث اللاتـي نشـطت طاقاتهـن فجـأة، وأنـه عـرف مـن أقرانـه أنَّ (برقـان) كان يسـتقصي عنهـا وعـن أصحابهـا، وبعـد أن انتهـى قـال (أورهـايـون):

- طالمـا نشـطت طاقاتهـا إذن فـإنَّ طلسـمها قـد قُـرِئ، وطالمـا أن (برقـان) كان يسـتقصي عنهـا فـإنَّ الطلسـم قـد قُـرِئ بشـكل خاطـئ أو في

ظروف خاطئة، و طالما استقصى عن أصحابها إذن فإنَّ خطبًا ما قد أصابهم...ألم تعرف من أقرانك ماذا حدث لأصحابها؟

- لا لم يعرفوا شيئًا من ذلك، إنَّ (برقان) و قرناءه يتكتمون تمامًا على الموضوع.

- إذن فهناك خَطْبٌ ما و خطأٌ ما قد حدثا، و (برقان) و من معه يريدون تداركه...فرصة لأعلم ذلك المغرور (حسن) كيف يلعب مع الكبار.

وفهم (داهار) مقدار الغيظ في قلب (أورهايون) بعد أن فكّ الشاب الصغير سحر ذلك الساحر العتيد الذي صنعه (لسامر)، بل و أبطل سحره في جلسة واحدة، وكم كان ذلك إهانة له، ثم قال:

- لم لا تؤجر من يأتيك برأس (حسن) هذا انتقامًا منه؟

نظر له (نسيم) بغضب وقال:

- أنتم أيها المَرَدَة بقدر ما عندكم من قدرات خارقة بقدر ما لديكم من عقول صغيرة، وهل قواعد لعبتنا هي الاغتيال المادي أم القتل المعنوي؟ ثم هل أنا من الضعف بحيث أفكر في القتل بدلاً من أن أرد الصفعة مضاعفةً؟ الفرصة جاءتني مع هذه القلائد على طبق من الفضة.

- ومن قال لك أن الخطأ خطأ (حسن)؟ ربما خطأ والده.

ردّ عليه في سخرية:

- ألم أقل لك أن عقولكم كالأطفال؟ هل يخطئ (البرغواطي) الكبير مثل ذلك الخطأ؟ إنها أخطاء المبتدئين، لكن الغريب أن يبدأ (محمد) تعليم ابنه أسرار صنعته في هذه السن الصغيرة...غَرٌّ هؤلاء ضربة حظهم في فك سحري في جلسة واحدة.

ثم سكت قليلاً قبل أن يقول:

- اسمع يا (داهار)، تطير الآن بين دهاليز السماء أو عبر ممرات المجرات، و تستقصي من أقرانك فتعرف ما شأن هذه القلادات و من هم أصحابها قبل و بعد أن تنشط طاقاتها.

●●●

عاد (داهار) بعد ساعات إلى (أورهايون) الذي لم يغادر القبو هذه المدة، وإنما تناول خلالها طعامه و شرابه في ذلك القبو المجهز بكل شيء حتى بحمامٍ للسباحة، وبار فخم، وأنظمة إضاءة، وأجهزة صوتية جعلت القبو المكان المفضل (لأورهايون) في فيلته، ثم قص (داهار) ما عرفه:

- قلادة منهن قطعتها سيدة تدعى (نوف) من يد زوجها (نواف)، وثانية باعها صاحبها (يوسف) لأمريكي يدعى (جوزيف)، وثالثة أهدتها سيدة تدعى (لبنى) لابنتها (سلمى).

فكّر (أورهايون) قليلاً ثم قال:

- شيءٌ ما قد حدث و ربط بين أصحاب القلادات الجدد والقدامى والغريب أنَّ أسماءهم متشابهة إلا اسمَيّ الأم وابنتها، لعل الرابط بينهما هو رابط الأمومة؟ لست متأكدًا...

سكت لحظات ثم أكمل:

- أيًا ما يكن فإنَّ خطبًا ما - بل و خطب كبير - قد أصاب هؤلاء، ولكني لا أعرف ما هو ولا تأثير هذه القلادات عليهم، وستظل القلادات متوهجة حتى يُقرأ طلسمها من جديد أو...

وسكت لحظات يفكر ثم قال:

- أو يقرر صاحب أي قلادة منهن أن ما أصابه هو خيرٌ؛ فساعتها سيَقِل توهج قلادته، وحينها نستطيع انتهاز الفرصة فنطفئ هذه القلادة كُليًّا! وهذا دورك يا (داهار)؛ أن تجعلهم - كلهم أو بعضهم - يقبلون بوضعهم الجديد.

رد (داهار):

- ولكني لا أعرف ما هو هذا التغيير الذي أصابهم، وأساسًا لا سلطان لي ولا لأتباعي عليهم إلا الوسوسة.

- والوسوسة تكفيني، يمكننا بمراقبة أصحاب القلادات أن نستنتج ما أصابهم، وعندما ترى طاقة أي قلادة منهن تتذبذب فهذا معناه أن صاحبها يفكر في الاحتفاظ بحاله الجديد، ووقتها سنتأكد من

صحة استنتاجاتنا، وساعتها سيكون دوركم أن تُزينوا له ذلك الوضع، فتقلُّ بذلك طاقة قلادته جداً، وساعتها أقرأ أنا طلسم القلادة المُعادي لها... فينطفئ سحرها و تفقد فاعليتها...

ثم أكمل في تحد وزهو:

- وأكون بذلك قد لقنت (حسن) وأبوه وعفريتهما درساً قاسياً.

●●●

(١٤)

استيقظ (نواف) وهو يتمنى أن يكون ما رآه مجرد كابوس سخيف تسلط على عقله بسبب دعوةٍ دعتها عليه (نوف) في لحظة غضب بسبب ما تظنه من تعسفه معها، لكنه فتح عينيه ليجد نفسه في غرفة نومه التي بالرياض...تحسس جسده فوجد تضاريس زوجته (نوف) التي يحفظها جيدًا...

جلس على طرف فراشه مُطرقًا يفكر، وطالت جلسته وتفكيره حتى قرر في النهاية أن يكلم (نوف)، أمسك الهاتف المحمول وهو يظنه هاتفه وفتحه ليدرك أنه هاتف (نوف)، اتصل بهاتفه فلم ترد عليه، دقيقة واتصلت هي به ولأول مرة يسمع (نواف) صوته هو يأتيه عبر الهاتف ولكن من فم زوجته:

- كان علي أن أذهب بعيدًا عن هذه (الكوليت) زوجتك حتى أتمكن من الرد عليك.

رد عليها وصدم للوهلة الأولى أن صوت (نوف) هو ما يخرج من حنجرته...بعد قليل سيعتادون جميعًا على هذه التغيرات والأوضاع المقلوبة...

- (نوف)؛ عليكِ أن تعودي حالاً إلى الرياض.

- لماذا؟

- لا أدري، على الأقل نفكر في هذه المصيبة التي حلت بنا.
- ما حدث قد حدث وعودتي لن تغير شيئًا، ليس أمامنا إلا أن ننتظر هذا العام ونقضيه بالطول أو بالعرض.
- لكن لا بد أن نفكر كيف سنتصرف خلال ذلك العام.
- وها نحن بالفعل نتحدث ونفكر بصوتٍ عالٍ.
- لا لا...لا يصلح هذا، عليكِ العودة فورًا إلى الرياض، هذا أمر!

سكتت (نوف) قليلاً ثم أجابته وقد تغيرت نبرة صوتها إلى ما يشبه التحدي:

- وبأي صفة تأمرني؟

رد عليها بانفعال:

- بصفتي زوجك.

- أنا الآن الرجل وأنت الآن المرأة، عليك أن تنتظرني حتى أقرر متى أعود.

سكَتَتّ لحظات ثم قالت:

- ولا تنس أنك ممنوع من مغادرة الفيلا حتى أعود بناءً على قسمك.

صرخ فيها وهو يستغرب صوت صراخه الجديد، ذلك الصراخ الذي كان يضايقه منها ويعاقبها عليه:

- هل جننتِ؟ أنا زوجك و آمرك، عودي و إلا طلقتك.

ردت عليه بذات البرود الذي كان يقتلها حين كان يكلمها به:

- العصمة الآن في يدي، أنا الرجل الآن.

استعاد (نواف) هدوءه وقال:

- (نوف)؛ لأجل خاطري، عودي فلا بد أن نكون بجوار بعضنا الآن، لن أستطيع مواجهة الناس بهذا الجسد الغريب عني، أنتِ كيف تتعاملين مع جسدي؟ ألا تستغربينه عليكِ؟

ردت في لا مبالاة:

- في البداية استغربَتُهُ أول ما استيقظت، لكني اعتدت عليه بعد قليل وسأعتاد على هذا الشَعْر الذي يملأ صدري و سَاقيّ، وسأستغل الفرصة وأتجول لمدة شهر في أنحاء أوروبا بعد أن كنت حبيسة قصرك.

انفعل (نواف) ثانية و قال:

- عودي وإلا انتقمت منكِ.

- وماذا ستصنع؟

فكر قليلاً ثم قال:

- سأشوِّهُ سيرتك، سأفعل ما يفضحك و يفضح أهلك في كل الرياض .

سكَتَتْ لحظات ثم قالت:

- سيقتلك أهلي وقتها على أنك أنا، وفي المقابل سأنتقم منك أنا أيضًا وأشوه سمعتك بأفعال مشينة و أصورها و أرفع الصور و مقاطع الفيديو على الإنترنت و أفضح أهلك فضيحة أكبر، و لن يكون عليَّ بعدها أن أعود إلى الرياض، سأعيش حرة طليقة في أنحاء العالم أتمتع بثروتك.

تمالك (نواف) نفسه ثم قال:

- حسنًا دعينا نتجنب العبث في الأعراض و ننسى ما قلناه من كلام الانفعال...ما رأيك لو حلقت لكِ تمامًا ذلك الشعر الذي تعتزين بنعومته وبطوله؟ أو تجاوبت مع شهيتي للطعام حتى أحول قوامك الغزلاني هذا إلى برميل متدحرج؟ أو أمتنع عن برامج العناية الكثيرة التي تملأ يومك صباح مساء للعناية بشعرك و بشرتك و أظافرك... إلخ؟ سأسلمك بعد عام جسدًا مشوهًا تحتاجين لسنوات حتى تستعيدي بعض جماله وفتنته، أما أنا فرجل وجسدي الذي بحوزتك لا يضره أي إهمال.

ردت (نوف) بكل برود:

- لو حدث ذلك فإنني سأهَب لزوجتك (كوليت) كل مشاريعك وممتلكاتك التي تديرها ثم أطلقها لك.

سكت (نواف) و قد أدرك أنه الطرف الأضعف وأن (نوف) قادرة فعلاً على قهره، واستغرب لما وجد الدموع تنساب من عينيه بغزارة كما كان يحدث من (نوف) كثيرًا فيتهمها بالتصنع أو ادّعاء المسكنة أو بالعاطفية الزائدة، فقال وصوته يختنق بالعَبَرات:

- (نوف)، لا تتركيني معلقًا هكذا.

ردت عليه وهي تقاوم قلبها الذي بدأ يرق له:

- لن أتاخر عليك؛ هو شهر على أكثر الأحوال، ولا تنس أن تهتم بابنتنا (أسيل) وأن تهتم برضاعتها ولا تتركها طيلة الوقت للمربية.

ثم أنهت (نوف) المكالمة، وأخذت تتأمل في (كوليت) التي كانت لا تزال نائمة، و مشاعرها تتضارب ناحيتها بعد أن تحولت إلى رجل، أصابها الهلع أنها ورثت جسد زوجها بذكوريته ورغباته وانفعالاته، وها هي تنظر إلى (كوليت) والنفور منها يملأ قلبها..والرغبة فيها أيضًا! فلم تشعر بنفسها إلا وهي تحتضنها وهرمونات (نواف) تضطرم بجسدها، وفجأة نفضت (كوليت) نفسها في ضيق وقالت في غضب وهي لا تزال نائمة:

- ما هذا يا (نواف). ألا تحاول السيطرة أبدًا على شهواتك؟ ألا تراني نائمة؟

ارتدَّت (نوف) عنها وقد شعرت بالإحراج و الغضب، وهمَّت لا إراديًا أن تبطش بها، لكنها تذكرت وضعها الملتبس الذي لا تدري هل هي فيه (نوف) أم (نواف). وتذكرت المرة المشابهة لهذا الموقف لها مع (نواف) و كيف أنها تصرفت ذات تصرف (كوليت) و كيف اعتبرت ذلك منه تصرفًا شهوانيًّا بحتًا مجردًا من العاطفة التي ينبغي أن تزين الرغبة الحيوانية.

وقررت إطفاء حرارة ذلك الجسد الغريب بشلالات من الماء البارد، وتضايقت حين فشل الماء في إطفاء أي شيء، وصعقت لما وجدت نفسها تستحضر المتعة يدويًا في عملية اكتفاء جنسي ذاتي! صعقت لمَّا تم كل ذلك رغمًا عنها وكأنها مشلولة الإرادة، و مرة أخرى تتذكر (نواف) وكيف ضبطته يصنع ذلك ذات يوم كانا فيه على خصام، وكيف اعتبرت ذلك منه طعنًا غائرًا لكرامتها و أنوثتها.

أحست بالخجل من نفسها للحظات ثم سرعان ما ألقت اللائمة على (نواف) بل و على كل الرجال...كيف يطيق الرجال أجسادهم تلك؟ قالت (نوف) لنفسها...و أنا من كنت أرثي لحال المرأة بسبب معاناتها من تضارب هرموناتها!

●●●

(١٥)

تقلب (يوسف) كثيرًا في فراشه الجديد الوثير في (سياتل) وهو بعد لا يصدق ذلك الذي حدث له، إن أكثر أحلامه سعادة طوال حياته - والذي تمنى ألا يصحو منه أبدًا - لم يأته بأجمل من ذلك الواقع الذي يعيشه الآن.

أدار عينيه في أرجاء الغرفة المليئة بوسائل التكنولوجيا والترفيه، وحمد الله أنَّ عملية التبادل مع (جوزيف) تضمنت معرفته بهذه الأشياء التي لم يكن قد سمع عنها من قبل، فمراكز اللغة والمعرفة والذاكرة التي في المخ تبقى على ما كانت عليه عند صاحبها الأصلي، وإنما جاء هو بشخصيته وثقافته وعقله ليحل بذاته في ذلك الجسد؛ ويا له من جسد جميل و وجهٌ أجمل...هكذا خاطب نفسه وهو يتأملها في المرآة.

واستغرب أنه لا يزال يذكر كل تفاصيل حياته ولغته وأسرته وأصدقاءه الذين تركهم في مصر، و برغم كل ما هو فيه من انبهار تذكر أُمَّه وأخته في حنين و تساءل كيف يتعاملان بل كيف يتعامل معهما (يوسف) الجديد؟ هل يدركان شيئًا مما حدث؟ هل شعرت الأم بأن من أمامها ليس ابنها؟ هل أخبرهم (جوزيف) بشيء؟ لا أظن أنه سيغامر بما يرسله إلى أقرب مستشفى للأمراض العقلية.

وأخذ عقل (يوسف) يتساءل: من أنا الآن؟ (يوسف) أم (جوزيف)؟

إنـه يعـرف أنـه (يوسـف) وأن الفلاسـفة الذيـن دَرَسَـهُم يقولـون أن الجسـد مـا هـو إلا صـورة، مجـرد ثـوب، خلـع هـو ثـوب (يوسـف) القـديم وارتـدى ثـوب (جوزيـف)، أو بالأصـح تبـادل ثيابـه مـع (جوزيـف).

ولكـن؛ لمـاذا يحتفـظ بذاكـرة (جوزيـف) ومعرفتـه وفي نفـس الوقـت يحتفـظ بذاكرتـه هـو (كيوسـف) وبمعرفتـه؟ و كاد أن يتـوه عقلـه في متاهـة فلسـفية بـين نظريـات المعرفـة عنـد (أفلاطـون) و (ديـكارت) و (لـوك) و(كانـط) وغيرهـم مـن الفلاسـفة، وعبثًـا حـاول أن يجـد نفسـه أو يعايـن حالـه في أي نظريـة منهـن، بـل وجـد أن همـوم حياتـه السـابقة قـد أنسـته كثيـرًا مـن الفلسـفة التـي درسـها عـن عشـق.

ليـس هـذا وقـت التَفَلْسُـف، ومضـى يلـف ويـدور ويتأمـل في شـقة (جوزيـف) ويقارنهـا بشـقته التـي تركهـا في مصـر القديمـة...

يقارن ؟؟...

إن كلمـة مقارنـة لا محـل لهـا مـن الوجـود بـين شـقتين لا يوجـد بينهمـا أي عنصـر مشـترك إلا الاسـم، وأخـذ (يوسـف) يجـرب أجهـزة الشـقة ويسـتعمل كمالياتهـا الفاخـرة...

هـذا البيـت يحتـاج إلـى دليـل و كتالـوج لشـرح مـا فيـه مـن كماليـات وتكنولوجيـا...

هـذا الغنـي لديـه صالـة ألعـاب (جيـم) كامـل في بيتـه...هكـذا حـدَّث (يوسـف) نفسـه...

شاشـة تلفـازه أكبـر مـن شاشـة السـينما ..كيف أدخلـوا الشاشـة إلـى الغرفـة التـي تحتـل فيهـا مسـاحة حائـط بأكملـه تقريبًـا؟

حتـى قاعـدة الحمـام مـزودة بشـطاف مـاء علـى غيـر عـادة الغربيـين في الاكتفـاء بـورق الحمـام النـاعم...يبـدو أن (جوزيـف) قـد أعجبتـه الفكـرة فنقلهـا بعـد زيارتـه لإحـدى دول الشـرق.

يمكننـي أن أمكـث في هـذه الشـقة لا أغادرهـا، ولا أمـلُّ منهـا طـوال عـام التحـول هـذا، وسـأكون مجنونًـا لـو فكـرت في العـودة ك (يوسـف) مـرة ثانيـة!

ولكـن مـاذا عـن أمـي وأختـي؟ هـل سأسـتطيع اسـتقدامهما؟ هـل سـتصدقان أصـلاً حرفًـا واحـدًا ممـا حـدث؟

وسـحبه رنـين هاتـف (جوزيـف) المحمـول مـن خواطـره؛ فتـاة اسـمها (سـوزانا) مـن صديقـات (جوزيـف) تهاتفـه؛ رد عليهـا، أخـذت تتكلـم وتضحـك و تصيـح في انفعـال و سـرور، وكل مـا فهمـه منهـا أنهـا مسـرورة جـدًا لَّمـا علمـت بالمصادفـة أنـه في (سـياتل) هـذه الأيـام، ويـا لَهَـا مـن مصادفـة سـعيدة؛ فهـي أيضًـا تزورأهلهـا في (سـياتل)، و سـتعرج عليـه بعـد قليـل، وأغلقـت الخـط، كل هـذا و هـو لـم ينطـق طـوال المكالمـة سـوى بكلمـة (آلـو).

لـو لـم يتعـرف علـى (سـوزانا) هـذه – و كـم هـي جميلـة – مـن ذاكـرة جوزيـف التـي بحـوزة عقلـه الآن؛ لقَـال أنهـا فتـاة لا حـظّ لهـا مـن الجمـال؛ بسـبب لهفتهـا علـى (جوزيـف)، و أخـذ يقلـب في ذاكـرة (جوزيـف) كأنـه يشـاهد ملفـات فيديـو؛ أيهـا المحظـوظ! كل هـؤلاء الفاتنـات مـن حريمـك ؟!!

أخذ يتحسر على ماضيه الذي قضاه وهو يتمنى الزواج من أي أنثى تحمل تاء تأنيث من أي نوع...من كانت سترضى بظروفه المعدمة؟ و ليست لديه ميزة أخرى تعوضها من وسامة أو وظيفة تنبئ بأي أمل في أي مستقبل؟

ثم أفاق إلى نفسه؛ ماذا سيصنع مع هذه ال (سوزانا)؟

وخفق قلبه في عنف، هذه الفتاة لن تأتي لتسلم عليه وتمشي بل لها في (جوزيف) مآرب أخرى...فقام على الفور إلى البار الذي في جناح الاستقبال وحمل كل ما فيه من زجاجات و تخلص منها، ثم عمد إلى الثلاجة وأخذ ما فيها من علب البيرة و ألحقها بأخواتها وهو يقول: هذه الثلاجة أكبر من خزانة ملابسي التي في مصر القديمة.

لحظات ودقَّ جرس الباب، و وقف (يوسف) مبهوتًا أمام جمال (سوزانا)!

●●●

(١٦)

وقف (جوزيف) يتأمل في المرآة وجهه الجديد وهذه اللحية النابتة المبعثرة على صفحة وجهه، إنه يفهم أن لا يحلق الرجل لحيته تَنَسُّكًا كما يحدث في ديانات كثيرة، أو يربيها صاحبها بشكل جذاب يليق بملامح وجهه، أو حتى يربيها بشكل مخيف إذا كان مصارعًا يريد أن يبث الرهبة في قلوب منافسيه، أما أن يهمل حلاقتها توفيرًا للمال؟ فأي إنسان بائس هذا الذي صرت مكانه..تساءل (جوزيف).

بل كيف حدث هذا التحول أساسًا؟ قلادة و طلسم و سحر و نجوم تتعامد و عفاريت؟ لم أكن أصدق بوجود هذه الأشياء أساسًا ثم ها أنا أقع في فخٍ من شباكها.

هل ما أنا فيه حقيقة؟ أم أنها مجرد أحلام؟ بل هل حياتنا واقعٌ نعيشه؟ أم كلها مجرد حلم كبير نصدق أنه واقع من شدة اندماجنا في أحداثه؟ إننا نعيش في منامنا أحلامًا نصدق أنها حقيقة من شدة واقعيتها، بل نصحو أحيانًا ونحن لا ندري أين الواقع و أين الحلم، فهل سأصحو غدًا من هذا الكابوس أم على نفس الكابوس أم على كابوسٍ أشد منه؟

لماذا يحلم الإنسان أصلاً؟ لماذا نرى أنفسنا في الأحلام أننا نجري ونعمل و نقاتل ونحب...إلخ، و لا نرى في الأحلام أبدًا أننا نحلم؟ هل هذا دليل على أن حياتنا واقعٌ حقيقي و ليست حلمًا كبيرًا؟ فما هذا الذي أنا فيه إذن؟

- (يوسف)...طعام الإفطار جاهز، هل ستقضي يومك في الحمام؟

وخرج (جوزيف) بهذا النداء من والدة (يوسف) من بئر خواطره...

خرج من الحمام و جلس يتناول الإفطار مع هذه التي تُسمَّى أمَّه، والأخرى التي يُفْتَرض أنها أخته و أخذ يتأمل أسرته الجديدة في توتر واستغراب؛ إنَّ أخته مليحة نوعًا و فيها جاذبية وأنوثة بقدر ما في وجهها من ملامح حزينة، لكنها لا تقارن مع أي حبيبة سابقة له، واستغرب لَّما وجد نفسه يعتبرها أخته فعلاً، و لا ينظر إليها بأي نظرة مختلفة، كيف كان الفُرْس و المصريون القدماء يتزوجون من أخواتهم؟ قال جوزيف في باله: أي مخلوقات كان هؤلاء؟ و لم يترك (جوزيف) لأفكاره العنان، فحشر لقيمات في فمه على عجل و قام إلى حجرته وسط استغراب أمه وأخته لبعض التغير في تصرفاته و حركاته...

- ما بك يا (يوسف)؟ تعال و أكمل فطورك كما ينبغي.

واستغرب (جوزيف) وهو الذي اعتاد العيش منفصلاً عن أسرته منذ أيام الجامعة، لا أفهم أصلاً كيف يكون رجلٌ في ال ٣٥ ولا يزال يعيش مع أسرته - قال جوزيف لنفسه - المصائب لا تأتي فرادى، فحَتَّى إحساس الخصوصية سيكون منعدمًا في هذه الشقة التي تكاد تخنقني أصلاً من ضيق مساحتها.

فتش (جوزيف) في ملابس (يوسف) فلم يجد سوى ٢٠ جنيهًا، (يوسف) لم يعمل على ذلك التوكتوك إلا يومًا واحدًا، وعلى حسب ما قرأ في ذاكرة (يوسف) فإنَّ هذه الجنيهات مبلغٌ زهيد، هو الآن بحاجة

إلـى المـال أكثـر مـن أي شـيء آخـر، حياتـه السـابقة برغـم رفاهيتهـا إلا أن السـفر و الترحـال علَّمَـاه الصلابـة، وجـرَّب مـن قبـل حيـاة الخشـونة ولكـن في رحـلاتٍ محـدودة الأيـام، بـدَّل ثيابـه وخـرج و ركـب ذلـك التوكتـوك وبـدأ يـدور بـه في شـوارع مصـر القديمـة، وهـو لا يـدري بعـد إن كان في حيـاة حقيقيـة أم في كابـوس كبيـر!

●●●

(١٧)

الساعات الأولى بل الأيام الأوائل في حياة (سالمة) الجديدة مكان حفيدتها (سلمى) تمثل الترجمة الصارخة لكل معاني الارتباك، صحيح أن عقلها وَجَد في مراكز مخ (سلمى) تعريفًا و تعارفًا لكل ما هو جديد عليها، لكن روحها و نفسها لم تكن لتألف بسهولة كل هذا الجديد .

وباستثناء أنه على الستة أشخاص المتحولين التعامل مع أشخاص جدد على أنهم الأهل و الأصدقاء، وأن يَبْدُوا طبيعيين في التعامل معهم، فإن (سالمة) هي الوحيدة بين الستة أشخاص و كل شيء حوله جديد عليه .

فبالتأكيد قرأت (سلمى) كتبًا أو شاهدت أفلامًا عن حياة الناس في الماضي، وبالتأكيد كان يعرف كلٌّ من (جوزيف) و (يوسف) و لو شيئًا يسيرًا عن عالمه الجديد، و بالتأكيد يعرف (نواف) و (نوف) أن هناك اختلافات كثيرة بين الرجل و المرأة، لكن (سالمة) الآن تعيش ما لم تره أو تسمع عنه من قبل.

وهكذا مضت تتحسس هذه الأجهزة الغريبة عنها جهازًا جهازًا، كيف يضئ هذا المصباح الذي يتدلى من سقف الغرفة بدون إضافة زيت إضاءة له؟ يقول لها مخ سلمى أنه يضاء بالكهرباء، و ما الكهرباء؟ و ما الإلكترونات؟ و كيف تنطق هذه الأجهزة؟ وكيف يحمل بعضها صور الناس وأطيافهم، و لماذا كل شيء هنا قديمٌ في مسماه بينما هو

الآن مختلف تمامًا في طبيعته عما اعتادته؛ موقد النار، سخان الماء، المصباح، العَرَبة، خزانة الطعام التي أصبحت الآن تحفظه مثلجًا ...إلخ.

ولماذا تصدر هذه الأجهزة ضجيجًا مستمرًّا يكاد يحرق أعصابها؟ ولماذا تشعر هي وحدها بهذا الضجيج ولا يشعر به من حولها؟

يكاد عقلها يُجَن من شدة ارتباكه...

لكن عقل الإنسان خلق ليتعلم، أو كأن المعرفة رُكِّبَت فيه سلفًا في دهاليز عميقة مختبئة في بئر اللاوعي، و يكون كل دور العقل أن يجترَّ هذا المخزون المعرفي و أن يقيس ما هو جديدٌ تمامًا على شبيهه مما هو مخزونٌ لديه.

وبالفعل أخذت سالمة تستوعب حياتها الجديدة و تستعيد توازنها في وقتٍ أقل مما كانت تتخيل هي، و ما كادت أسرتها الجديدة تلاحظ ارتباكها حتى كانت قد استعادت توازنها، و لما سألتها أمها - أم (سلمى) - عمَّا لاحظته عليها من تغير في تصرفاتها؛ عزت ذلك إلى اشتداد أعراض طمثها عليها هذه المرَّة.

وإذا كان الطفل الذي لا يتجاوز عدة أعوام من عمره يتكيف مع ما يقع بين يديه من لعب أو أجهزة في وقت بسيط؛ فإنَّ هذا الطفل الكبير (سالمة)- التي وكأنها ولدت للتو ولكن في ال ٢٠ من عمرها - قد تكيفت بأسرع مما كانت تظن، لكن ذلك اضطرها للمكوث في البيت لعدة أيام؛ حتى تتكيف على كل تلك الحياة الجديدة، وبالطبع كانت حجتها اشتداد ذلك الطمث عليها.

ومـع مرحلـة الاستكشـاف الحـذر دخلـت (سـالمة) عالـم التعـارف؛ هـؤلاء إذن هـم أحفـاد أحفـادي للجيـل لَسْتُ أدري كـم! الشَّبَه واضـح بيننـا غيـر أن بشـرتي أكثـر بياضًـا، وهـذه هـي إذن ثيابهـم؛ إن ثيابنـا كانـت أجمـل وأكثـر راحـة، أمـا طعامهـم فكارثـة؛ لا طعـم و لا رائحـة زكيـة ويسـبب للبطـن مشـاكل كثيـرة.

وهـذا هـو هاتفـي المحمـول أو مرسـالي بينـي بـين صويحباتـي الجـدد، وهـذه هـي أسـماؤهن و صورهـن، واكتسـى وجههـا بحمـرة الخجـل لمـا رأت أسـماء وصـور أصدقـاء (سـلمى) مـن الذكـور، كيـف يكـون للفتـاة أصدقـاء ذكـور؟ يـا لخجلـي - هكـذا حدثـت نفسـها - وأيـن أهلهـا مـن هـذا؟ وكيـف يسـمحون لهـا بالتعـارف إلـى شـباب بـل والخـروج معهـم؟ كاد أن يغمـى عليهـا لمَّـا قـرأت في ذاكـرة مـخ (سـلمى) أنهـا قـد خرجـت معهـم أيضًـا في سـفرٍ بعيـد إلـى بـلاد الفرنجـة!

وبعـد أن أفاقـت مـن هـذه الصدمـة قامـت لتستكشـف خزانـة ثيابهـا الجديـدة، أيـن ملابـس هـذه الفتـاة وسـط كل ملابـس الذكـور تلـك؟ الخزانـة مليئـة بالسـراويل والقمصـان الضيقـة، صحيـح أن هـذه أحذيـة حـريم وتلـك تشـبه مشـدات الصـدر التـي أعرفهـا، ولكـن؛ يـا للهـول! أهـذه هـي ثيـاب فتيـات هـذه الأيـام؟ إن الذكـور في أيامنـا لا يجـرُءُون علـى لبـس هـذه السـراويل الضيقـة.

ومـا كل هـذه الثيـاب؟ لا أصـدق أن هـذه خزانـة ملابـس لفتـاة واحـدة وليسـت لعشـر فتيـات، ولمـاذا تُخْفِي (سـلمى) شـعر رأسـها إذا كانـت تلبـس مـا يفصـل جسـدها تفصيـلاً ومتعـةً للناظريـن؟ يـا للمصيبـة؛ لقـد كنـت أظـن أن مشـكلة الخـروج سـتكون في أن أقـود سـيارة (سـلمى)، لكـن المشـكلة

الحقيقية هي كيف أخرج أصلاً بهذه الثياب التي أستحي أن أرتديها حتى أمام أبي أو أخي الصغير.

وقلبت الخزانة رأسًا على عقب حتى عثرت على بضعة ملابس فضفاضة تسيّر بها أمورها، صحيح أنها ستضطر لكشف وجهها كما تفعل العجائز والجواري في عصرها، لكن لا بأس، هي أصلاً كانت تضيق بغطاء الوجه حين كانت تضطر لارتدائه في الأوقات القليلة التي كانت تخرج فيها في الزمن الماضي.

ثم خطرت في ذهنها خاطرة، فأسرعت وأغلقت غرفتها بالمفتاح ثم ارتدت طاقمًا من هذه الملابس الغريبة ، ووقفت تتأمل نفسها في المرآة وتدور أمامها في أنصاف دوائر يمينًا و يسارًا، وأحست بالرضا يملأ قلبها عن جمال تضاريسها الجديدة.

ولا بد أن هذه هي أدوات الزينة عندهم، ألوانها برّاقة جميلة برغم رائحتها الغريبة، لكنها عافت أن تضع منها شيئًا أو ارتبكت من كثرتها وهي التي لم تعتد إلا وضع كحل الأثمد في عينيها، ثم أخذت تتأمل وجهها - أو بالأحرى وجه (سلمى) - في المرآة عن قرب، إنّ (سلمى) أقل جمالاً منّي! هكذا قالت لنفسها، لا بد أن (سلمى) الآن تحسد نفسها على وجهها الجديد و صفاء بشرته...إنّ كل أسرة (سلمى) وجوههم غير نضرة و بشرتهم مليئة بالشوائب، لا بد أن هذا الهواء الفاسد الذي يكاد يخنقني هو سبب ما عليه بشرتهم، كيف أيضًا لا يشعرون أن هواءهم فاسد و خانق؟ معذورة أن تلجأ (سلمى) لكل أدوات الزينة تلك.

وفجـأة قفـز خاطـر ـ في ذهـن (سـالمة) وسـط انشـغالها بالملابـس والزينـة، واسـتغربت أن هـذا كان يجـب أن يكـون هـو أول مـا يخطـر ببالهـا، قـرنٌ ونصـف قفزتـه إلـى الأمـام لا بـد و أن العالـم تغيـر فيهـا شـكله وتبدَّلـت أحوالـه، مـن جـاء لحكـم مصـر بعـد الوالـي (محمـد سـعيد)؟ وكيـف اسـتكملوا حفـر قنـاة السـويس؟ وإلـى أيـن وصـل خـط سـكة الحديـد؟ وكيـف حـال مينـاء رشـيد ومراكبـه؟ ومـاذا فعلـت فلسـطين؛ البلـد التـي نـزح منهـا جدهـا لأمهـا إلـى مصـر إبّـان حكـم (محمـد علـي باشـا)؟ ومـاذا صنـع سـلاطين آل عثمـان؟ وكيـف أصبحـت رحلـة الحـج و محمـل كسـوة الكعبـة في هـذه الأيـام؟

سـتجد إجابـات تسـاؤلاتها عبـر ذلـك الـذي يسـميه دمـاغ (سـالمة) بالإنترنـت، وجلسـت أمـام شاشـة الكمبيوتـر وأخـذت تسـتجمع مـن مـخ (سـلمى) طـرق البحـث الإبحـار في هـذه الشـبكة حتـى بـدأت في الاعتيـاد عليهـا بعـد سـاعات مـن الارتبـاك.

ثـم أخـذت لسـاعات طـوال تقـرأ نتائـج البحـث، في البدايـة شـعرت أنهـا لا تفهـم شـيئًا، ورويـدًا رويـدًا بـدأت ضبابيـة الصـورة تنقشـع مـن أمـام عينيهـا، وبـدأت تسـتجمع الأحـداث وتسـتمتع بقـراءة التاريـخ الـذي كان هـو المسـتقبل بالنسـبة لهـا قبـل تحولهـا، وجلسـت بالسـاعات تقَلِّـب بـين الصفحـات وبـين الصـور التـي تشـرح بعـض الأحـداث، حتـى وصلـت لقـراءة مـا حـدث بالقـدس...

النكبـة؟ مـا النكبـة؟ و بـدأت تشـعر بالدمـاء تهـرب مـن وجههـا وبأعصابهـا ترتعـش وبقلبهـا يسـقط في قدميهـا، إن كثيـرًا مـن أقـارب أمهـا

لا زالوا يقطنون بيت المقدس وما حولها من القرى...دقائق أخرى و لم تشعر بنفسها وهي تسقط مغشياً عليها!

●●●

(١٨)

مـر يومـان علـى (سـلمى) و هـي تـلازم الفـراش بعـد أن أفاقـت مـن ذلـك الإغمـاء الـذي أعقـب سـقوطها في بئـر الماضـي مـكان جدتهـا (سـالمة)، الـكل كان مشـفقًا عليهـا وتمَّـت رُقْيَتهَـا عشـرات المـرات؛ فـأي كابـوس هـذا الـذي يجعـل صاحبتـه تـلازم الفـراش ليومـين.

إن كان عليهـا هـي فإنهـا تتمنـى أن تقضـي هـذا العـام نائمـة في فراشـها؛ حتـى يعـود ذلـك الشِـعْرَى مـن جديـد إلـى بُرْجِـه الـذي كان عليـه ويتلـو حسـن طلسـمه المشـئوم إيـاه مـرة أخـرى، إنهـا تحـس وكأنهـا كانـت تقـرأ كتـاب (حديـث عيسـى بـن هشـام للمويلحـي) فتعثـرت قدماهـا في إحـدى صفحـات الكتـاب و سـقطت داخلـه مـن خـلال بـابٍ مـن أبوابـه!

مـاذا بـكِ يـا (سـلمى)؟ - قالـت لنفسـها - ألا تحبـين السـفر و تودِّيـن لـو ارتحلتـي إلـى أرجـاء العالـم؟ هـا أنـتِ تقفزيـن قفـزة للـوراء في رحلـة يحسـدك عليهـا أي رَحَّالـة، ولا تفوقهـا روعـة إلا رحلـة جدتـك التـي قفـزت مكانـك قفـزة هائلـة للأمـام. ألسـتِ تدرسـين التاريـخ في كليـة الآداب؟ هـا هـو ذا التاريـخ تقَلِّبـين صفحاتـه مـن داخـل كتابـه و تقلبـين معـه صفحـات علـم الاجتمـاع أيضًـا، لـم تكونـي ابـدا ضعيفـة و لا كسـولة يـا (سـلمى)، كل هـذا سـوف يمـر و بعدهـا سـتجدين أن هـذا العـام كان هـو أهـم سـنوات حياتـك علـى الإطـلاق.

قامت (سلمى) من فراشها وخرجت من حجرتها، وما أن رأتها إحدى أخواتها الصغيرات حتى صاحت من الفرح وسارعت لتزف البشرى ولتجمع حولها باقي أسرتها الكبيرة، هؤلاء الناس لم يسمعوا وقتها عن تنظيم النسل - قالت (سلمى) لنفسها - وقد أحتاج بعض الوقت لأعتاد أسماء كل هؤلاء الإخوة و الأخوات.

وتسابقت الأخوات لحضنها والإخوة لتقبيل رأسها، حتى جاء الأب يمشي في وقار واحتضن ابنته ثم مدَّ يده إليها ليصافحها هو يقلب ظهر كفُّه لأعلى كما اعتاد مع أولاده كي يسارعوا إلى تقبيل يده، إلا أنَّ (سلمى) اكتفت بمصافحته فهي لم تسترجع بعد من مخ (سالمة) هذا التقليد الأبوي، نظر الأب إليها صامتًا و إخوتها في استغراب بينما حملَقَتْ فيها أمها في دهشة وغضب، نظرت إليهم (سلمى) مستفسرة وهي لا تفهم لماذا سكتوا فجأة حتى قطع الأب حبال الصمت والتوتر وقال في وقار:

- حمدًا لله على سلامتك يا (سالمة)، كم أشتاق إلى قدحٍ من القهوة من يديكِ.

ردت (سلمى) بتلعثم وهي لا تزال متوترة من نظرات أسرتها فقالت وهي تتصنع المرح لتكسر حاجز التوتر:

- حالاً يا أبي أُعِدُّ لك قدحًا من القهوة وأعد لنفسي كوبًا من الشاي لأشربه معك.

خيَّم الصمت المطبق على الجميع و نظروا إليها في حزنٍ وشفقة بينما هي لا تفهم شيئًا، حتى قالت أمها في أسًى:

- ارتاحي أنتِ الآن يا (سالمة) و أنا سأُعِدُّ لوالدكِ ما يريد.

دخلت (سلمى) حجرتها هي لا تفهم أين الخطأ فيما قالت، دقائق ودخلت عليها أختها (توحيدة) وهي تنظر إليها في إشفاق وتقول:

- ماذا بكِ يا أختي؟

ردت (سلمى) في دهشة:

- لست أفهم ماذا بكم؟ ماذا فعلت وماذا قلت؟

- أولاً لم تُقَبِّلِي يد الوالد حين مدَّها إليكِ، وثانيًا ما هو هذا الشاي الذي كنتِ توَدِّين صنعه و شربه؟

انتبهت (سلمى) لكلام أختها، كان ينبغي عليها أن تذاكر جيدًا قبل أن تتصرف أو تتفوه، يبدو أن الشاي لم يدخل مصر بعد، وأنها يجب عليها أن تراجع ذاكرة دماغ (سالمة) حتى تسترجع تفاصيل حياتهم الدقيقة كي لا يتهموها بالجنون أو بالمَسّ، يبدو أنه سيكون عامًا طويلاً:

- هل قلتُ شاي؟ لقد كنت أقصد أن أقول أعشاب و لكن يبدو أن لساني خانني من أثر ما كنت فيه.

نظرت إليها (توحيدة) وهي تريد أن تُصَدِّقها، بينما ذاكرة (سالمة) تقول (لسلمى) أن (توحيدة) هي أختها المقربة و صديقتها الصدوقة وكلتاهما موطن سرّ الأخرى.

تنهدت (توحيدة) ثم قالت:

- ويد أبي التي لم تقبليها - لأول مرة في حياتك - حين مدَّها إليكِ؟

- لم أكن أقصد بالطبع، لا زلت مُتْعَبَة يا ناس.

- يا أختي؛ سأصارحك بشيء، أمي منذ يوم كابوسك وهي تلح على أبي لإحضار شيخ يقرأ عليكِ، هي تظن أنك معشوقة عشقًا سفليًّا هو سبب ما أنتِ عليه الآن من تعب و سابق ما أنتِ عليه من مشاكل في الزواج، و أبي حتى الآن يرفض حتى لا تخرج عليكِ سمعة توقف سوق زواجك أكثر مما هو عليه من بوار...سامحيني يا أختي على صراحتي وعلى كلامي القاسي، لكن هذا عهدنا أنا وأنتِ مع بعضنا طوال حياتنا، لكن يبدو أنَّ أبي بدأ في التفكير جدِيًّا في كلام أمي.

صمتت (سلمى) ولم ترد، لو قيل لها هذا الكلام قبل أن تتبدل حياتها لأوسعت قائله سخريةً وتقريعًا، لكنها بعد ما حدث لها من القلادة وطلسمها أصبحت مستعدة لتصديق كل ما كانت تعتبره من الخرافات.

مصيبة إذا جاؤا إليها بشيخٍ له حظوته وخطوته فيخطره قرين (سالمة) أن من أمامه ليست (سالمة) أصلاً! و قد لا يستوعب ذلك الشيخ ما فعله (حسن) و (برقان)، و وقتها قد يظن أنها روحٌ شريرة سكنت جسد (سالمة)، وأخذت تسترجع من عقلها كل ما سمعته أو قرأته عن

طـرق صـرف هـذه الأرواح؛ واقشـعر جسـدها وهـي تتخيـل نفسـها تأخـذ علقـة سـاخنة مـن خيزرانـة ذلـك الشـيخ! لا بـد أن تتـدارك الأمـر و تثبـت لهـم فـورًا أنهـا طبيعيـة!

●●●

(١٩)

انتهت (نوف) من حمامها وقد قررت ألا تترك ذلك الارتباك الجنسي يفسد عليها مزاجها، ستتعامل مع تلك الرغبات الذكورية على أنها أنفلونزا؛ الوقاية منها و المناعة خير علاجٍ لها، هي الآن في طريقها إلى مكتب (نواف) في بيروت تستمتع بتلك التجربة المحرومة منها؛ تجربة قيادة سيارة، وليست أي سيارة بل سيارة رياضية فائقة القدرات، وأخذت تخطط في عقلها لما ستفعله خلال ذلك الشهر الذي أوعدت (نواف) أنها ستتغيبه انتقامًا لحبساتها المتعددة السابقة كلما كان يغضب عليها.

لم يكن هناك مجال للحيرة، ستسافر بكل تأكيد وفي كل مكان، بل لو استطاعت أن تتواجد في أكثر من دولة في نفس الوقت لفعلت، إنها الآن كهواء كان مضغوطًا بقوة في وعاء محكم ثم انفجر هذا الوعاء لينتشر الهواء في كل اتجاه.

أخذت تُعِد في رأسها جدولاً دَسِمًا يطير بها ما بين عدة دول أوروبية وبين شرق آسيا ثم تنهيه بمدغشقر التي طالما حلمت بها وبزيارة غاباتها، فكان (نواف) يسخر من رغبتها تلك و من رغبتها الأخرى في اقتناء نسناس من هناك و تربيته!

دخلت (نوف) المكتب وأمْلَت على سكرتيرة (نواف) برنامجها الدَسِم لتتولّى الحجوزات اللازمة، وفي انتظار ذلك كان عليها أن تباشر بعض

أمـور العمـل بـدلاً عـن (نـواف)، خـلال ذلـك شـعرت بالارتبـاك الشـديد؛ إنهـا لـم تتصـور أن يكون الأمـر مُعَقـدًا بهـذا الشـكل، و كان عليهـا أن تتخـذ قـرارات في أمـور لا تفقـه فيهـا شـيئًا، وعبثًـا حاولـت أن تجـد إجابـة في ذاكـرة مـخ نـواف الـذي هـو في حوزتهـا الآن.

الوكيـل العقـاري في (دبـي) يطلـب منهـا قـرارًا فيمـا يخـص أقسـاط عقاراتهـم هنـاك و التـي تراجعـت أسـعارها الأصليـة كثيـرًا حتـى أصبـح الاسـتمرار في دفـع الأقسـاط شـيئًا خاسـرًا، حاولـت أن تسـتدرج الوكيـل العقـاري لمعرفـة نصيحتـه فلـم تخـرج منـه بشـيء، فاسـتمهلته بعـض الوقت و فكـرت قليـلاً فوجـدت نفسـها تلقائيًّـا تتصـل (بنـواف)، ولـم يـرد عليهـا أول مـرة فأخـذت تعيـد المحاولـة في إصـرار وهـي تقـول :

- ليس هذا أبدًا وقت دلع الحريم و التظاهر بالغضب.

وانتبهت لنفسها في ذهول؛ ما هذا الذي أقوله؟

وأخيـرًا رد عليهـا (نـواف)، وبـدون مقدمـات شـرعت تشـرح لـه الحكايـة فـرد عليهـا (نـواف) في سـخرية:

- أراكِ تحتاجين إليَّ يا سيدة الأعمال، أنا لم أفعلها من قبل.

صاحت في وجهه:

- (نـواف)؛ ليـس هـذا وقـت الكيـد والتشَـفِّي، لا تنـس أنهـا أموالـك أنـت.

رد في سخرية:

- أموالي؟ أنا الآن حَرَمِك المصون الذي لا وظيفة له إلا إرضاع ابنتنا و انتظار عودتك بعد شهر لأُقَدِّم لكِ طستًا من الماء الساخن لقدميكِ المتعبتين من السفر.

- (نواف) كف عن هذا وأخبرني قرارك.

وجدها (نواف) فرصة للتفاوض فقال:

- حسنًا سأساعدِك على أن تعودي غدًا إلى الرياض.

- أقول لك شيئًا؛ سأتخذ أي قرار وليكن ما يكون، مع السلامة...

- انتظري انتظري، حسنًا سأخبرك و لكن على الأقل أعيدي لي السائق والسيارة واسمحي لي بالخروج من هذا السجن.

- هل أدركتَ الآن أنه سجن؟

- ليس هذا وقت العتاب يا (نوف).

- ما الذي يجبرني على التفاوض مَعَك؟ قل لي ماذا يجبرني؟ إنها أموالك أنت وأنت من ستخسر.

- على الأقل أنتِ لا تريدين أن تبدئي تجربتك في العمل بالفشل، وثِقِي أنها لن تكون آخر مرة ستحتاجين فيها مشورتي، بل لعل هذا الذي تسألين عنه الآن هو الحلقة الأسهل في سلسلة مشاكل عالم الأعمال.

أدارت (نوف) الكلام في رأسها فوجدته مقنعًا فقالت:

- حسنًا سأعيد لك السائق والسيارة.

وأخبرها (نواف) بما ينبغي أن تفعله، وما تحتفظ به من عقارات، وعقارات أخرى تتوقف عن دفع أقساطها و تتنازل عن أقساطها السابقة، ولكن تعيد شراءها من جديد بالسعر الجديد فيكون المجموع أرخص من الاستمرار في دفع أقساطها الأولى.

أنهت (نوف) كل ذلك و استلمت أوراق التذاكر و الحجوزات من السكرتيرة التي ارتاحت لها لمَّا أحست بحاسة الأنثى أن علاقتها (بنواف) لا تتعدى علاقة العمل، وأسرعت إلى البيت تُعِدُّ حقيبتها وتَعَمَّدَت أن تودع (كوليت) بشكل بارد والتي تفاجأت بسفر (نواف) المفاجئ هذا.

كانت تتمنَّى أن ترمي عليها يمين الطلاق لكنها تعرف أنها لا تملك هذا الحق شرعًا، كما أنه زواج مدني بين مسلم و مسيحية وله إجراءاته المختلفة التي تَمَّت في قبرص أصلاً وليس في لبنان...ستؤجل موضوع الطلاق هذا لفرصة أخرى، خصوصًا أن (كوليت) وهي تُقَبِّلها مودعةً بحرارة - برغم جفافها معها - أحست في قبلتها بطعم لذيذ أعادت لها بعض ارتباكها الجنسي السابق.

●●●

شرعت (نوف) في رحلتها و كأنَّها طائر حبيس هرب من قفصه، لكن ما عَكَّر عليها مزاجها ذلك الإحساس الذي تولَّد عندها بحاجتها

إلى (نواف)، فلكي تعيش مكانه فعليها أن تقوم بعمله، كانت تظن الأمر سهلاً وكانت تضيق فيما مضى بكثرة المكالمات التي تنهال على (نواف) وهو معها، وتظن في الأمر عناصر نسائية والحجة هي الشغل، وها هي الآن تحل محله و ترى أن حياة رجال الأعمال ليست بالنعومة التي كانت تتخيلها، إنما هي المعنى الحقيقي لكلمة الصداع المزمن، وهاهي تضطرّ للرجوع إليه في بعض القرارات و (نواف) – ككل رجال الأعمال – مفاوض بارع لا يُفوِّت الفرصة لتحقيق أي مكاسب، لكنها ما زالت الأقوى، صحيح أنَّها لا تريد أن ترى نفسها فاشلة – كما فطن (نواف)– لكنه أيضًا لن يترك أعماله لتخسر و سيتدخل رغمًا عنها ولو في اللحظة الأخيرة.

طردت (نوف) الأفكار السلبية عن رأسها فلا مجال لشيء يعكر عليها صفو رحلتها و برنامجها الدَسِم جدًا...هي الآن في طريقها إلى أمستردام عبر فترة توقف لثلاث ساعات في مطار إسطنبول، ستقضي يومين في أمستردام التي لم تزرها من قبل، و لن تخترقها هذه المرة أعين المتطفلين أو الرافضين لعباءتها الخليجية كما كان يحدث معها أحيانًا في بعض المدن الأوروبية أو الأمريكية، فهي الآن رجلٌ يرتدي ثيابًا أوروبية ومن أفضل الماركات أيضًا.

لم تكن تعلم أن هذه الثياب الفاخرة ستجعل فتيات منطقة (الضوء الأحمر) في أمستردام التي دخلت أحد شوارعها بطريق المصادفة، يلاحقنها في إصرار فتضطر للإسراع في الخروج من هذا الشارع، إنَّها وإن تدفقت الدماء الحارة في جسدها الذكوري بسبب هؤلاء الفتيات إلا

أنَّها (كنوف) كادت أن تتقيَّأ منهن ومن فكرة أن تبيع فتاةٌ لحمها بهذا الرخص، وشعرت بالخجل لبنات جنسها لكنها سحبت هذا الغضب إلى الرجال أيضًا الذين في رأيها لولا شبقهم الحيواني واستغلالهم لحاجة هؤلاء النساء إلى المادة ما عَمِلْن في الدعارة.

ومن أمستردام طارت إلى ميلانو، يقولون أنها هي عاصمة التسوق في إيطاليا وليست روما التي زارتها من قبل، لكنها احتارت ماذا تتسوق بالضبط؟ هل هي الآن رجلٌ أم امرأة؟ هل تتسوق كامرأة فتشتري ما لا يلزمها؟ أم كرجل فتشتري ما لا يعجبها؟ وفي النهاية قررت أن تكتفي ببضع هدايا تذكارية من كل مكان تزوره وببعض الهدايا الجميلة لصغيرتها (أسيل)، وأن تقاوم غريزة التسوق الأصيلة فيها كأنثى.

وبعد يومين قضتهما في التسكع في ساحة الدومو في ميلانو، وبالتمتع بالأكل الإيطالي استقلت القطار لثلاث ساعات إلى فلورنسا حيث مظاهر الحياة الكلاسيكية، و آيات المعمار وأبيات الفنّ التشكيلي تُعرض على أرصفة الشوارع و الأزِقَّة من قِبَل رساميها...

ومنها ساعة واحدة بالقطار إلى مدينة بيزا لتقضي يومها وهي تحاول استعدال وضع برج بيزا - في الصور فقط بالطبع - ولمَّا باءت محاولاتها بالفشل استقلت القطار إلى فيرونا؛ حيث الهدوء والكلاسيكية من جديد و قنوات المياه ومنزل جولييت بطلة مسرحية روميو وجولييت، وبالطبع التماثيل والنوافير المنتشرة في كل مكان، لا ينافسها في انتشارها إلا المطاعم، ولأول مرة منذ سنوات تأخذ راحتها في تناول الطعام و لا تحاذر على مقاسات جسدها و تناسقه، وللمرة - لا

تدري كم - تحسد الرجال على أجسادهم الأقل قابلية في زيادة الوزن من أجساد النساء.

ولم تفكر في زيارة فينيسيا ولا بحيرة كومو؛ ماذا ستصنع في هذه الأماكن الرومانسية و هي امرأة وحيدة، تقصد رجلاً وحيدًا ، أيًّا ما كان جنسها فقد تجنَّبَت السفر إليها، و جعلها التفكير في هذه الأماكن الرومانسية تشعر بالحنين يدب في قلبها إلى رؤية (نواف) حتى و إن كان في جسدها هي (كنوف)!

ومن فيرونا استقلت القطار لتعبر به الحدود إلى ألمانيا، و نامت معظم الرحلة التي استمرت لـ ٧ ساعات حتى هبطت في محطة ميونخ؛ لتعود إلى الصخب من جديد الذي كانت قد ودَّعَته في مدينة ميلان، ولتستمتع بجمال الشوارع وبالمطاعم و السهرات، و لتهرب من جديد من مطاردة فتيات المتعة لها؛ هذه البلاد الغنية لماذا تتواجد الدعارة وصناعة البورنو فيها أصلاً؟ تساءلت (نوف) في نفسها.

وأحَسَّت بالألفة في ميونخ من كثرة وجود العرب والمحلات المزينة بلافتات عربية، وجرَّبت تدخين الشيشة على الملأ بعد أن كان ذلك يقتصر على الجلسات الحريمي المغلقة في الرياض، وكان (نواف) لا يسمح لها بتدخينها أمام الناس حتَّى في رحلاتهم السياحية إلى الخارج، وأدركت وجهة نظره وهي ترى الفتيات و النساء اللاتي يُدَخِنَّ الشيشة حولها في المقاهي؛ فقد أحسَّت - و هي رجل - كم أن نظرة الرجل للمرأة وهي تشرب الشيشة - في أحسن أحوال هذه النظرة احترامًا - هي نظرة تخلو من التقدير.

ومـن ميونـخ الألمانيـة إلـى سـالزبورج النمسـاوية في رحلـة لثـلاث سـاعات بالقطـار، وهـا هـي تعبـر الحـدود الدوليـة بالقطـار للمـرة الثانيـة، وتسـاءلت مـن الـذي صنـع هـذه الحـدود؟ كيـف تغيـرت خريطـة تلـك الـدول أكثـر مـن مـرة، ومـا كان دولتـان مـن قبـل صـار الآن دولـة واحـدة، ومـن كانـت دولـة موحـدة انقسـمت إلـى دولتـين أو أكثـر، ولمـاذا الحـدود خطـوط متعرجـة؟ لمـاذا لـم يجعلهـا راسـموها خطوطًـا مسـتقيمة، ولـم تُصَـدِّق وهـي تطالـع تلـك البقـاع السـاحرة النائمـة في روعـة و هـدوء أن هـذه الأراضـي شـهدت قرونًـا طويلـة مـن المذابـح و مـن الهمجيـة، ومـن الحـروب القَبَلِيَّـة والعِرْقيـة والدينيـة.

الجمـال والرومانسـية في النمسـا تختلـف، و بيـت (مـوزارت) هـو المَعْلَـم الأهـم في سـالزبورج رغـم أنَّـه بيـت عـادي، لكـن النـاس هـي مـن تصنـع قيمـة للأشـياء، وأثـرى أثريـاء أوروبـا بـل و العالـم لا يتذكرهـم أحـد بعـد موتهـم بـل ربمـا ولا حتَّـى ورثتهـم، بينمـا يتذكـر كل العالـم (مـوزارت) الـذي مـات فقيـرًا ويحجـون إلـى بيتـه رغـم بسـاطته.

واختتمـت رحلتهـا الأوروبيـة في فيينَّـا عاصمـة السـحر والموسـيقى في أوروبـا و الرابضـة فـوق نهـر الدانـوب، و التـي برغـم كل مـا فيهـا مـن جمـال لـم تمنـع (نـوف) مـن الإحسـاس بالملـل يتسـرب إليهـا...

لـم تظـن أنَّ إحسـاس الوحـدة سـيضربها بهـذه السـرعة، كانـت تعتقـد أنَّهـا سـتصادف في جولاتهـا – كمـا سـمعت مـن قبـل – مسـافرين آخريـن وحيديـن أيضًـا و يقضـون علـى إحسـاس الوحـدة بالتعـارف علـى بعضهـم ومشـاركة الرحلـة، و هومـا لـم يحـدث إلا مـع سـيدة أربعينيـة اكتشـفت

(نوف) أنها كانت تريد إضافة بند السياحة الجنسية إلى بنود السياحة الأخرى، وبعد أن تخلَّصت (نوف) منها لم تجد من له - أو لها – نفس خريطتها السياحية.

قررت (نوف) الاكتفاء بهذا القدر من القارة الأوروبية وطارت إلى أقصى الشرق في خطة تطمح إلى زيارة تايلاند وماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة، ما بين التجول في المدن الكبرى هناك و بين ارتياد الطبيعة الاستوائيَّة الخلابة الساحرة.

وهبطت بها الطائرة مطار بانكوك بعد أن استبدلت الطائرة أكثر من مرة، ولم تكن تحسب أن ملامح (نواف) الخليجية وبملابسه الفاخرة سيجعلانها عرضة للمطاردات من بائعات الهوى في كل مكان ترتاده وليس في منطقة بعينها كما حدث معها في أمستردام أو ميونخ، ليلة واحدة وفرَّت من بانكوك إلى جزيرة بوكيت و هي تحس كأنَّ سُعَارًا جنسيًّا قد ضرب العالم! وآوت إلى الفندق الفاخر واستمتعت بالشاطئ الساحر بغير قيود هذه المرة على جسدها الأنثوي وبدون ذلك السؤال الذي كان يعكر دائمًا صفو كل رحلة شاطئية سابقة: أين سأستمتع بالسباحة؟

لكنَّها وما أن آوت إلى فراشها الوثير ليلاً حتَّى أحست بكل معاني الضيق والملل والضجر الطفش، وفتحت هاتفها – الذي هو هاتف (نواف) في الأصل - وأخذت تُقَلِّب في صوره وصورها معه، وانسابت دموعها عندما صادفت صورهما مع (أسيل)، وفي صباح اليوم التالي كانت تتصل بالمكتب السياحي؛ لقد قررت التَخلِّي عن حلم زيارة

مدغشـقر وعـن النسـناس، وطلبـت منهـم تدبيـر أسـرع عـودة لهـا إلـى الريـاض!

●●●

(٢٠)

مـاذا كنـت سـتصنع يـا (نـواف) لـو لـم ينجـح تفاوضـك مـع (نـوف) وتخـرج منهـا بعـودة السـيارة والسـائق؟ هكـذا سـأل نفسـه.

لقـد مضـى عليـه ثلاثـة أيـام وهـو حبيـس هـذا القصـر كاد أن يُجَـن خلالهـم، كيـف كان سـيتحمل شـهرًا كامـلاً كمـا قالـت لـه (نـوف)؟ أخيـرًا سـيصل السـائق غدًا وسـيتمكن مـن الخـروج، لقـد صنـع كل مـا يكسـر الملل خـلال هـذه الأيـام الثلاثـة فأبـى الملعـون أن ينكسـر، الإنترنـت والفضائيـات يكسـرون الملـل لكـن لعـدد محـدود مـن السـاعات بعدهـا تمتلـئ ضجـرًا منهمـا معًـا.

التواصـل الإنسـاني لـه معنـىً آخـر، ولكـن مـع مـن؟ لـم يسـتطع بالطبـع أن يهاتـف أحـد أصدقائـه الشـباب، صحيـح أنـه جاءتـه مكالمـات كثيـرة لكـن كلهـا كانـت (لنـوف)، مكالمـة واحـدة منهـن كانـت كفيلـة بـأن يسُـب الهاتـف ويسُـب مـن اخترعـه بـل ويسُـب نفسـه علـى تورطـه في هـذه المكالمـة، سـاعة ونصـف - ٩٠ دقيقـة - مـن الحديـث العدمـي في مائـة موضـوع مختلـف يربـط بينهـم اللاشـيء، حتَّـى أحس بعدهـا أن سـماعة الهاتـف قـد التصقـت بأذنـه ومجموعـة مـن الحداديـن يعملـون بمنتهـى النشـاط داخـل رأسـه، حتـى قـرر بعدهـا ألا يـرد علـى أي هاتـف يهاتفـه، فقـط سـيجيب علـى اتصـالات (نـوف) التـي كان يتجاهلهـا في الماضـي، أمـا الآن فهـي لا تتصـل بـه إلا كـي يتـدارك مشـكلة مـن مشـاكل العمـل.

وما كادت دماغه تتعافى حتَّى حلَّ المساء وحلَّ معه خبر لا يقلُّ إزعاجًا؛ مجلس من قريباته وقريبات (نوف) و صاحباتها قرَّرن التجمع الليلة عند (نوف) أي عنده هو، قال لنفسه مُعَلِّلاً لعلها فرصة ليتعرف عما يدور في مجالس النساء بعيدًا عن حضور الرجال، وكانت فرصة لا أعادها الله!

ست ساعات من العرض المتواصل حتَّى كاد يُجَن؛ عشرون امرأة يتحدثن في أربعين موضوعًا في آن واحد و ليس بينهم موضوع واحد له أي أهمية عنده، وجميعهن لديهن القدرة على استيعاب كل تلك المواضيع معًا حتَّى استغربن (نوف) وسطهن و لاحظن أنَّها لا تجاريهن في أحاديثهن، وكل فترة يتعلل بالذهاب إلى الحمام أو لمراقبة (أسيل) ومربيتها بينما هو يذهب للصراخ تنفيسًا للصداع ثم يعود إليهن لاستكمال حفلة التعذيب من جديد.

صحيح أنَّ بعض جلسات الرجال تمتد لساعات لكنها تدور ما بين نكتة و بعض أدوار لعبة البلوت و أحاديث متفرقة في موضوعات مهمة كالسياسة و المال و الرياضة، و تتخللها فترات من الصمت الجميل تعيد فيها ترتيب رأسك يا (نواف)...كيف ستقضي هذا العام مكان (نوف)؟

وأخيرًا جاء السائق و جاء معه تصريح بالإفراج و الخروج، وبعد ساعتين من الارتباك تمكن(نواف) أخيرًا من ارتداء ملابس (نوف) للخروج وضبط عباءتها وطرحتها، ومضى لركوب السيارة وهو يشعر بخجل شديد من ثيابه تلك والخروج بها على الملأ وكأنَّ الناس سيعرفون أنَّه (نواف) في جسد (نوف)، و مضت السيارة تقطع به شوارع الرياض،

واسـتغرب السـائق حـين طلـب منـه (نـواف) أن يخـرج بـه إلـى الطريـق الدائـري.

- أين تريدين الذهاب يا عمتي؟

- فقط اسلك الدائري.

ومضـت السـيارة تنهـب بهمـا الطريـق الدائـري السـريع والسـائق يسـتغرب مـن هـذا الطلـب الـذي لـم يسـبق للسـيدة (نـوف) أن طلبتـه، و يتوقـع كلمـا اقتربـوا مـن أحـد مخـارج الدائـري أن تطلـب منه(نـوف) سـلوك ذلـك المخـرج ثـم لا يلبـث أن يصـاب بالإحبـاط و السـيارة تتجـاوز ذلـك المخـرج، ومضـت السـيارة تمـرُّ بالمخـارج أمـام عينـي السـائق حتَّـى قـرر الاكتفـاء بتسـلية نفسـه بترديد أرقـام المخـارج في ذهنـه مـع لوحـات أرقامهـا التـي تمـرُّ أمـام عينيـه، وبـدأ السـائق يتوقـع أنَّـه سـيكون يومًـا طويـلاً يقضيـه بـين الطـرق الدائريـة الأربعـة حـول الريـاض؛ شـمالها وجنوبهـا وشـرقها وغربهـا.

وفجـأة حـاذت السـيارة سـيارة أخـرى يسـتقلها شـابَّان اللـذان مـا إن لمحـا امـرأة في المقعـد الخلفـي حتَّـى قـررا أنَّهـا صيـد محتمـل، ورفـع الشـاب الـذي بجـوار السـائق لوحـة فيهـا رقـم هاتفـه الجـوال، وأحـس (نـواف) بالغضـب يجتاحـه ولكنَّـه قـرر أن يتمالـك نفسـه ويَمَّـم وجهـه بعيـدًا عـن سـيارة الشـابَّين، فقـرر الشـابَّان اسـتعراض قدرتهمـا علـى السـماجة وأخـذ قائدهـا يتراقـص بسـيارته بجـوار سـيارة (نـواف) مقتربًـا منهـا ومبتعـدًا عنهـا في حـركات زجزاجيـة خطـرة، و بـدأ الارتبـاك يظهـر علـى سـائق سـيارة (نـواف) فقـال و عـرق التوتـر يتفصـد بـه جبينـه:

- ماذا سنصنع يا عمتي؟

- اهـرب منهـم، زد سـرعتك قـدر مـا تسـتطيع واخـرج مـن الدائـري مـن أقـرب مخـرج.

وعبثًا حـاول السـائق فعل ذلـك، فاسـتمر الشـابَّان في ملاحقـة سـيارة (نـواف) ومتابعتهـا وملاصقتهـا في حـركات جنونيـة، وبـدأ (نـواف) يشـعر بالغليـان يجتاحـه ويقـول لنفسـه: لـو حـدث ذلـك وأنـا مـا زلـت (نـواف) لأطلقـت عليهمـا الرصـاص مـن مسدسـي، و لكـن مـن كان سـيهتم أصـلاً بمعاكسـة سيارة يركبها رجل؟ ثم بـدأ الغضب يتحـول عنـد (نـواف) إلـى نـوع مـن الخـوف بعـد أن زادت جـرأة الشـابَّين ؛و بـدوا كأنهمـا يحـاولان اضطـرار سـيارة (نـواف) إلـى التوقـف، وبـدأ الرعـب يتسـلل إلـى قلـب (نـواف) والاحتمـالات السـوداء تتقافـز إلـى مخيلتـه، وفجـأة أطلقت سيارة الشـابَّين لنفسـها العنـان بعـد أن لمـح قائدهـا سـيارةً للشـرطة في مـرآة سـيارته، وتحولـت المطـاردة إلـى سـيارة الشـرطة وهـي تلاحـق سـيارة الشـابَّين .

وتنفَّـس (نـواف) الصعـداء وأمـر سـائق السـيارة بسـلوك أقـرب طريـق للعـودة إلـى الفيـلا، و تذكـر في خجـل بعـض المـرات التـي حـاول فيهـا - أيـام طيـش الشـباب - أن (يرقِّـم) بعـض الفتيـات ويُملـي عليهـن رقـم هـاتفـه أو يلقـي ذلـك الرقـم في ورقـة إليهـن، لكنـه لـم يكـن ليجـرؤ أبدًا علـى مطاردتهـن بهـذه الطريقـة الوقحـة، وبـدأ إحسـاس الخجـل لديـه يتحـول إلـى إحسـاس بالرضـا؛ لقـد كنَّـا مهذبـين حتَّـى في شـقاوتنا!

وبعد أن تمالك أعصابه قرر ألا يُفسد عليه يومه الذي انتظره، وعدل عن العودة إلى الفيلا وأمر السائق بالذهاب إلى أقرب مركز تجاري (مول)، واسترخى في مقعده الوثير و أغمض عينيه حتى نبَّهه السائق إلى وصولهما، فنزل (نواف) عند بوابة المركز ومضى إلى داخله، وبدأ إحساس الإحراج يتسلل إليه ثانية من ملابسه النسائية، ولم تخلُ النظرات من ابتسامات أو غمزات من بعض الرجال، ولكن الأغرب كانت نظرات النساء التي بدت و كأنها تتفحصه و تُدقق في كل تفاصيله، وبعض النساء لديهن القدرة على التفحص من الرأس إلى الحذاء في نظرة واحدة شمولية.

ظنَّ (نواف) أن في ملابسه شيء ما مُلفت أو أنه لم يُحسن هندام ثيابه النسائية التي لم يعتدها، ووقف أمام أكثر من مرآة حتى يتأكد أن كل شيء على ما يرام، وبدأ (نواف) يشعر بالضيق والتوتر من هذه النظرات - نظرات النساء قبل نظرات الرجال، وبدأ يضيق بالمركز التجاري كله خاصةً أنه ليس من هواة التنزه في المراكز التجارية، فقرر العودة إلى المنزل والاعتناء (بأسيل) بدلاً من المُرَبية.

●●●

(٢١)

بعد أيام قليلة من عمله الجديد كسائق توكتوك أدرك (جوزيف) أنَّ الفارق بين الحياة في بلد والعمل فيها، وبين أن يسافر إليها كسائح هو مثل الفرق بين أن يسافر لزيارة مكان وبين أن يقرأ عنه ويشاهد صور معَالِمه.

لقد كان يظن نفسه صاحب خبرة في البلدان التي يزورها؛ لأنه لا يكتفي بزيارة الأماكن السياحية و إنما يتجاوز ذلك إلى التجوال في أعماق هذه البلدان أحيائها الداخلية واستعمال مواصلاتها العامة، لكنه اكتشف أنه يكاد يُشبه ذلك الرَحّالة الذي زار مصر قديمًا ووصف أحياءها في كتابه، واستغرب أن المصريين يحرسون بيوتهم بالخِرَاف التي رآها مربوطة على أبواب بيوتهم، ولم يسأل ليعرف أنها خِرَاف أضاحي يوم عيدهم الأكبر!

تعلَّمَ (جوزيف) في يوم عمله الأول ما لم يتعلمه في أسبوعين قضاهما سائحًا في مصر من قبل، لكنه ذلك التعليم القاسي الذي يقرص الأذن و يصفع الخَدّ كي يكون درسًا لا يُنسى أبدًا.

مارَس الحياة التي تجعل صاحبها يحسب حساب كل خطوة ويتوقع أية مشكلة في أية لحظة و يتعاهد عيناه أنها دائمًا وسط رأسه...

الحياة التي ليس فيها رفاهية التأمُّل وشرود الذهن إلا فيما يحيط به من مشاكل...

الحياة التي تذكره بالنعمة التي أَلِفَها والمعيشة المُرَفَّهة التي اعتادها حتى لم يعد يحس بوجودها...

انقطاع الكهرباء مثلاً عن البيت بسبب أحمال زائدة لم تُصَمَّم مرافق البيت لتَحَمُّلِها، أو قطعها من شركة الكهرباء لأعمال صيانة؛ فيجب الحذر عند عودتها أنها قد تحرق أجهزة المنزل الكهربائية...

قرار مفاجئ لأحد رجال الشرطة أنَّ شكله لا يروق لمزاجه، ويكون هو المُطَالَب بتغيير ذلك المزاج رغم أنه لم يقترف شيئًا وكل أوراقه سليمة...

استهجان سيارة نصف نقل لمزاحمة ذلك التوكتوك لها في الشارع المزدحم أصلاً، وتحول ذلك الاستهجان أحيانًا إلى رد فعل يضطره إلى إيقاف التوكتوك قبل انسحاقه بين سيارتين...

وشخص غريب الشكل وطريقة الكلام، ويطلقون عليه لقب (بعليكة)، و عبثًا حاول (جوزيف) أن يجد ترجمة لهذا الاسم في قاموس اللغة العربية في دماغ (يوسف) فلم يجد سوى أنها أسماء شُهْرة كُلَّما زادت غرابتها كُلَّما زادت رهبتها وتأثيرها في نفوس من يسمعها، لكنه فهم من ذلك الـ (بعليكة) أنه في حمايته – هو وغيره من سائقي مركبات الأُجرة في المنطقة – ولكن حمايته هذه لها ثمن يدفعه إذا أراد الخروج بالتوكتوك خارج حدود حارته وإلا فإنَّ عليه تحمل مسئولية نفسه وسلامة مركبته...

هـذا غيـر خوازيـق الشـوارع الثابتـة و المتحركـة والطائـرة والتـي عليـه تفاديهـا أثنـاء القيـادة.

البيـوت بُنِيَـت لتكـون موطنًـا لراحـة النـاس بعـد عنـاء اليـوم الطويـل المُتْلِف للأعصـاب، لكـن هنـاك مـن يحلـو لـه السـهر المتأخـر، وآخـر يسـتيقظ مـع العصافيـر، وكلاهمـا يحـب أن يشـاركه جميـع الجيـران في نشـاطاته...

لا مواعيـد عنـد النـاس هنـا لأعمـال الصيانـة المنزليـة والتكسـير، ولا حـرج علـى أحـد في مكبـرات الصـوت في أي وقـت.

ذلـك الجـار المدعـو (أبـو سـهير) برغـم أنـه لـم ينجب؛ لـو كان عندنا في أمريكا لأودع السـجن و لخضـع لبرنامـج إعـادة التأهيـل- قـال (جوزيـف) لنفسـه...

كائـن لـزج ضخـم الجثـة و الكـرش وعاطـل تحـت مُسَـمَّى المعـاش المُبَكِّـر برغـم أنـه لـم يبلـغ الخمسـين، ولا وظيفـة لـه سـوى عـراك زوجتـه صباحًـا واسـتضافة أصدقائـه في جلسـات الحشـيش مسـاءً، ولا حـدود لصوتـه الأجـش المنفـر في الحالتـين، و لا يتوقـف جهـاز تسـجيله الـرديء عـن الصـدح بأعلـى صوتـه بأقبـح الأغانـي الشـعبية.

كائـن لـو عـاش في الصحـراء لفـرَّت منـه الثعالـب و العقـارب، والغريـب أن سـكان البيـت يتعايشـون مـع الوضـع مـن منطـق اصبـر علـى جـار السـوء، والحقيقـة أن أحـد السـكان المحترمـين حـاول لفـت انتباهـه بلطـف ذات مـرة فعـاد إلـى شـقته وقـد فقـد جـزءًا كبيـرًا مـن ذلـك الاحتـرام ومـن كرامتـه.

يكاد يبكي (جوزيف) كلما تذكر أنَّ عليه البقاء على هذا الحال الجديد لمدة سنة كاملة...وسط هذا المزيج الخرافي من الضوضاء والزحام و التلوث بأنواعه المختلفة.

أضاف (جوزيف) بند المياه المعدنية إلى ميزانية (يوسف) المرهَقَة أصلاً، وتحايل لتخفيف هذا البند بشراء عبوات المياه الكبيرة المُعَدَّة للاستخدام في مبردات الماء لكن بدون شراء هذا المبرد بالطبع.

لا يريد أن يفكر أن هذا الحال قد يصير حاله الدائم لو قرر (يوسف) البقاء في أمريكا مكانه، ويَطْرُد بإصرار أي تفكير منطقي يؤكد أن (يوسف) سيختار ما سيختاره أي عاقل مكانه.

إنه يشعر أنه لم يُطْرد فقط من جنة حياته المترفة السابقة، بل طُرِد أيضًا خارج العقل و المنطق اللّذين كان يعيش حياته في إطارهما...

اكتشف أن المنطق الوحيد في معظم تصرفات الناس حوله هو أنهم يتصرفون عادة باللامنطق، لم يفهم إصرار الكثيرين على السير بمركباتهم عكس اتجاه السير بل و تكون لهم الأولوية في المرور، استغرب أنَّ سائقي الأجرة هم أكثر السائقين مخالفة لقواعد المرور رغم أنهم المفترض أن يكونوا هم الأكثر حرصًا على هذه القواعد، أما ما يفعله زملاؤه سائقي التوكتوك فكانت في نظره مهارات فائقة لعاملين في السيرك وليست قيادة مركبات أجرة.

في البداية كان يظن أن بعض لوحات السيارات تُزين بالنسور أو بالموازين كي تكون نموذجًا يتبع في أصول القيادة أو رادعًا لمن حولهم

مـن المخالفـين، لكنـه اكتشـف أن هـذه الرمـوز إنمـا هـي صـك أمـان و حمايـة وتصـريح لهـم بالقيـادة كيفمـا شـاءُوا.

الشـيء الـذي أثـار دهشـته فعـلاً هـو قـدرة بعـض النـاس علـى الجمـع بـين خفـة الظـل العاليـة مـع ملامـح الوجـه التـي تحمـل تعابيـر الحـزن والألـم والقـرف معًـا.

وكثيـرًا مـا تسـاءل؛ لمـاذا النـاس ودودون جـدًا وعدوانيـون للغايـة في تعاملاتهـم في نفـس الوقـت؟ كيـف يخلعـون قنـاع ملامـح الحـزن والتقـزز مـن علـى وجوههـم إلـى قنـاع الابتسـام و السـرور عندمـا يصادفـون مـن يحبونهـم ثـم يعـودون لقناعهـم الأول فـور نهايـة هـذا اللقـاء؟ لمـاذا يجـد مظاهـر الثـراء الواضـح مـع مظاهـر الفقـر المدقـع في نفـس الشـارع أحيانًـا؟

●●●

أكثـر مـا كان يغيـظ (جوزيـف) هـو موقـف سـيارات الأجـرة القريـب مـن منزلـه، وبرغـم أنـه المـكان الـذي يرتكـن إليـه بمركبتـه و يبـدأ منـه جـولات عملـه إلا أنـه لـم يهضـم أبـدًا هـذه العشـوائية والهمجيـة التـي تحكـم ذلـك الموقـف...

- ما علاقة أكل العيش بالهمجية و بتنغيص حياة الناس؟

هكذا كان يتساءل...

الـدوران الواسـع في الشـارع والـذي صمـم لضمـان انسـيابية المـرور جعلـه سـائقو سـيارات الأجـرة و بلطجيـة الموقـف ضَيِّقًـا تمـر منـه سـيارة واحـدة بالكاد...لمـاذا؟

سائقو الأجرة و برغم أن هؤلاء البلطجية يقاسمونهم في أرزاقهم إلا أنهم - لا أقول مستسلمون لهم - بل يصادقونهم وكأن هذا هو الطبيعي...لماذا أيضًا؟

يبدو أنه التأقلم مع الخوف، ولربما لو نجحت شرطة المرور في مفاجأة هذا الموقف في إحدى حملاتها لانضبط الوضع، لكن هذه الحملات لا تنجح أبدًا، ودائمًا ما يكون الموقف على دراية بهذه الحملة قبل مداهمتها، فتأتي الحملة وكل شيء على أتم ما يرام ولا تمر ساعة بعد انصرافها إلا وتعود الفوضى لتفترش المكان.

ولاحظ (جوزيف) وجود ناضورجية يحذرون سائقي الموقف وبلطجيته قبل عمليات المداهمة، وبرغم أنه في زيارة سخيفة لمدة سنة يقضيها على مضض إلا أنه قرر التصرف بإيجابية، فحفظ شكل الناضورجية وأسمائهم وقرر إبلاغ أحد رجال شرطة المرور عنهم، وبالفعل اهتم الشرطي بكلامه وأخذ منه الأسماء وتفهم موقفه أنه يخاف من تقديم بلاغ رسمي ووعده باتخاذ اللازم وشكره على إيجابيته.

وأحس (جوزيف) بالارتياح و بالفخر لموقفه، وها هو يعود لاستكمال جولات رزقه ويرمق سائقي الموقف و ناضورجيته بطرف عينيه في تَشَفٍّ...لن تلبثوا إلا أن تتعلموا الأدب عما قريب...

- أنت يا ولد يا (يوسف)!

بهت (جوزيف) عندما سمع هذا النداء من ذلك ال (بعليكة) والذي يفرض سطوته على الموقف، حاول أن يتجاهله وكأنه لم يسمعه؛ لكنه فوجئ بمن يقفز داخل التوكتوك وبمن يسحبه خارجه وبآخر يأخذ بتلابيبه من قفاه و يقف به أمام ذلك البلطجي الذي ضحك ضحكة صفراء اللون وسوداء الأسنان و قال:

- ما هي عقوبة الواشي يا رجال؟ أنا أرتضي حكمكم في زميلكم.

وهنا أخذ سائقو الموقف الذين تحلقوا حوله يتصايحون في غضب:

نحرق مركبته...نربطه في التوكتوك و نسحله حول الحي...نترك المطواة ترسم له علامة مميزة في وجهه يتذكر بها جريمته للأبد...

فقال (بعليكة):

- حرام عليكم يا شباب، الأستاذ (يوسف) ابن ناس ومتعلم والرحمة حلوة.

ثم التفت إلى (جوزيف) وقال:

- أرأيت؟ لو تركتك لزملائك ماذا كانوا سيصنعون بك؟ هل أدركت الآن قيمة وجودي؟

احتقن وجه (جوزيف) بالدماء و توترت أعصابه حتى كاد أن تفلت منه أعصاب مثانته، فأكمل (بعليكة) و قال:

- لن أعاقبك على محاولتك الوشاية بنا فهذا أمر تافه لا يؤثر فينا، لكني سأعاقبك على غبائك...ألا تدري أيها الجحش الكبير أن

نصف سيارات الموقف يشارك في ملكيتها من ذهبت لتشي بنا عندهم؟ وفقط لوجود ضابط جديد متحمس في وحدة المرور فإنهم يسايرونه في خروج الحملات في انتظار أن ترتخي قبضته مع الوقت؟

- ماذا دهاك يا (يوسف)؟ ونحن من كنا نظن فيك الأخلاق!

هكذا صاح في وجهه أحد زملائه، فرفع البلطجي يده لأعلى كي يوقف همهمات السائقين وقال:

- ولأنها غلطته الأولى ولأننا لا نحب قطع الأرزاق فسوف نكتفي بعقاب خفيف.

ثم وجه كلامه (لجوزيف) وقال في هدوء:

- هيا اخلع!

بهت (جوزيف) و قال:

- أخلع ماذا؟

- اخلع ثيابك الخارجية و حذاءك.

تجمد (جوزيف) في مكانه ولم يصنع شيئًا فقال (بعليكة):

- إمَّا أن تخلع ثيابك الخارجية بيديك أو أجردك أنا من جميع ثيابك ثم أترك زملاءك يحرقون لك التوكتوك.

ووجد (جوزيف) التصميم في وجه (بعليكة) والحماس في أعين السائقين؛ فبدأ في خلع حذائه و قميصه وتردد قليلاً فأشار له

(بعليكة) بطرف مطواته أن يكمل فخلع بنطاله، وتعالت صيحات السائقين وضحكاتهم وصفافيرهم ؛ ما كل هذا الجمال يا (يوسف)، أتتزوجينني يا حلوة...

وحاول أحدهم تقبيله في كتفه فنفضه (جوزيف) بيده فرد عليه آخر باغتراف مؤخرته، فانطلق (جوزيف) ليعدو بعيداً عنهم، فاستوقفه (بعليكة) و قال له في صرامة:

- هذه مجرد قرصة أذن، و غداً تعاود عملك وإياك أن تتغيب، ونصف إيراد التوكتوك غرامة عليك لمدة شهر، هيا امشي من هنا.

ورفع يده لأعلى كأنه سيصفعه، فسقط (جوزيف) أرضاً ثم قام وأطلق لساقيه العنان وهو يبكي، ولم يتوقف إلا وهو يرتمي على فراشه وقد تجمدت دموعه من القهر.

وبكت أمه و(سارة) بكاءً حاراً له، وصُعق لما وجدهما يلومانه على وشايته، ودُهش أكثر لما وجد أصدقاء (يوسف) يواسونه ويلومونه مثل أمه وأخته.

وزادت دهشته في اليوم التالي لما دخل الموقف مطأطئ الرأس؛ فوجد السائقين بل و (بعليكة) يتعاملون معه ويمازحونه وكأنهم أناس غير من كانوا بالأمس.

إنه عامٌ من الجنون و اللامنطق في كل شيء.

ومع الوقت قرر (جوزيف) أن يتأقلم بأي شكل و أن يعتبرها تجربة ودراسة عملية لمادة لم يسبق له دراستها في الأنثربولوجيا الاجتماعية...

أن يعتبر نفسه و كأنه في رحلة سفاري شاقة لمدة عام...

أن يتخيل نفسه نجم من نجوم هوليوود و جاء لتصوير فيلم العمر الذي يحتاج لمجهود استثنائي ومعايشة لواقع السيناريو الصعب قبل التصوير...

لكن لا بد أن يدفع هؤلاء الأوغاد ثمن فعلتهم...لكن كيف وهو وحده بلا حول ولا قوة؟ لا بأس...ستأتي تلك الفرصة يومًا ما، لكن حتى يحين ذلك فعليه أن يتكيف مؤقتًا مع ذلك الحال حتى يحقق هدفه الحالي؛ سوف يعمل بجد عدة أيام حتى يستطيع جمع مبلغ معقول يشحن به هاتفه المحمول برصيدٍ كافٍ لإجراء مكالمة دولية طويلة!

●●●

(٢٢)

وقـف (يوسـف) تحـت شـلالات المياه المنهمـرة فـوق رأسـه وحـول جسـده مـن رشاشـات مخبـأة في سـقف الحمـام وفي حوائطـه، لكنـه لـم يكـن يسـتمتع أبـدًا بذلـك الحمـام الفاخـر الـذي لـم يسـبق وأن شـاهد مثلـه حتـى في الصـور، إنمـا كان يغتسـل صامتًـا و دمعـات تترقـرق في عينيـه حزنًـا علـى مـا اقترفـه، لـم يكـن يظـن أنـه سـيكون بذلـك الضعـف أمـام جمـال (سـوزانا)، لـم يكـن يتصـور أصـلاً أنـه يمكـن أن يقـف يومًـا أمـام جمـالٍ كهـذا و ينطـق هـذا الجمـال قائـلاً لـه هيـت لـك!

هـو لـم يتصـور ذلـك يومًـا لا مـن فتـاة جميلـة ولاحتـى متواضعـة الجمـال.

يـا (يوسـف الصديق)؛ أي قـوة ربانيـة كانـت عنـدك لتقـول معـاذ الله بينمـا الرغبـة تضطـرم في صـدرك، وأي هـوىً شـيطاني عصـف بي...قـال (يوسـف) لنفسـه.

كنت أستطيع ألاَّ أفتح البـاب أصـلاً و لكنـي ضعفـت وخدعـت نفسـي حـين قلـت لنَـرَ مـا شـأن هـذه الفتـاة و مـاذا تريـد مـن (جوزيـف) ثـم أصرفهـا قبـل حـدوث أي شـيء.

بـات (يوسـف) ليلتـه هـذه حزينًـا مهمومًـا، وفي صبـاح اليـوم التالـي رنَّ الهاتـف حامـلاً لـه اسـم (ويتنـي) و صورتهـا، الفضـول فقـط هـو الـذي دفعـه إليهـا ليعـرف مـاذا تريـد هـذه الفتـاة السـمراء مـن (جوزيـف) الأشـقر،

وانتهى به الأمر أن يعرف هو الفرق بين طعم (ويتني) الفتاة السمراء و (سوزانا) الشقراء.

وكما حدث بالأمس؛ فقد أظهر ندمه الشديد بعدها وبكى هذه المرة فعلاً وهو يتطهر من إثمه تحت شلالات مياه الحمام الفاخر.

وفي المساء قرر ألا يطلع عليه الصباح إلا وهو يغادر هذه الشقة التي تبدو وكأن صديقات (جوزيف) يتناوبن عليها في جدول مواعيد محددة لكل واحدة منهن.

فليستكمل رحلة (جوزيف) في الصعلكة حول العالم ، فها هو الآن مواطن أمريكي يحمل جواز سفرٍ أمريكي وهو الذي حاول في مصر الحصول على تأشيرة لدخولها و رُفض طلبه بالطبع، لذلك فليبدأ الآن في السياحة الداخلية أولاً، فها أنا أقيم - قال يوسف - فيكِ يا أرض الأحلام رغمًا عن قناصلة سفارتك الذين يظنون أنهم حاملوا مفاتيح جنتك.

وفي الصباح أخذ في حزم حقائب السفر؛ (جوزيف) هذا لديه كل شيء - قال (يوسف) لنفسه - حتى أنني بدأت أشعر بالإحباط أنني لن أتمكن من الحلم بامتلاك أي شيء جديد.

وتغافل (يوسف) هذه المرة عن الاتصال الذي جاءه من فتاة قال الهاتف أن اسمها (نيكول) و أنها جميلة أيضًا، لكن (يوسف) قرر الصمود هذه المرة؛ إن السقوط يبدأ عنده من أول كلمة آلو!

وتساءل (يوسف): من صاحب الذنب في هذا السقوط؛ هو أم (جوزيف)؟

بالتأكيد هو، صحيح أن الجسد جسد (جوزيف) و البنات جئن إلى (جوزيف) وليس إليه و لكنه كان صاحب الإرادة في السقوط.

ولكن ألا يتحمل (جوزيف) قسطًا من الذنب؟ أليس هو من ورَّث (يوسف) جسده وشقته وحياته المليئة بالصديقات و الخادنات؟

لكنه لم يورِّثك مبادئه ولا إرادته...فكر (يوسف).

لكن لو لم تكن هؤلاء الفتيات في حياة (جوزيف) لما جئن إليَّ بدون سابق معرفة، ولكان عليَّ لو أردت السقوط أن أسعى إلى الساقطات أو الصديقات بنفسي.

هل معنى كلامك أن من تُعرض له ساقطة في الشارع هو أقل إثمًا ممن يسعى إلى الساقطات في محالهن؟

وتدارك (يوسف) عقله بسرعة قبل أن تبحر أفكاره في زوارق الفلاسفة حول معاني الإرادة و الجبرية و الحرية، إنه لا يضمن بعدم رَدِّه على اتصال (نيكول) هذه أنها لن تقرر زيارته و الهبوط عليه بدون سابق موعد، ووقتها لن يشفع لك (سبينوزا) و لا (ديكارت) و لا حتى الإمام (الغزالي) - هكذا قال لنفسه و هو يسارع بالخروج من الشقة و يأخذ طريقه إلى المطار.

قـرر أن يطيـر إلـى لـوس أنجلـوس، و سـيركب كل مراجيـح! ملاهـي ديزنـي لانـد، ومنهـا إلـى نيويـورك وميامـي ولاس فيجـاس، كَلاَّ لا داعـي ل لاس فيجـاس؛ فهـو مـا زال مـن أنصـار مدرسـة الجبريـة في الإرادة و لـم يتجاوزهـا إلـى مدرسـة الإرادة الحـرة ليقـول لا للمغريـات.

وفي الطريـق إلـى المطـار بهرتـه شـوارع سـياتل التـي تضـارع في جمالهـا و نظافتهـا أجمـل مـدن أوروبـا التـي رآهـا في الصـور والأفـلام فقـط بالطبع...تسـتطيع أن تنـام علـى هـذا الرصيـف و يظـل قميصـك ناصـع البيـاض – قـال يوسـف لنفسـه.

وفي نيويـورك ذهـل لضخامـة المدينـة، كل مـا فيهـا ضخـم؛ شـوارعها عريضـة، مبانيهـا ديناصـورات عملاقـة، حتـى تماثيلهـا و نُصُبهـا التذكاريـة كأنمـا صنعـت لتُخَلِّد معانـي الضخامـة.

وقـاده الانبهـار إلـى أحيائهـا الداخليـة، ثـم بـدأت خطواتـه تتباطـأ والانبهـار يتراجـع عندمـا دخـل بعـض محطـات متـرو الأنفـاق فيهـا، وتحـول الانبهـار إلـى حـذر لَمَّا سـاقته قدمـاه إلـى بعـض شـوارع (هـارلـم) و (كوينـز)، وفي حـي (ذا برونكـس) دفـع ثمـن تهـوره و ثمـن اختيـاره لارتـداء ملابـس غاليـة الثمـن مـن ثيـاب (جوزيـف) في جولتـه تلـك، و اسـتوقفته إحـدى العصابـات في نهـار الظهيـرة، وحَمِدَ الله أنـه كان يحمـل عـدة دولارات أنقذتـه مـن تـذكار كان سيُرْسـم علـى وجهـه مـن سـكين أحـد أفرادهـا...هـو لـم يتهـنَّ بعـد بهـذا الوجـه الجميـل.

ولعَنَ الفلسفة هذه المرة لمَّا وجد عقله يتساءل عمَّن كان سيتأذى ومن كان سيشعر بالألم من ضربة السكين هذه؛ هو أم (جوزيف)؟

الآن عليه أن يكون طوال اليوم في نفس حالة الحذر التي يكون عليها في مصر بعد منتصف الليل.

وفجأة رنَّ المحمول في جيبه، واستغرب أنه لم تسرقه العصابة، لكنه تذكر أن هذا النوع من الهواتف و لأنه مرتبط بخدمة شركة الاتصال فإنه يصبح مجرد قطعة خردة إذا تمت سرقته.

نظر إلى الاسم؛ (أماندا)، وأسعفته الذاكرة التي في مخ (جوزيف)، إنها صديقته التي في نيويورك، رد عليها وهو يتساءل إن كانت تعرف أنه في نيويورك، وشعر بالغباء التكنولوجي لما أدرك أنها علمت بوجوده هناك لأن (جوزيف) يترك تطبيق تحديد المكان على هاتفه مفعَّلاً وموصولاً بمواقع التواصل، و منه عرفت (أماندا) أنه في نيويورك.

بعد تُمَنُّع بسيط قَبِل دعوتها له على الكافيه، وبعد تَمَنُّع أبسط قَبِل دعوتها له لتناول مشروب في منزلها... أخبرها أنه قد امتنع عن تناول الكحوليات وأخبرته هي أنها اشتاقت إليه!

●●●

(٢٣)

إذن فالأمـور لـم تختلـف كثيـرًا بالنسـبة ل (نـواف) بعـد توافـر السـيارة والسـماح لـه بالخـروج، المعانـاة تبـدأ معـه مـن فكـرة أن يرتـدي ثيـاب النسـاء وعباءاتهـن، والأماكـن المتاحـة لـه بالخـروج قليلـة، ونظـرات الرجـال والنسـاء التـي يحس وكأنها تخترقـه ليست أكبر مشـاكل الخروج، ورعايـة (أسـيل) لا يتحملها لأكثر من سـاعة أو سـاعتين ثم بعدهـا يدرك معنـى أن الجنـة عنـد أقـدام الأمهـات، والتجمعـات والزيـارات النسـائية كانت تجربـة غيـر سعيدة إطلاقًا عـلاوة على ما فيها من حـرج شـخصي لـه؛ إذ يتسـاءل هـل يحـق لـه التواجـد فيهـا أم لا؟

وفجـأة طـرأت ﻓﻲ ذهنـه فكـرة، لِـمَ لا يرتـدي ثيابـه هـو (كنـواف) ويحكـم تلثيـم وجهـه بغترتـه ويقـود سـيارته متلثمًـا كمـا يفعـل بعـض الرجـال أحيانًـا؟ وبالفعـل قـام و ارتـدى أحـد ثيابـه الفضفاضـة بعـد أن أحكم الصديرية حـول ثديـيّ (نـوف) ولثـم وجهـه و تسـلل مخافـة أن تـراه إحدى الخادمتـين أو مربيـة (أسـيل)، واختـار مـن مِرآب السـيارات سـيارته المفضلـة الرولـز رويس، وانطلـق يـدور بهـا ﻓﻲ شـوارع الرياض شـبه الخاليـة صبـاح يـوم الجمعـة.

وقفت إلـى جوار سـيارته ﻓﻲ إحدى إشـارات المـرور إحدى السـيارات، كيـف عـرف هـؤلاء الشـياطين أنـه امـرأة ﻓﻲ ثيـاب رجـل رغـم أنـه تعمـد ألا ينظـر ناحيتهـم؟

وانطلقت الصيحات والصفافير من أفواه هؤلاء الشباب، وفكر (نواف) بسرعة؛ سيارتهم فيها ثلاثة شباب ومحركها أقل قدرة بكثير من قدرة محرك سيارته، ما عليه إذن إلا أن يطلق العنان - فور فتح الإشارة - لهذا الوحش الرابض في هذا المحرك ليبتعد عن هؤلاء المشاغبين، وبالفعل فعل ذلك و لكن يبدو أن هؤلاء الشباب كانوا مستعدين لحرق موتور سيارتهم في سبيل اللحاق بهذا الصيد الثمين.

وأخذ (نواف) يحسبها في عقله بسرعة؛ ماذا إذا أدركه هؤلاء الشباب في أحد هذه الشوارع الخالية؟ ماذا إذا ظهرت سيارة للشرطة واكتشفوا أن من يقود السيارة امرأة متخفية؟ سيحتجزونه ويستدعون أولياء أمور (نوف) و يدخل في متاهة هو في غنىً عنها تمامًا، وقرر (نواف) التصرف بسرعة وجرأة، فسحب مسدسه الذي يضعه عادة في درج هذه السيارة وأوقف سيارته على جانب الطريق، وعندما وقفت بمحاذاته سيارة هؤلاء الشباب أنزل نواف زجاج السيارة و سحب أجزاء المسدس و هو يصوبه في وجوههم، فانطلقت سيارتهم تزمجر وعجلاتها تصفر مذعورة فوق الأسفلت، وهَمَّ (نواف) أن يُطلق وراءهم رصاصة في الهواء لكنه تراجع خوفًا من حدوث ما لا تُحْمَد عقباه خصوصًا وأن ترخيص المسدس باسم (نواف) وليس باسم (نوف) بالطبع.

قرر (نواف) الاكتفاء بهذا القدر من المغامرة وقفل راجعًا إلى قصره، وفي الطريق قفز إلى ذهنه سؤال؛ هل تجب عليه صلاة الجمعة (كنواف)؟ أم هو معفي منها (كنوف)؟ واحتار فعلاً في الإجابة، وضحك عندما تخيل نفسه يتصل بلجنة الإفتاء يستفتيهم في أمره هذا، لكنه

قـرر أن يسـتفتي قلبـه، فحتـى لـو قـرر الذهـاب للصـلاة فكيـف سـيقف وسـط صـف ٍمـن النسـاء ويراهـن يركعـن و يسـجدن أمامـه؟

وهنـا قفـز إلـى ذهنـه سـؤال آخـر؛ أي الشـهوات سـتأتيه؟ شـهوة الرجل أم شـهوة المرأة؟ وفطـن إلـى أنـه منذ تحولـه لـم تجـرِ أي دمـاء حـارة في شـرايينه، لا كرجـل ولا كامـرأة. وأخـذ يفكـر؛ إنَّ هرموناتـه الآن هـي هرمونـات (نـوف) لكـن عقلـه لا يـزال عقـل (نـواف)، وحسـب معلوماتـه فـإن الشـهوة مصدرهـا الجهـاز الحـوفي داخـل المخ، إنـه مـخ (نـوف) لكـن العقـل عقلـه هـو (كنـواف)، وشـعر بالحيـرة و الارتبـاك وهـو يسـأل نفسـه؛ هـل هنـاك فـرق إذن بـين المـخ و العقـل؟

أخيـرًا عـاد إلـى الفيـلا وتسـلل خِلسـةً مـرة أخـرى ليجـد فـوق فراشـه بطاقـة دعـوة لحفـل زفـاف ابنـة خالـة (نوف)، اسـتلمتها الخادمـة و وضعتها فـوق الفـراش عندمـا بحثـت عـن (نـوف) ولـم تجدهـا، العُـرس بعـد يومـين؛ فرصـة لكسـر الملـل وإشـباع الفضـول عمـا يـدور داخـل قاعـات أفـراح الحـريم قبـل دخـول العريـس ومـن يصاحبـه مـن أهلـه وأصدقائـه، لكنـه تَنَبَّـه بعـد قليـل، كيـف هـذا؟ إن والـدة (نـوف) و خالتهـا مـن أسـرة حجازيـة عريقـة ومعتـزة بتقاليدهـا، وبالتأكيـد سـيدعون (نـوف) – أي سـيدعونه هـو (نـواف) – إلـى ليلـة الحنِّـة أو مـا يسـميها أهـل الحجـاز ليلـة الغمـرة، كيـف سـيذهب ويمـلأ يديـه وقدميـه برسـومات الحنـاء تلـك؟ ومـاذا لـو طلبـوا مـن (نـوف) الرقـص التـي هـي بارعـة فيـه؟ هـل سـيقبل أن يفعـل ذلـك؟ بالطبـع لا، سـيعتذر عـن ليلـة الغمـرة هـذه بحجـة (أسـيل) مثـلاً.

لكن ماذا عن العرس؟ كيف ستقبل أسرة (نوف) اعتذارها عنه؟ ولكن ما المانع؟ يمكنه أن يذهب ويتحجج بأنه لا يرقص في الأفراح عادة إلا الفتيات العزباوات جذبًا لأنظار أمهات العرسان؟ لكن كيف؟ كيف سيحشر جسده داخل فستان للسهرة ويملأ وجهه بالمساحيق أو يذهب إلى مصففة للشعر تتولى هي تجهيزه للسهرة! وكيف سيكون عليه تغطية وجهه و رأسه عندما يدخل العريس ومن يرافقه من الرجال إلى قاعة الحريم؟ بل هل يصح له أصلاً أن ينكشف على النساء اللواتي في العرس و يشاهد رقصهن؟

لكن كيف سيعتذر عن هذا العرس؟ إنها ابنة خالة (نوف) و قريبة من قلبها أيضًا كأنها أختها، لا بد من عذر قاهر يفكر فيه إذا قرر ألا يذهب لذلك الزفاف...هل يتمارض مثلاً؟

وقفزت إلى ذهنه حيلة كان يعرفها من أيام التمارض هروبًا من بعض الامتحانات أيام شقاوة المدرسة، سيأكل يوم الزفاف صباحًا كمية لا بأس بها من الحلاوة الطحينية مخلوطة بقدرٍ من الشطة الحارة! ساعات قليلة وترتفع درجة حرارته كأنه محموم، و زيادة في الحبكة سيطلب الذهاب إلى المستشفى، تمر ليلة الزفاف و يكون (لنوف) عذرها الذي لن يجادل فيه أحد.

ونام (نواف) وهو يسترجع في ألم ذكريات ووطأة تجربة الحلاوة بالشطة، وفي صباح اليوم التالي فوجئ بالخادمة تدخل إليه لتوقظه وتقول:

- سيدة (نوف)! سيدي (نواف) قد حضر من السفر.

●●●

(٢٤)

تماسكت (سالمة) وخرجت من موجة الحزن التي عصفت بها بعد أن قرأت ما قرأت، لكن أحزانها كانت تتجدد عليها كلما تذكرت أنها ستعود لذلك الماضي بعد مرور ذلك العام لتعيش هي من جديد ويعيش أبناؤها من بعدها أيام الاحتلال الإنجليزي لمصر وأيام النكبة لفلسطين التي نزحت منها عائلة أمها.

شعور مؤلم جداً أن تعلم الغيب خصوصًا إذا حمل لك ذلك الغيب أخبارًا حزينة، كيف ستعيش حياتها بعد عودتها للماضي وقد قرأت كل المستقبل و أصبح فيلمًا محروقًا بالنسبة لها؟ مساكين هؤلاء الذين يذهبون للعرافين ويحاولون قراءة المستقبل، إن أجمل ما في الحياة أن تعيش إثارتها يومًا بيوم.

وهنا خطر لها خاطر؛ إن معنى ما هي فيه الآن أنها ستتزوج يومًا ما وتنجب من البنات من ستكون أكبرهن جدةً من جدات (سلمى)، هذه في حد ذاتها بشارة طيبة بحلّ عقدة زواجها، لكن ماذا لو قررت – بعد عودتها للماضي – ألا تتزوج؟ لن تكون هناك لا (سلمى) ولا جدتها ولا طلسم ولا قلادة.

لا...من قال هذا؟

ستُولَد (سلمى) ولكن من نسل أُخْتِي (توحيدة) مثلاً التي ستعطى لها أمي القلادة بدلاً مني...إذن عليَّ أن أعطي القلادة لأختي عندما

أعـود للماضـي حتـى أتجنَّـب مـا أنـا فيـه و تكـون (توحيـدة) هـي التـي مكانـي الآن...

ولكـن اسـم (سـلمى) ليـس علـى نمـط ولا حتـى قريـب مـن اسـم (توحيـدة).

كمـا أننـي أنـا (سـالمة) التـي هنـا الآن فعـلاً، فمعنـى هـذا أننـي لـم أسـتطع و لـن أسـتطيع منـح القـلادة لأختـي بعـد أن أعـود، فمـا الـذي منعنـي مـن صنـع ذلـك؟ هـل سـأنسـى رحلتي تلـك للمسـتقبل بعـد عودتـي؟ يـا لهـا مـن نعمـة أن أنسـى ذلـك...

صحيـح؟ لمـاذا لا أذكـر أي شـيء عـن هـذه الرحلـة رغـم أننـي الآن في المسـتقبل الـذي جـاء بعـد نهايـة كل حياتـي، كمـا أننـي أيضًـا لا أذكـر أي شـيء عـن حياتـي التـي بعـد عودتـي إلـى الماضـي...

هـل أنـا هنـا في وقـت مسـتقطع بـين حياتين؟مـا قبـل و مـا بعـد الاسـتبدال؟ فأيـن سـيُوضع هـذا العـام في حياتـي وفي ذكرياتـي؟ في الماضـي أم في المسـتقبل؟

وهنـا أحسـت (سـالمة) أن عقلهـا يـكاد يُفلـت مـن عقالـه وأحسـت بالـدوار حتـى كادت أن تسـقط مـن طولها...ليـس لنـا أن نفكـر فيمـا لا تسـتطيعه عقولنـا – قالـت (سـالمة) لنفسـها – سـيكون مـا يقـدره الله وليـس لـي إلا أن أعيـش مـا أنـا فيـه.

وأكملـت (سـالمة) ارتـداء ثيابهـا، إنـه يومهـا الأول في الجامعـة مـكان (سـلمى)، لقـد ظلَّـت طـوال الليـل تسـترجع مـن ذاكـرة (سـلمى) أيامهـا في

تلك الكلية، إنها لا تدري كيف ستتصرف...لا لن يكون هذا أبدًا...لا رحلات ولا اختلاط مع شباب، بل لولا أنها تدرس التاريخ - ذلك الذي يستهويها كثيرًا - في هذه الجامعة لَمَا فكرت في الذهاب أصلاً و ليكن ما يكون، ستذهب للدراسة فقط وستقطع كل علاقات (سلمى) مع أصدقائها وزملائها من الذكور.

وجلست (سالمة) خلف مِقْوَد سيارتها، إن مهارات سلمى في قيادة السيارة وغيرها من المهارات المكتسبة لا تزال كما هي في تلافيف مخها، ولكن عقل (سالمة) يحتاج لبعض الوقت حتى يتفاعل تلقائيًّا مع تلك المهارات، وانطلقت (سالمة) بالسيارة، وخرجت من الحي الهادئ إلى الشوارع الهادرة كالمحيط الهائج؛ ما كل هؤلاء البشر؟ ولماذا يتصرفون هكذا؟ إنها لم تعتد لا على زحام و لا على ضجيج و لا على عدوانية في تصرفات الناس ولا على إيقاعٍ سريعٍ للحياة، وأحست كأن كل من حولها يحاصرها ويعاديها، وكادت أن تنفجر في البكاء لولا أن استعانت بكل ما وجدته في مخ (سلمى) من خبرات و بكل ما لديها هي من قوة تحمل.

وأخيرًا وصلت(سالمة) الجامعة و أنفاسها تلهث من الشد العصبي، وتحولت إلى حال الدهشة والارتباك عندما دخلت رحابها، إن حالها يشبه حال من تخرج في هذه الجامعة منذ سنوات ثم جاءها يومًا زائرًا، فيسترجع ذكرياته وخطواته والأماكن التي جلس فيها كأنها طيفٌ يُهَيم في جنبات الجامعة أمام عينيه، بينما (سالمة) تسترجع طيف (سلمى) في أرجاء الجامعة كي تحلّ محلها.

وسطَّر الوجوم خطوطه على وجه (سالمة) طوال اليوم وسيطر التوتر على كل تصرفاتها في هذه الدنيا الجديدة عليها تمامًا، وتعمَّدت أن تتحفظ في الرد على زملاء (سلمى) الذكور الذين فوجئوا بقناعها الثلجي الجديد، حتى (عادل) رئيس أسرة السندباد الذي جاء يسألها عن الرحلة الجديدة:

- سلمى !!!!!.

ورفع كفه اليُمْنَى لأعلى كي تضربها كف (سلمى) في الهواء بتصفيق سريع بين الكفين، لكن (سالمة) نظرت إلى يده في استغراب ووقفت صامتة، فابتلع عادل ريقه ليبتلع معه إحراجه وقال:

- ما أخبار رحلة (وادي الجِمال) يا (سلمى)؟ هل انتهيتي من ترتيباتها و حجوزاتها؟

تنحنحت (سالمة) وحاولت أن تجيب بلا توتر:

- اعذرني يا (عادل)، أنا منسحبة من هذه الرحلة.

نظر إليها بدهشة و قال:

- ماذا؟ لقد كانت اقتراحك أصلاً، ألا تذكرين كلامك عن جمال المحمية وعن كائناتها الحية و شِعَبِها المرجانية؟ حتى جبل حماطة الذي يحُدُّها كنتِ تقولين فيه شعراً، وماذا سنصنع مع الزملاء الذين دفعوا مقدمة الاشتراك؟

- سوف أرد لك كل ما دفعوه، ويمكنك أن تُوكِّل غيري لتولي الترتيبات.

- ماذا بكِ يا (سلمى)؟ هل أنتِ بخير؟ هل ضايقك أحد؟

ردت (سلمى) بطريقة رسمية متحفظة على كلام (عادل):

- لم يضايقنِي أحد أبدًا ولكني غيرت رأيي ليس في هذه الرحلة فقط بل في كل الرحلات، وأرجو أن تعتبرني خارج الأسرة أيضًا.

فَغَرَ (عادل) فمه في دهشة وهو لا يصدق أن هذه هي (سلمى) التي كانت أكثر أعضاء الأسرة حماسًا و نشاطاً.

وقبل أن يقول شيئًا بادرته (سالمة):

- بإذنك يا (عادل)، عندي محاضرة.

●●●

(٢٥)

ادَّخر (جوزيف) مائتي جنيه و شحن بهم رصيدًا في هاتف (يوسف) الذي في حوزته الآن، ثم قام بالاتصال بهاتفه الذي يحمله (يوسف)، رنّ الهاتف في يد (يوسف) وبعد عدَّة ثوانٍ استغرب (يوسف) أنه اتصال من مصر، دقق في الرقم جيدًا فأدرك أنه هاتفه الذي في مصر فرد قائلاً في توجس:

- ألو، (جوزيف) معي؟

- إذن فقد تعرفت على رقم هاتفك و وفرت عليَّ رصيدًا لا بأس به في هاتفك البائس هذا.

- تتكلم وكأنني أنا من صنعت هذا بي وبك، لقد صُدمت مثلك بالضبط.

رد (جوزيف) في سخرية مريرة:

- لكنها كانت صدمة سعيدة جدًا بالنسبة لك بكل تأكيد، أما أنا فأنت أدرى بحالك الذي أصبحت أنا فيه مكانك، و بقطعة الخردة هذه التي أصبح محتمًا عليَّ أن أقودها طوال اليوم كي أعول نفسي.

- أنا أُقَدِّر ما أنت عليه من غضب، لكن لا أنا اخترت أن أُوَلد فقيرًا ولا أنت اخترت أن تُولد غنيًّا في أرض الأحلام؛ أمريكا.

استمر انفعال (جوزيف) وارتفعت نبرات صوته وهو يقول:

- أنا لم أُولَد غنيًّا، أنا صنعت ثروتي التي تنعم بها الآن من عقلي و إبداعي.
- حسنًا؛ أنت لا زلت (جوزيف) ولا يزال معك عقلك و إبداعك، اشحذ مواهبك واصنع لك ثروة هناك في مصر طالما أن أرض الأحلام ليست هي الفارق في الأمر.
- إذن فأنت تريد أن تسرقني وتحتفظ بأموالي، بل وبحياتي كلها، خصوصًا وأن القلادة اللعينة في حوزتك الآن ويمكنك أن تعطل رجوع كلٍ منا إلى أصله!
- أنا لم أقل هذا ولا أريده، وأنت من بدأت بالعصبية و بالتَهَجُّم عليَّ.

قالها (يوسف) وهو يسأل نفسه إن كان فعلاً يريد العودة إلى حياته الأصلية، ثم أكمل قائلاً:

- والآن قل لي ماذا تريد فلا أظن أنك اتصلت بي كي تَقُصَّ عليَّ يومياتك مع التوكتوك.

هدأ (جوزيف) قليلاً و قال:

- أريد أموالي.

- تريدني أن أحول لك أموالك التي هي في رصيد (جوزيف) إليك الآن و أنت (يوسف)؟

صمت (جوزيف) قليلاً و استعاد توازنه ثم قال:

- على الأقل تحول لي شهريًّا مبلغًا من المال أعيش به هذا العام، أنت أدرى بشوارعكم و بحياتكم.

- كم يكفيك كل شهر؟

رد (جوزيف) بسرعة:

- ٥ آلاَف دولار شهريًّا.

- هل جننت؟ هل تريد أن تثير حولي الشبهات؟ ماذا سيقول الناس هناك في مصر عندما يرون المال يتدفق على (يوسف) فجأة بينما هو لا يعمل؟ سيقولون أنني أتاجر في المخدرات، أم أنك ستهجر المنطقة لتعيش في حيٍ راقٍ و تترك أمي وأختي لا تعلمان شيئًا عن مصير ابنهم؟ وحتى إذا اصطحبت أمي وأختي ليعيشوا معك؛ بماذا ستفسر لهما هذه الأموال؟ بل ماذا ستقول الأجهزة الرقابية عندنا عندما يرون ذلك الشاب البائس تنهال عليه التحويلات شهريًّا من الخارج من شخصٍ لاتربطه به أي صلة؟ سأصبح في نظرهم جاسوسًا حتى يثبت العكس.

- حسنًا فلتجعلهم ألف دولار شهريًّا و أعدك أنني سأظل مقيمًا في شقتك الفارهة تلك!

ابتلع (يوسف) سخرية (جوزيف) و قال:

- لا زلت لا تفكر إلا في نفسك، أنا كنت أعيش بحوالي مائة دولار في الشهر وأعمل من أجلهم في أكثر من عمل، أنت بذلك ستثير

الشبهات أيضًا، اسمع؛ سأكون كريمًا معك و أرسل لك ٣ آلاف دولار تقتات منهم بقية العام، وهذا تقريبًا ضعف دخلي السنوي الذي اعتدت عليه، وأنصحك بأن تستمر في العمل على التوكتوك من وقتٍ لآخر، الشارع عندي والشوارع حولنا مليئة بالمخبرين و مرشدي الشرطة، سيرتابون في أمرك إذا وجدوا (يوسف) الذي اعتادوا رؤيته معدمًا وهو يعمل، فإذا به يمتلك مالاً بينما هو قد توقف عن العمل، لاَحِظ أنهم أيضًا يصنفونني من المتدينين ومرتادي صلوات المساجد، لا أظن أنك ستحب أن تجرب أقسام الشرطة عندنا ولو لليلة بسبب الاشتباه في أمرك.

صمت (جوزيف) وكأنه بدأ يقتنع بكلام يوسف ثم قال:

- وأنت؟ ماذا تنوي أن تصنع؟

فطن (يوسف) إلى مغزى السؤال فقال متلاعبًا بأعصابه:

- الحقيقة أن منزلك في سياتل جميل فعلاً وصديقاتك أكثر جمالاً وحياة الترحال والمغامرات التي تحياها تستهويني بحق، لو أنت مكاني ماذا كنت ستصنع؟

ارتجف قلب (جوزيف) وقال وهو يداري ارتعاش صوته:

- أنت تمزح، أليس كذلك؟

- وهل إذا كنت أنتوي فعلاً الاحتفاظ بحياتك هل كنت سأجيب على مكالمتك؟ لا تخف، كله إلا المال الحرام.

وكأن (يوسف) وجد أخيرًا شيئًا يتباهى به على ذلك الأمريكي الذي يتفوق عليه في كل شيء فأكمل قائلاً:

- هذه أشياء قد لا تفهمونها عندكم في الغرب، أموالك و حياتك في الحفظ والصون، وأماناتك ستستردها في الوقت المعلوم بإذن الله.

وبعد انتهاء المكالمة سأل (يوسف) نفسه؛ هل هو فعلاً وبعد مرور عامٍ كاملٍ من اعتياد حياة النعيم سيترك كل ذلك و يعود لحياته الأولى؟ هل قال ما قاله (لجوزيف) لأنه ما زال متأثرًا بقِيَمِه القديمة التي تعلمها من أبيه و من شيخ المسجد؟ هل ستظل هذه القيم حيَّة في قلبه بعد عامٍ من الآن؟

إنه فعلاً لا ينتوي اغتصاب مال (جوزيف) و حياته، لكنه أيضًا كان ينتوي أن يستعصم في فتنة النساء فسقط مع أول ثلاث فتيات طرقن بابه! الغريب أنه في مصر كان يعاني فقر المال وشظف العيش أكثر مما يعاني من الحرمان من النساء وتأخر الزواج، لكنه الآن تعفُّ نفسه عن هذا المال السهل الذي هبط عليه في حين أبت هذه النفس أن تستعفف عن الحضن الحرام.

هل الفتنة أنواع ودرجات يختلف تأثيرها من شخصٍ لآخر؟ سأل (يوسف) نفسه...

هل القَويّ أمام فتنة من الفتن يكون قويًّا بالضرورة أمام غيرها؟ أم الفتن كالأمراض يختلف الناس في مناعتهم تجاههن؟

ووجد عقله يسترجع تلقائيًّا بقية ما علق في ذاكرته من كلام فلاسفة الأخلاق، وأحس (يوسف) أن ما درسه نظريًّا في سنوات أربع في الجامعة يدرسه الآن عمليًّا في تجارب الحياة.

أما (جوزيف) وبرغم أنه اطمَأنَّ نوعًا بهذا المال الذي يفترض أن يرسله إليه (يوسف) إلا أنه لم يطمئن إلى صدق نيته في العودة إلى حياته الأولى، إن فوارق أقل بين هاتين الحياتين كافيةٌ لأن تغري أي إنسان بعدم العودة، فكيف يصدقه أنه سيعود من حياة المليونير الأمريكي إلى حياة سائق التوكتوك المصري؟ هل فعلاً سيمنعه دينه من الحنث بوعده و من الاستيلاء على ما ليس له؟ وأقر (جوزيف) أن حالة كهذه لا ضمان فيها إلا دين أو ضمير الطرف القوي.

ما الفارق بين الدين والضمير في هذه الحالة – قال (جوزيف)... شخصٌ لا دين له مكان (يوسف) و قد يقول إن ضميره يمنعه و يصدق في قوله، هل الدين فعلاً أمرٌ حقيقي؟ أم هو كما يقال أمرٌ اخترعه الحكام والأغنياء كي يضمنوا ولاء و قنوع الشعوب و المستضعفين؟ لو كان كذلك فلماذا قامت عشرات الثورات الدينية عبر التاريخ؟ و أحس (جوزيف) أن الاسترسال في هذه الأسئلة أصابه بالصداع دون جدوى فقرر التوقف عنها، لكنه أقر مع نفسه أنه تحت رحمة دين أو ضمير شخص آخر.

ولم تعجبه فكرة أن يكون تحت رحمة الغير، وتذكر كلمات (يوسف) له؛ أنه ما يزال (كجوزيف) ينعم بعقله ولا زال معه إبداعه الذي صَبَّ عليه الملايين من قبل، فقرر العمل بنصيحته!

●●●

(٢٦)

دخلت (نوف) غرفة النوم و (نواف) يجلس في تحفز على أحد مقاعدها الوثيرة، وأخذ كلٌّ منهما ينظر إلى جسده يقف أمامه مجسدًا، وأخذهما الذهول لفترة، كان كل واحدٍ منهما يحس وكأن روحه خرجت منه وأخذت تطوف حول جسمه وتتأمله ، وبعد أن بَدَءآ في استعادة توازنهما وعادا إلى أرض الواقع. بادرت (نوف) وألقت السلام على (نواف) وعقلها لا يزال مشوشًا وهي ترى نفسها ترد عليها و (نواف) لا يقل عنها تشوشًا وهو يرى نفسه تسلم عليه.

– وعليكم السلام، أراكِ لم تستغرقي شهرًا في رحلتك كما كنتِ تخَطِّطِين.

وبدآ في الاعتياد على هذا الوضع المقلوب، فردت (نوف) بعد أن ترددت قليلاً في الإجابة:

– بصراحة لم أتحمل السفر وحيدة كل هذه المدة.

ثم قالت في نبرات تهكم و اتهام و قد اعتادت على أن تكلم جسدها الذي يقبع فيه (نواف):

– لست أدري كيف يفعلها بعض الرجال و كيف يتغلبون على الوحدة في سفريات كهذه وربما أطول.

أدرك (نواف) ما ترميه من وراء كلامها فقال وقد اعتاد هو الآخر ذلك الوضع المقلوب:

- أنا لم أسافر للسياحة وحيدًا منذ تزوجنا، وكل سفري للعمل من يومها.

ثم أكمل هو في تهكم:

- يبدو أنكِ واجهتِ في سفرك هذا الكثير من المغريات.

غيرت (نوف) من نبرتها وقالت في هدوء:

- (نواف)؛ إننا شئنا أم أبينا يجب علينا أن نتعايش مع وضعنا هذا لمدة ذلك العام، وسيحتاج كلٌّ منَّا للآخر، لابد أن نتعاون سويًّا حتى يمر ذلك الكابوس.

- وهل هو كابوس بالنسبة لكِ أنتِ؟ أنا المتضرر وليس العكس، أنا الذي كنتِ تنتوين حبسه في البيت لولا احتياجك إليَّ في العمل، وحتى عندما سُمِحَ لي بالخروج أصبحت لا أجد مكانًا أذهب إليه.

- هل جربت إذن ما كنت أعانيه؟

- على الأقل كنتِ تستطيعين قتل بعض الوقت في مكالمات هاتفية وقضاء وقت آخر في جلساتكم النسائية..كِلا الأمرين كان كابوسًا بالنسبة لي عندما جربته في الأيام الماضية.

- وهل المرأة تقضي وقتها فقط في الحديث والجلسات والثرثرة؟

- تقضي جزءًا لا يستهان به، والجزء الآخر يكون ما بين المنزل ورعاية الأطفال.

تنهدت (نوف) في يأس و قالت:

- حسنًا؛ يمكنك أن تفعل ذلك حتى يمر هذا العام.

ردَّ (نواف) منفعلاً - بينما اهتَمَّت (نوف) أن ترى كيف يبدو شكلها حين تنفعل - وقال:

- لكني ما زلت رجلاً حتى و إن كنتُ في جسد أنثى، لا شيء مما سبق أطيق فعله، أنا رجل كانت حياته العمل والسفر...

فقاطعته (نوف) وأكملت هي:

- ولقاء الأصدقاء بالساعات و لعب الورق والسمر، بينما أنا أجلس بالساعات كل يوم لا أجد ما أفعله، وأنت لاكنت بجواري نقضي ذلك الوقت سويًّا ولا تتركني أشغل وقت فراغي الطويل بالعمل...

وسكتَتّ قليلاً ثم أكملت:

- (نواف)؛ هناك كثير جدًا من النساء يُحْبِبْنَ حياة الدعة والكسل تلك، لكن أنا لست منهن، أنا لست مجرد امرأة تقضي وقتها في الاعتناء بجمالها وفي التسلية والنميمة و الجلسات.

رد (نواف) في حزم:

- قلت لكِ أنني لا أوافق على أن تعملي.

- وها أنا الآن أعمل، بل وسأعمل أكثر بكثير من دوامي لو كنت موظفة.

– هذا وضعٌ مؤقت بسبب ما نحن فيه.

– وبعد مرور العام؟ هل سأعود إلى ما كنتُ عليه؟ أنت جربت بنفسك هذه الحياة لأسبوعين و لم تطقها، ألا تشعر بي وبمعاناتي؟

قالت ذلك وهي تضع كفَّيهَا على كفَّيهِ في حنان، فرَقَّ قلب (نواف) وأحس بالحرارة تسري في يده برغم ملمس يدها الذكوري الخشن؛ فقال:

– يمكننا أن نتفاهم حتى نصل إلى وضعٍ يرضينا نحن الاثنين، يمكنِكِ أن تستكملي بعض الدراسات العليا أو تنضمي إلى دراسة حرة.

فأكملت هي:

– أو أن أؤسِّسَ عملاً مناسبًا خاصًّا بي طالما أنكَ لا توافق على عملي في وظيفة.

تنهد (نواف) و قال وهو يهز رأسه كمن يقتنع بشيء:

– حسنًا؛ يمكننا أن نتفاهم في هذا الأمر.

ظهر السرور على وجه (نوف) و قالت في عتابٍ رقيقٍ:

– وهذا ما كنت أتمناه منذ بداية زواجنا؛ أن نتفاهم، ولم أجد منك أي استجابة.

فابتسم (نواف) أيضًا وقال:

– وحدث ما حدث وجاءتك الفرصة للنيل مني ورد الصاع صاعين.

ابتسمت (نوف) وقالت:

- ولم لا تقول أنها فرصة لنا كي بعيد بناء حياتنا ونبني جسور التفاهم بيننا؟

ابتسم (نواف) بدوره وقام فقبَّل رأسها وقال:

- والآن قومي خذي حمامك وبعد الغداء نجلس و نتفاهم.

واقشعرت (نوف) وهي ترى جسدها يحتضنها و يقَبِّلهَا، وقامت لتستعد لحمامها ثم استدارت (لنواف) و قالت وهي تبتسم:

- هل يمكنك حتى أنتهي من حمامي أن تعتني ببعض الأمور في جسدي؟ أقصد جسدك الآن؟

- أمور مثل ماذا؟

- أن تزيل ذلك الشعر المُهْمَل الذي بدأ ينبت على ساقيك و ساعديك.

تغير وجه (نواف) و قال باستنكار: ماذا؟

فبادرته (نوف) و قالت:

- أنت الآن تعتني بجَسَدِي و أنا بدوري أعتني بجَسَدِك، و سيكون مطلوبًا مني مثلاً تهذيب تلك اللحية ورسمها كما تحب، والذهاب إلى الصالة الرياضية كما اعتدت، فعلى الأقل نتبادل العناية ببعضنا كما يحب كلٌّ منا.

تنهد (نواف) و قال:

- حسنًا فليكن، ولكني سأنتظرك حتى تفرغين من حمامك وأترك لك جسدك تفعلين فيه ما تريدين، أنا لن أطيق أن أصنع ذلك بنفسي.

ابتسمت (نوف) وقالت وهي تضحك:

- حسنٌ جدًا، وسأضع لك أيضًا الكحل و الماكياج كما أحب أن أصنع.

فجرى وراءها (نواف) وجرت أمامه وهما يضحكان، وضرب عجيزتها بلطف - كما اعتاد أن يفعل - لمَّا طالتها يداه، وارتبك بعدها من ملمس جسدها الذكوري و من فكرة أنه يضرب نفسه بنفسه.

●●●

وبالليل بعد أن آوى (نوف) و (نواف) إلى فراشهما، وبعد فترة من السكون تلاقت عيناهما في نظرة لمدة ثانية ثم تباعدت، لحظات وتلاقت الأعين مرة أخرى و لكن في نظرة أطول...نظرة ذات معاني وذكريات أشواق، وطالت النظرة، و (نوف) تنتظر (نواف) أن يكون هو البادئ ككل مرة لكنه لم يفعل، فتذكرت أنها من تلبس ثوب الرجل هذه المرة فاقتربت منه واحتضنته فبادلها حرارة بحرارة، وبعد أن زاد اضطرام النار بينهما بادرت (نوف) لترفع من مستوى اللقاء، استكان (نواف) للحظات ثم انتفض فجأة وانتشل نفسه من بين أحضانها وهبَّ من الفراش واقفًا، سألته (نوف) في دهشة:

- ماذا بك؟

- ماذا عساكِ تظنين أننا سنفعل؟

زادت دهشتها فقالت:

- ماذا سنفعل؟ ألسنا زوجين؟ أنا زوجتك وأنت زوجي؟

- بل أنتِ الآن الرجل جسدًا وأنا الذي في جسد الزوجة.

- وما الفارق إذا كنا نحن نفس الزوجين؟ أما كنتَ تقول لي أننا روح واحدة حلَّت في جسدين؟

- روح في جسدين إذا كان كلٌّ منا في جسده، لكن هل تنتظرين مني أن أفعل ما كنا نفعل و أنا الآن بجسد الأنثى؟ إنني ما زلت (نواف)؛ رجل شرقي بل وبدوي الجذور، لا يمكن أن أفعل ذلك حتى ولو كان الذي معي هو جسدي أنا والتي فيه هي زوجتي.

سكت لحظات و هو يتهدج بالانفعال ثم أكمل بحسم:

- لا يمكن ذلك أبدًا.

وصَمَتَا سويًّا و قد أدركا حجم ما هم فيه من إشكاليات متعاكسة، كل ما هم فيه معكوس؛ الجسد والهرمونات ونوع الرغبة، ولكن يبقى أصل الذات لم يتغير والعقل لم يتبدل.

دقائق من الصمت والحيرة والالتباس حتى قالت (نوف):

- لكنك لا تمانع أن نبيت في أحضان بعضنا البعض.

سألها (نواف) في توجس:

- وماذا تقصدين؟

- أقصد أن نبيت في أحضان بعضنا ونغمض أعيننا لندع قلوبنا تُحَلِّق في سماوات عواطفنا، ولا نقارف إلا ما هو عفوي...ألم تقل لي من قبل إن المُحِبَّ يكتفي من جسد حبيبه ولو بأقل القليل؟ دعنا نختبر ذلك إذن عمليًّا.

دارت الفكرة في رأس (نواف) فوجد لها قبولاً عنده، أن يفُضَّا التباس الجسد بالارتقاء إلى الروح، وأن يُشْبِعا جوع الحس بإطعام الذات، وكأنما قرأت (نوف) الموافقة في عينيه فسحبته إلى جوارها بلطف، وحَلَّقا في سماوات بعيدة من العاطفة المشبوبة، وطال بهما الطيران والتحليق.

وفطن (نواف) إلى ما كان يفوته طوال سنوات، وقت أن كانت لقاءاته الحميمة تقتصر على انفعالات الميكانيكا فحسب و يهمل دور الكيمياء، وقت أن كان يظن أن المداعبات لا لزوم لها إلا إعداد معمل الزوجة للتشغيل و الذي يستغرق وقتًا بخلاف مصنع الرجل الجاهز للعمل بأقل لمسة.

الآن أدرَكَ معنى النشوة المولودة بالحب، معنى الطبخة المطهية على نار هادئة و مُعدَّة بعناية و فن، بينما كان يكتفي سابقًا بالوجبات سريعة التحضير.

أما (نوف) فرأت الوجه الآخر للقمر، معنى الجوع السريع للرجل والذي يُطل برأسه فجأة ويئنُّ صارخًا في طلب إشباعٍ سريعٍ أيضًا ثم ينطفئ بعدها بذات نفس السرعة.

وانصهر كلٌّ منهما في بوتقة الآخر، و ذاب عقل كلٌّ واحدٍ منهما في وعاء الثاني، و امتزج الزيت بالماء بفضل ذلك المذيب العجيب، وبعد فترة من التحليق - لم يدريا كم طالت و لا إلى أي مدىً ذهبت - هبطت روحيهما إلى فراشهما، ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر في امتنان و حب، وكل منهما يسأل الآخر في عقله: هل كان يجب أن تكون مكاني حتى تفهمني؟

وشعرا بالامتنان لحَبَّات السبِّحَة المفروطة!

●●●

(٢٧)

ذاكـرت (سـلمى) جيـدًا كل مـا ـ في ذاكـرة (سـالمة) و اجتهـدت أن تبـدو طبيعيـة ـ في كل تصرفاتهـا، فكانـت تبـدأ يومهـا مـن قبـل الفجـر بقليل وتصنـع مـا اعتـادت (سـالمة) أن تصنعـه طـوال يومهـا...

يا لهذه الحياة البدائية في كل شيء - قالت (سلمى) لنفسها...

لا تعـرف قيمـة الشـيء إلا بعـد فقـده، ولا تعـرف أهميـة الاختـراع إلا حـين تحـرم منـه، ولا تحـس بأنـك في رفاهيـة إلا حـين تُحـرم مـن بعض مظاهرهـا... كل شـيء هنـا فيـه معانـاة حتـى الذهـاب إلـى ذلـك المرحـاض البلـدي الـذي يتطلـب جلسـة القرفصـاء المؤلـمة، يجـب أن أتذكـر أن اسـم الحمـام يقـال فقـط علـى مـكان الاسـتحمام، والمرحـاض غيـر الحمـام وكلاهمـا منفصـل عـن الآخـر في مكانـه، النـاس هنـا يأنفـون مـن أن يقضـوا حاجتهـم وأن يغتسـلوا في مـكان واحـد.

بـل إنَّ البيـت هنـا يعتبـر مـن البيـوت المرفهـة التـي فيهـا صنابيـر ميـاه في كلٍ مـن الحمـام و المرحـاض والمطبـخ، تتغـذى مـن خـزان ميـاه بسـطح البيـت والـذي يتغـذى بـدوره مـن مضخـة ميـاه يدويـة مدقوقـة في أرضيـة حـوش البيـت الخلفـي بجـوار مضخـة أخـرى حبشـية، ويتولـى الإخـوة الذكـور مَلْءَ ذلـك الخـزَّان عـن طريـق إدارة تلـك المضخـة بتحريـك ذراعهـا ذهابًـا و إيابًـا في حركـة زجزاجيـة مُمِلـة ومُجْهِـدة تسـتمر لسـاعة، حتـى أنهـم يتناوبـون أيـام مَلْءِ الخـزَّان فيمـا بينهـم...

لـو شـاهدوا المضخات الآليـة لتحسـروا علـى هـذا المجهـود الضائـع... قالت (سـلمى) لنفسـها.

لكنهـا تداركـت أن إخوتهـا لا يحتاجـون لارتيـاد الصـالات الرياضيـة، فحصـة مَلْءِ الخـزَّان كأنهـا حصـة أيروبكس أو حصـة كروس فيـت مجانيـة!

المياه هنا نقية كأنها تتدفق من بئر معدنية.

الحيـاة هنـا هـي المعنـى الحقيقـي للإيقـاع البطـيء - وهـي التـي اعتـادت علـى الأداء فـوق السـريع في كل حياتهـا.

مـا كانـت تسـمعه مـن جدتهـا عـن أنهـم كانـوا يقسـمون أعمـال المنـزل علـى أيـام الأسـبوع إلـى يـوم للغسـيل ويـوم للعجـين ويـوم للنظافة...إلـخ. ومـا كانـت تحكيـه عـن حجـرة الكَـرار لتخزيـن الطعـام وأنهـم كانـوا يقضـون الأيـام في إعـداد ذلـك الخزيـن - كل موسـمٍ بموسـمه...كل ذلـك أصبحـت تعايشـه وتشـارك في أعمالـه...

تبًّـا لجلسـة القرفصـاء تلـك التـي تطاردنـي في كل شـئون البيـت هنـا...

وتذكـرت وقـت أن كانـت تملّ مـن دقائـق تسـخين الطعـام في جهـاز الميكروويـف!

وسَـخِرَت مـن نفسـها حـين كانـت تظـن أنهـا جربـت حيـاة الخشـونة والبدائية في رحلات السـفاري ومعسـكرات الصحـراء...السـفاري الحقيقي حـين تتولـى بنفسـك إعـداد طعامـك و مبيتـك وتواجـه الطـوارئ ومخاطـر

الصحـراء بنفسـك، لا أن يتكفـل لـك ذلـك مَـن تنـزل في رحابهـم مِـن بـدو المنطقـة...

إنهـا الآن في رحلـة سـفاري - حقيقيـة ومـن نـوع خـاص - ولكـن لمدة عـام كامـل!

الـكل هنـا يتحـرك ببـطءٍ مـن ليـس وراءه شـيءٌ يشـغله ولا أحـد يركـض وراء موعـدٍ يدركـه، الآن فهمـت سـبب الإيقـاع البطـيء والمشـاهد الممطوطـة في أفـلام سـينما الأبيـض والأسـود.

الأخبـار التـي كانـت تعرفهـا فـور حدوثهـا مـن شـبكات الأخبـار علـى الإنترنـت أو حتـى كانـت تنتظـر نشـرات الفضائيـات المتعـددة لتعـرف التفاصيـل بعدهـا بسـاعة، و كانـت تمـازح أباهـا و تُذكِّره في سُخْرية بالأيام التـي كان يجلـس فيهـا ليضبـط موجـات الراديـو ليلتقـط إذاعـة لنـدن، أو مونـت كارلـو كـي يباهـي أقرانـه بأنـه يعـرف مـا لا تذكـره نشـرات التلفـاز ولا الجرائـد المحليـة؛ الآن هـي لا تعـرف الأخبـار إلا بعـد أن تتناقلهـا الألسـن أو تسـير بهـا الركبـان! علـى كل حـال هـي ليسـت بحاجـة لمعرفـة أخبـارٍ هـي بالنسـبة لهـا تاريـخٌ مـن الماضـي.

يومهـا يبـدأ مـع الفجـر و ينتهـي مـع غـروب الشـمس والسـهر بعـد العِشـاء لـه اسـتعداداته ومبرراتـه.

أمـا نشـاطها اليومـي فهـو مسلسـل متواصـل مـن حلقـات الملـل، مسلسـل عنوانـه (الـلاَّ جديـد) مسلسـل مـن سـبع حلقـات يعـاد أسـبوعيًا بـلا تغييـر في أحداثـه تقريبًـا، حتـى أنـواع الطعـام المطهـي لهـا جَدْوَلهـا الأسـبوعي شِـبْه الثابـت.

الجديد المحتمل فيه أن تأتي لزيارتهن في البيت إحدى القريبات أو الجارات، أو تذهب هي مع أمها لزيارة مماثلة، حتى هذه الزيارات أدركت مع الوقت أنها تكاد تخضع لجدول منتظم موضوع بشكل تلقائي وعفوي.

السوق لم تعرف شكله إلا بعد أن ألَحَّت على والدتها أن تأخذها معها وهي ذاهبة لشراء أثواب القماش التي يفترض أن تُحَاك أثوابًا لها ولأخواتها علاوة على ما سوف تنفرد به العروس (توحيدة) من فساتين استعدادًا لزفافها.

كل وسائل التسلية التي يلزمها وجود كهرباء - من أول الراديو وصولاً إلى الإنترنت والبلاي ستيشن - والتي كانت تسليتها التي تملّ منها أصلاً رغم كثرتها؛ هي الآن معدومة، فقط ألعاب الكوتشينة والشطرنج، لا تدري (سلمى) لماذا يعتبرون لعبة الطاولة لعبة للرجال فقط، ماذا سيقولون عنها لو أخبرتهم أنها طالما لعبت الطاولة مع زملائها وأصدقائها الشباب على المقهى؟ بل و على أنغام كركرة الشيشة ودخانها أيضًا..سيعتبرونها فتاة منحلة على أقل تقدير!

التسلية الحقيقية كانت في أن تتعرف على تفاصيل حياة الناس في ذلك العصر مما لن يذكره لها أي كتاب، و كان هذا هو الشيء الذي اجتذبها لأسابيع حتى أتَمَّت معرفته ثم دخل هو الآخر دولاب الملل.

لكن يجب أن أكون منصفةً – قالت (سلمى) لنفسها...

فالحياة هنا ليست كلها سلبيات، الطعام له طعمٌ ورائحة مختلفين، ورغم أنني أفتقد المطاعم الأمريكية والإيطالية والصينية إلا أن أكل

تلك المطاعم هو فعلاً طعام مُخَلَّفات! مُخَلَّفات هرمونات و كراكيب هندسة وراثية، حتى مطاعم بلاد الدنيا التي زرتها لا تخلو من نسب متفاوتة من هذه المُخَلَّفات التي لم أشعر بوجودها إلا حين ذقت الطعام النظيف، حتى ما كانت تطبخه أمي - في المستقبل الذي جئت منه - لا يقارن بطعام اليوم...لا تلوث.

لعل انعدام التلوث هو سبب ما ألمسه الآن من نشاط و حيوية ونضارة بشرة؟ حقًّا ... لقد كانت جدتي سالمة جميلة لدرجة أنني الآن أغار من جمالها، وبياض بشرتي و نضارتها - التي في المستقبل - إنما هما وراثة منها، مع فارق أنني كنت أبذل مجهودًا لا يُستهان به في العناية بها، بينما الآن لا حاجة لي لأي من هذه الكريمات و المرطبات والدهانات.

لقد كانت جدتي (سلمى) فاتنة بحق برغم حظها العثر في الزواج، ويبدو أنني ورثت منها أيضًا هذا الحظ، بل أظنني ورثتها في كل شيء، حتى تضاريس جسدي أقرب ما تكون من تضاريسها، فقط لست أدري لماذا يندر وجود الشعر في جسمها هي وباقي أخواتها، لا بد أنها الهرمونات و الكيماويات التي أفسدت طعامنا قد أفسدت هرمونات أجسادنا أيضًا.

ولكن بالتأكيد سينفرج حظ جدتي بدليل وجودي كحفيدة لها، فهل تزوجت عن حب أم صالونات؟ وضحكت (سلمى) من سؤالها الساذج، واحمر وجهها خجلاً لمَّا فكرت في أن ذلك الحظ قد ينفرج و تتزوج في عامها هذا.

جدتي و أخواتها لا يعرفن شيئًا عن ممارسة الرياضة، لا حاجة لهن بها أصلاً؛ فبرغم و جود الجارية (صُبح) إلا أن ما يبذلنه من جهد طوال اليوم في المنزل الكبير رياضة طبيعية، لكنها رياضة تقصف شباب المرء ولا تحافظ عليه؛ فأُم (سالمة) التي لم تتجاوز السابعة والثلاثين ستبدو كامرأة في الخمسين من عمرها إذا ظهرت في عصرنا..يبدو أنها علاقة متوازنة؛ شيء في مقابل شيء، و لا فَضْل لعصرٍ على عصر ولا لزمنٍ على زمن إلا فيما نصنعه نحن في أنفسنا.

●●●

الجارية (صبح)...هي أكثر شيء أكرهه هنا، لا أكرهها هي شخصيًّا لكن أكره فكرة الاستعباد؛ فكرة وجود إنسانة لا تملك من أمرها شيئًا إلا أن تخدمنا، صحيح أنها تأكل مما نأكل وتلبس قريبًا مما نلبس وحالها أفضل كثيرًا من حال عاملات المنازل بل وبعض المصانع في أيامنا؛ لكن ليس لها الحق أن تأتي يومًا لتقول لنا أعطوني باقي أجرتي وابحثوا عن غيري فلسوف أتزوج، أو لقد تعبت أو وجدت عملاً أفضل...لا مجال لهذا، إن حالها كحال عصفور القفص مقارنة بحال عصفور الشجر...لكن – ويا للغرابة – فكلاهما لا يكف عن الصدح والغناء!

هي عندنا حتى تموت أو حتى يبيعها أبي...شيء مقزز فعلاً أن ترى إنسانًا يُباع و يُشترى، أين حقوق الإنسان في هذا العصر.

لكن الغريب أنها تتعامل مع أبي بكثير من التبسط ورفع الكلفة، والأغرب أن أمي يحدث ذلك أمامها ولا تعيره اهتمامًا أبدًا.

- (سالمة)...أنتِ يا (سالمة).

وسحبها نداء أبيها الغاضب من بحر أفكارها، وهرعت إليه لترى ما وراءه، فوجدت الشرر يتطاير من عينيه عندما رآها و قال:

- هل صعدتِ إلى سطح البيت اليوم كاشفة عن وجهكِ وذراعيكِ وشعر رأسكِ؟

تلعثمت (سلمى) فقد حدث ذلك بطريقة عفوية ولم تنتبه له إلا بعد نزولها من توبيخ أمها لها، وهمَّت أن تدافع وتقول:

- لم أنتبه يا أبي، فأنا لم أخرج من بيتي على كل حال و...

وقاطعها أبوها بأن رفع يده وصفعها!

●●●

(٢٨)

لقد تحولت (سلمى)...

هذا ما قالته أسرتها وأصدقاؤها وزملاؤها...

وزاد بعض الظرفاء وقالوا؛ (سلمى) الآن مخطوفة والتي مكانها إنما هي كائن فضائي جاء ليدرس أحوالنا عن قرب.

والد (سلمى) أصبح مسرورًا بالهدوء الذي حلَّ عليها محلّ نشاطها الزائد، وعبَّر لها عن غبطته بأنها طردت من عقلها ذلك الولع بالسفر و بالأنشطة الكثيرة، في حين استغربت (سالمة)؛ إذا كان والد (سلمى) لا يرضى عن أي نشاط تزاوله ابنته فلماذا لا يمنعها عنه؟ وبكلمة واحدة منه لا تقبل النقاش؟

أما والدة (سلمى) فانفطر قلبها شفقةً على ابنتها، وعبثًا حاولت أن تجعلها تفض لها بمكنون مشاعرها و سبب تغيرها، وكثيرًا ما فكرت الأُم إذا كانت صدمتها الكبيرة في (هشام) جعلتها تتغير من إنسانة نشيطة إلى نشيطة جدًا، فأي صدمة جعلتها ترتد من فتاة شديدة النشاط إلى إنسانة متقوقعة لا تغادر المنزل إلا نادرًا؟

زملاء (سلمى) الخبثاء قالوا إن وراء الأمر حب جديد والحبيب الموعود يريدها هكذا وكل فتيات اليوم يعشن دور ال (فيمينست) حتى يأتي الحبيب أو العريس، بينما أصدقاؤها ينفون ذلك فهي لم تقابل أحدًا جديدًا هذه الأيام، بالإضافة إلى أن (سلمى) ليست بالفتاة التي

تتغيـر ﴿ يـوم وليلـة بسـبب شـاب خصوصًـا بعـد صدمتهـا الأولـى ﴿ (هشـام).

أمـا هـي فلـم تـزد علـى أن قالـت لجميـع مـن سـألها تفسـيرًا واحـدًا؛ لقـد شـبعت مـن السـفر و الترحـال وسـئمت الأنشـطة الكثيـرة والفعاليـات التـي لا طائـل مـن ورائهـا سـوى أن تصيبنـا بالإحبـاط مـن وجـود أي فائـدة وراء مـا نصنـع، وحـين سـألتها إحـدى صديقاتهـا:

- فما بالك قاطعت أصدقاءك من الشباب؟

- دراسـة مفصلـة قرأتهـا مصادفـة علـى الإنترنـت قامـت بهـا جامعـة (ويسـكونسـون) الأمريكيـة و نشـرتها جريـدة (الدايلـي ميـل) البريطانيـة تقـول أنـه لا صداقـة بريئـة بـين الجنسـين، ودائمًـا هنـاك هاجـس جنسـي ﴿ أي صداقـة مـن هـذا النـوع مهمـا أنكرنـا ذلـك.

وتفَغَّـر صديقتهـا فَاهِهَـا مـن الدهشـة وهـي لا تصـدق أن (سـلمى) تعتـزل كل هـؤلاء الأصدقـاء - وفيهـم مـن هـم أصدقـاء لهـا مـن مرحلـة الدراسـة الابتدائيـة - لمجـرد دراسـة قرأتهـا علـى الإنترنـت أيًّـا كان مصدرهـا أو مصداقيتهـا!

أمـا (سـالمة) نفسـها فلـم تأبـه كثيـرًا لهـذه التسـاؤلات؛ فلـن يخطـر علـى بـال أكثرهـم جنوحًـا ﴿ الخيـال أو جنونًـا ﴿ التفكيـر أنهـا ليسـت (سـلمى) أصـلاً.

(سـالمة) الآن ﴿ شـغلٍ كبيـرٍ عنهم...وجـدت صنـدوق الدنيا...كانـت تعيـش ﴿ بيضـة تظـن أنهـا كل العالـم ثـم فجـأة فقسـت هـذه البيضـة.

كانت تظن في الماضي أنها فتاة محظوظة...لقد أصرَّ جَدُّها لأبيها - الشيخ الأزهري - على تعليمها هي و أخواتها البنات القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، وأرغم هذا الجَدّ أبيهن على إرسالهن للكُتَّاب وهن صغيرات ليحفظن بعضًا من القرآن، فكُنَّ بذلك أحسن حالاً و تعليمًا من كثير من بنات جيلهن ومدينتهن.

هي الآن أدركت أنها كانت تقطن قعر بئرٍ مظلمةٍ فلا تعرف أنه يوجد بالدنيا نورٌ، بل لا تدري ما هو النور.

الآن هي لا تريد أن تضيع يومًا من ذلك العام بغير فائدة، هي إما في مدرجات الجامعة أو في إحدى مكتباتها أو في بيتها أمام شاشة الإنترنت تعُبُّ من المعرفة عبًّا، أصبحت شراهتها للعلم كجذوةٍ من نار ملتهبة؛ كلما ألقيت فيها قطعة حطب زادت شراهتها للمزيد منه.

لا تصدق أنها كانت بكل ذلك الجهل، ولا تصدق أن أحدًا يترك كل ذلك العلم ليلعب ألعاب الفيديو أو يجلس بالساعات يوميًّا على الكافيهات، أو أمام شاشات الفضائيات أو على مواقع التواصل الاجتماعي، بل إن عقلها يسول لها أن ترفض أن تعود لمكانها في الماضي؛ لأن عامًا واحدًا لا يكفي لأن تعرف كل ما تشتهي أن تعرف.

لم تنبهر (سالمة) في عالمها الجديد بغير هذا الانفجار المعرفي...

ولم تُدهش بالمخترعات الحديثة إلا قليلاً...ليس معقولاً أن نكون عبيدًا لِمَا صُنِعَ أصلاً لخدمتنا...هكذا فكرت (سالمة).

في البداية شُدِهَت و بُهِرَت بالتلفاز وفضائياته التي بالآلاف، ثم سريعًا ما ملَّته؛ إذ لم تستسغ فكرة أن تتفرج على أناس لا تتفاعل معهم ولا يتفاعلون معها..تتلقى منهم أداءهم ومادتهم ولا يتلقون منها ردة فعلها و تجاوبها، لم تنبهر بالمؤثرات الصوتية و لا بالخدع التصويرية إلا قليلاً، بل أحستها دنيا مفتعلة، خيال صانعها الذي يريد أن يفرضه عليها ويصادر عليها خيالها الخاص بها.

تتذكر جدتها حين كانت تجمع حولها أحفادها وتقص عليهم حواديتها الشيقة وهي تنظر في حدقات أعينهم الصغيرة لترى وقع قصصها عليهم وتفاعلهم معها...

لقد كانت أكثر متعة بكل تأكيد – قالت (سالمة) لنفسها.

فكان أن عافت (سالمة) كل قنوات المنوعات الترفيه والدراما... لا وقت لديها هذا العام للتسالي، واكتفت بالقنوات التثقيفية مثل ناشيونال جيوجرافيك وديسكفري...إنها البلورة السحرية التي طالما حدثتهم عنها جدتها في حواديتها، لكنها الآن بلورة حقيقية وترى منها الآن مشارق الأرض ومغاربها.

فيلم تسجيلي واحد عن غابة لم تزرها أو عن أرض لم تسمع عنها يثير اهتمامها أكثر من كل أفلام السينما أو برامج المنوعات.

لماذا ينبهر معظم شباب هذه الأيام بالدنيا الموازية حتى تنسيهم الدنيا الحقيقية؟ تساءلت (سالمة) كثيرًا...

نفس الزهد السابق سحبته (سالمة) للأطعمة سريعة التحضير، انبهرت بدايةً بفكرة أن تنال طعامًا مطبوخًا خلال دقائق من مجرد تفكيرها فيه، وأُخذت بدايةً بتنوعه الشديد وبطعمه الشهي الرائع، لكن سرعان ما قاطعته بعدما أحست أنها تأكل هواءً مُلَونًا أو كرتونًا مُتبَّلاً - كما يحلو لها أن تشبهه - لا يزيد بطنها إلا انتفاخًا وحموضةً، و سرعان ما اعتبرته من مظاهر الدنيا الموازية و لا ينتمي للعالم الحقيقي.

الأكل بالفعل كان مشكلة بالنسبة لها، أنواع لا حصر لها وأسماء لم تسمع عنها من قبل و طعام الصيف في موسم الشتاء وبالعكس، لكنهم جميعًا بلا طعم و لا رائحة سوى رائحة الكيماويات و مكسبات الطعم واللون المضافين... لا تدري كيف لا يدرك هذه الرائحة أحدٌ غيرها ممن حولها؟ هل اعتادوها لهذه الدرجة حتى تعطلت حواسهم عن إدراكها كما اعتادوا الضجيج والتوتر؟ لا تدري غير أنها لم يعجبها من هذه الأطعمة الجديدة عليها سوى أنواع الجُبْن المستورد التي انبهرت بها فعلاً...إذ لم تكن تعرف سوى الجبن الأبيض والجبن الرومي.

عمومًا هذا ليس عام الطعام...هذا عام العلم و المعرفة!

لذلك كان ذهاب (سالمة) إلى الجامعة بهَدَفَيّ مدرجات الدرس والمكتبات فحسب، حتى صديقات (سلمى) قلَّلَت من اختلاطها بهن وخروجها معهنّ وإن لم تبتعد عنهن، لكنها كانت تحس معهن بهوّة ثقافية كبيرة...

تتجاوب معهن في الحديث حين يتكلمن في الأمور العاطفية أو شئون المنزل أو بعض صيحات الموضة، لكن يتعطل تجاوبها هذا حين يتحدثن عن أخبار النجم فلان أو الفنانة فلانة، أو حين يتبادلن الآراء حول حلقة الأمس من برامج المسابقات و المواهب، و تصاب بالصداع حين يطول هذا الحديث لساعات – و عادة ما يطول! و يحمرُّ وجهها خجلاً حين تتغزل إحداهن صراحة في ذلك النجم أو ذاك البطل؛ أين ذهب حياء هؤلاء الفتيات؟ تتساءل (سالمة) دائمًا.

لكنها حافظت على صداقتها بهن قدر المتاح من وقتها المشغول... لا أحد يعيش في جزيرة وحده، لذلك ظلت (سالمة) هي صديقتهن التي يلجأن إليها طلبًا لمشورتها أو رميًا للسر في بئرها كما اعتدن مع (سلمى).

ففي أحد الأيام جاءتها (نهى) صديقة (سلمى) المُقرَّبة و ملامح وجهها تنطق بالجدية والحزن معًا...

– أريدك في موضوع هام يا (سلمى).

– ما بكِ يا (نهى)؟ وجهك لا يعجبني أبدًا.

– لا يصلح المكان هنا لكي أحدثك، هل تأتين عندي البيت؟

وعندما أغلقا عليهما باب حجرة (نهى) انفجرت هي في البكاء وهي تقول:

– (سلمى) أنا حامل في شهرين!

سقط فَكُّ (سالمة) السُفْلِي في حجرها من الصدمة ثم قالت:

- كيف ذلك؟ أنتِ غير متزوجة.

ردت (نهى) بعد دقائق من البكاء والشنهفة:

- ذلك هو الأمر الذي خبأته عن معظم صديقاتي وعنكِ أنتِ بالذات؛ لأنني أعرف رأيك المسبق و صدمتك في (هشام)...أنا متزوجة من (باسم) منذ عدَّة شهور عُرفيًّا!

صاحت فيها (سالمة):

- كيف...

ثم تداركت صوتها وأخفضته كي لا تسمعها أم (نهى)، ثم قالت وهي تجزُّ على أسنانها:

- كيف فعلتِ ذلك بنفسك؟

ردت (نهى) وهي لا تزال تبكِ ولكن بحدَّة أقل:

- أنتِ تعرفين مقدار ما بيني وبين (باسم) من حب، وتعلمين أن ظروفه لا تسمح بالزواج الآن وهو بعد في عامه الجامعي الأخير، وهو أمامي نهارًا في الجامعة و مساءً في الكافيه غير الرحلات والنزهات... نحن لسنا أحجارًا يا (سلمى).

ردت عليها (سالمة) بغيظ وأسنانها لا تزال تئن من العض عليها:

- ويكون الحل أن تتزوجيه عُرفيًّا من وراء أهلك؟

- ليست تلك المشكلة يا (سلمى)، فأنا كنت متأكدة أن (باسم) سيتقدم لخطبتي رسميًّا فور استلامه لأي وظيفة، لكن المشكلة أنه منذ أخبرته بأمر الحمل الذي حدث رغمًا عني وهو ثائر جدًا ومتغير من ناحيتي ويطالبني بالإجهاض.

- وأنتِ لا تريدين الإجهاض أو تخافين منه؟

- ليس هذا أيضًا، فالإجهاض ضروري في حالتي وإلا كيف سأواجه به أسرتي والناس، المشكلة هو ذلك الوجه الذي لم أره من قبل من (باسم)، (باسم) الذي كان يذوب معي رقة و حنانًا رأيت منه غضبًا لم أره من قبل أبدًا حتى أصبحت أخاف أن يغدر بي و يتنكر لي...لا أنا ولا أسرتي نحتمل فضائحًا.

- يتنكر لكِ؟

قالت (سالمة) باستنكار ثم أكملت...

- وأين أبوكِ و أين أهلك؟

- لا أستطيع إخبار أبي فهو مريض بالسكري و هذا الخبر قد يقضي عليه، و أهلي ليسوا في القاهرة ولا صلة لنا بأحدٍ منهم منذ زمن بعيد...(سلمى) أخبريني ماذا أصنع، أنا لا أحتمل الفضيحة وثقتي اهتزت في (باسم)، وحتى لو أجريت الإجهاض فما عدت آمَنُه...أنا بدأت أقرأ في عينيه مَلَلَه مني.

وشـردت (سـالمة) وهـي تتذكـر الماضـي عندمـا اشـتكت فتـاةً لأهلهـا أن شـابًّا تعـرض لهـا في الطريق بكلمـات غـزل، وكيـف ثـار أهـل الفتـاة وانعقـد كبـراء رشـيد في مجلـس عـرفي و حُكِمَ علـى أهـل الشـاب بدفـع غرامـة، ولـم تقبـل أي أسـرة في رشـيد بعدهـا تزويـج هـذا الشـاب بسـبب أنـه فَلَتَـان!

●●●

(٢٩)

اشـمأز (يوسـف) مـن نفسـه كثيـرًا، إنـه - وهـو مـن كان يظـن نفسـه متدينًـا - قـد سـقط في أقل مـن شـهر ثـلاث مـرات في أحضـان عشـيقات (جوزيـف)، و في كل مـرة يبـدأ متـرددًا في مجـرد الإجابـة علـى اتصـال إحداهـن بهاتفـه ثـم يوهـم نفسـه أنهـا سـتكون مجـرد مكالمـة عابـرة، ثـم لا يلبـث الاتصـال الهاتفـي أن يسـحبه إلـى الاتصـال الكامـل بهـن!

وفي كل سـقطة مـن هـذه السـقطات يكون في بدايتهـا في غايـة الشـهوة وفي أثنائهـا في قمـة النشـوة وبعـد نهايتهـا في منتهـى القـرف والاشـمئزاز منهـن و مـن نفسـه، هـل هـذا هـو الـزواج الـذي كانـت تتـوق نفسـه إليـه بـكل شـغف؟ فـكان يـراه كأنـه جنّـة الدنيـا؟

كان يهـزأ ممـن يقـول إن الجنـس بـلا حـب هـو عمليـة حيوانيـة مقززة لمـن كان حـيّ القلـب أو إنسـانيّ المشـاعر، فـكان ظمـأه - الـذي لـم يرتـو أبـدًا في السـابق - يقـول لـه إن هـذا كلام المحـروم ليُصَبِّـر بـه نفسـه علـى حرمانـه، وهـا أنـت الآن يـا (يوسـف) تـروي ظمـأك و تعـبُّ مـن الجنـس عبًّـا فمـا وجـدت غيـر المـاء الآسـن، أم أن هـذا هـو طعـم الحـرام بينمـا الحـلال شـيء آخـر؟

وتذكـر (يوسـف) كيـف كان ينظـر باسـتحقار للشـباب الـذي يسـقط في بئـر الحرمـان، فهـا هـو اليـوم يشـرب منهـا حتـى الثمالـة ، وأحـس بالخجـل مـن نفسـه، وبالقـرف مـن (جوزيـف) ومـن حياتـه ومـن صديقاتـه.

وسأل نفسه؛ إذا كان (جوزيف) وصديقاته ساقطين فكيف حالك أنت؟ لا...هناك فرق، هم ساقطون عن اقتناع بل لا يرون أنفسهم ساقطين أصلاً، أمَّا أنا فنَادِمٌ على ما حدث وأعتبره ضعفاً مني.

هؤلاء الأوغاد لديهم كل شيء ويتمتعون بكل شيء وليس لديهم أي قيد على أي شيء، و للمرة السبعين بعد المائة السابعة يقارن (يوسف) بينه وبين (جوزيف) و يشعر أمامه بالضآلة، هذا الفتى حقق في واقعه كل أحلامي التي كانت في النوم واليقظة معًا...لا هناك فرق! (جوزيف) خدمته ظروفه وأرض الأحلام التي ولد فيها، أما أنا...

وهنا انتبه (يوسف)؛ إنه الآن في نفس ظروف (جوزيف) وعلى أرض أحلامه، صحيح أنه حلمٌ لسنة واحدة لكنها الفرصة يسوقها إليه القدر لتغيير حاله، كيف غفل طوال هذه الأيام عن إدراك ذلك؟

وتساءل في حزن:

إذا كانت هذه فرصة شديدة الوضوح ولم أنتبه إليها إلا بعد أسابيع، فهل ساقت إليَّ الأقدار فُرصًا أخرى في حياتي من قبل فعجزت عن رؤيتها حتى طارت مني؟ هل كنت أكتفي بندب الحظ والفقر بينما الفرص تضيع و تقول:

يا رب لم سقتني إلى هذا المغفل؟

هل كنت أنتظر أن تصرخ الفرصة في أذناي و تقول:

أنا فرصة فأدرِكْني؟

وهل سأظل مغفلاً فأُضِيعُ باقي هذا العام في اللهو؟ ثم لمَّا أعود إلى كياني الأول أبكي على الحظ العثر؟ ألهذا إذن لا ينجح إلا قلة من الناس في تحقيق أحلامهم؟

هزَّ (يوسف) رأسه في عنف و كأنه يطرد عصافير التفكير المحيطة برأسه، ثم نظر إلى المرآة وقال لها:

- كنت أظن يوم أن صحوت في فراش (جوزيف) في سياتل أن هذا هو يوم مولدي الثاني...و لكن...

الآن وُلِدَ (يوسف)!

●●●

(٣٠)

الرجل هو الذي يصنع المال و ليس العكس - قال (جوزيف) لنفسه - لقد صدق (يوسف) فعلاً في وعده وأرسل لي الثلاثة آلآف دولار كما وعد، فهل فعلاً سيصدق معي في كامل وعده لي؟ أم أن هذه الدولارات التي أرسلها مجرد مُسَكِن لضميره كي يبتلع باقي المال عن رضا نفس؟

ثم سرح بعقله بعيدًا؛ ما هو الضمير؟ وإذا كان شيئًا يختلف عن وازع الدين فما هو مصدره؟ لو كنا مجرد نتاج تطور للقرد الجنوبي أو للإنسان منتصب القامة فكيف نبت لنا هذا الضمير أو كيف نشأت هذه الأديان؟ ما هذا الذي أفكر فيه؟ هل هذا أوان الفلسفة؟

إنني الآن أشد ما أكون حاجةً لإثبات وجودي، لقد أنجزت شخصية (العفريت دامون) في عامي الجامعي الأخير من أجل تحقيق الذات فحسب، الآن أنا أحتاج لإنجاز مماثل لإثبات الذات مرة أخرى و إثبات أن اختراعي الماضي لم يكن مجرد ضربة حظ، كما أنني أحتاج للمال، لا يعقل أن أترك نفسي تحت رحمة ضمير (يوسف) هذا، والطريق الآن صار أسهل فأنا أعرف طريق التواصل مع شركة بيكسار أو أي شركة مماثلة، و كل ما عليَّ فعله هو التركيز في إبداعٍ جديد.

ثم سرح بعينيه في سماء غرفته الضيقة، و أخذ يجول بخاطره في كل ما يصلح لأن يصنع منه شخصية كرتونية جديدة، طاف بالحيوانات

والطيور والحشرات والعفاريت والديناصورات وأشباه الإنسان والشخصيات التاريخية..كل شيء تم استهلاكه، و المنافسة في أمريكا لا ترحم، وما لم أقدم شيئًا جديدًا و مبتكرًا فلن يشفع لي نجاحي السابق...لكن الإبداع لا يمكن أن يتوقف، لا يمكن أن يكون عفريتي السابق مجرد ضربة حظ...

وفجأة؛ جالت بخاطره فكرة؛ إن الشوارع والحارات هنا تموج بالشخصيات التي يمكن اقتباسها، بل يوجد هنا مَن هيئاتهم وطريقة كلامهم و حركاتهم لا تحتاج لتعديل كبير كي تصبح شخصيات كاريكاتورية، وأخذ يستعرض في ذهنه بعض هذه الشخصيات التي صادفها طوال الفترة الماضية منذ التحول.

ثم ذهب خياله لأبعد من ذلك، إلى قصة كاملة بشخصياتها الكرتونية، إلى حارة كاملة متكاملة بأهلها و أحداثها و مفارقاتها فتكون قصة فيلم عن هذه الحارة.

إن حياة الناس هنا مليئة بالمتناقضات وبالمفارقات المضحكة والأخرى المبكية، و بدلاً من حالة المعاناة وأحاسيس الإحباط التي أعيشها هنا سأتأمل حياة الناس هنا لأخرج بقصتي تلك، كأنها رحلة من رحلاتي السياحية، بل لعلها أهم رحلاتي على الإطلاق؛ أعايش وأتأمل ثم أستنبط فأبدع...

ثم قام من فراشه واستبدل ثيابه وأخذ مفتاح التوكتوك وخرج يبحث عن قصته!

●●●

(٣١)

هكذا إذن عادت الحياة إلى مجرياتها الجميلة بين (نوف) و(نواف)، وتدفقت ينابيع جديدة من عسل المودة تحت أقدامهما، وأذابت حرارة الفراش طبقات الجليد التي كانت قد كست أجزاءً واسعة من حديقتهما، وبرغم أنه فِراشٌ غير مكتمل أركان الاتصال إلا أن مدارات نشوته وصوفية غيبوبته يأتون من سماء بعيدة ما طاولتها حتى سماوات أحلامهم من قبل...

وعادت الزهور لتنبت و تزدهر وتبتسم فوق شفاههما من جديد.

صارت أجمل اللحظات لهما هو ذلك الوقت الذي يختتمان به يومهما في الحديث والثرثرة الجميلة، وكلٌّ منهما مضطجع على جانبه موليًّا وجهه شطر الآخر، والكلام لا تنتهي أطرافه بينهما أبدًا حتى يغلب النعاس جفني أحدهما فيبتسم الآخر في رضا ويأبى إلا أن يشاطره أحلامه كما يستعير منه جسده ويذوب فيه كيانه.

وارتحلت بينهما الأحاديث حتى زارت ذكريات الماضي بعيده وقريبه، ودخلت مدن أحلام المستقبل و وطأت أرض المشاعر و العاطفة، ولم تنس أن تطرق أبواب العتاب على ما كان بينهما من جفوات قديمة، لكنها طرقت بلطف من لا يريد إيقاظ من كان نائمًا.

أما الأسد الذي استحوذ على الجانب الأكبر من ولائم حواراتهما الليلية فكان التفكير و التخطيط المشترك فيما سيواجهانه من أوضاع ملتبسة في ذلك العام الذي كتب عليهما أن يقضيانه كلٌّ في ثوب الآخر.

(فنوف) التي كانت تتمنى أن تكون امرأة عاملة و لو بدوام جزئي صُبَّت فوق رأسها شلالات من العمل المتواصل، و صار لزامًا عليها أن تحل محل (نواف) في اجتماعاته و مراسلاته و اعتماد أوراق أعماله، وتحول هاتف (نواف) الذي كان يزعجها من قبل عندما كان لا يتوقف عن الرنين في جيب (نواف) إلى إزعاجها هي شخصيًّا، وإلى إرباكها حين يطلب منها البت في أمور لا تفقهها فتضطر للاستعانة (بنواف) كل قليل.

و(نواف) الذي كان لا يقضي في بيته إلا سويعات قليلة ويعرف بالكاد مكان حوائجه الشخصية بات لزامًا عليه قضاء معظم يومه في البيت بل ومراقبة شئونه و متابعة الخادمتين ومربية أسيل، طبعًا بخلاف متابعة العمل عبر الهاتف مع (نوف)، واضطراره للرد على بعض المكالمات الواردة إلى هاتف (نوف) الذي هو الآن هاتفه، وعليه أن يتحمل ساعات من الثرثرة مع بعض قريباتها وصديقاتها واللواتي بدأن يلاحظن تغيرًا في طباع (نوف) وطريقة كلامها.

المشكلة الحقيقية التي واجهتهما كانت الزيارات والمناسبات الاجتماعية، فليس معقولاً أن ينعزلا عامًا بأكمله عنها، و (نواف) يرفض أن تحل (نوف) محله في جلسات أصدقائه، هي صدَّقت أن ذلك بدافع الغيرة عليها أن تجالس أصدقاءه حتى لو كانت في جسد رجل، وهو فعلاً يغار من ذلك لكنه بالطبع لم يخبرها أن هناك اسبابا أخرى وأحاديث لا يجب أن تطلع عليها كامرأة و لا تخلو منها مجالس الرجال!

و (نـوف) بدورهـا كان لديهـا أكثـر مـن سـبب لأن يمتنـع (نـواف) عـن بعـض جلسـاتها و زياراتهـا العائليـة و الاجتماعيـة، فالثرثـرة - عشـقٌ النسـاء الأول - قـد تطـال أمـورًا و فضفضـة قـد تغضـب الأزواج، وبعـض النسـاء ﭬ بعض الجلسـات يأخذن راحتهـن أحيانًـا بمـا لا ينبغـي (لنـواف) أن يطلـع عليـه ﭬ مجتمـع محافـظ كمجتمعهـم.

كان مـن الـلازم إذن أن يسـيرا علـى الحبـل، وأن ينـزلا بلقاءاتهمـا الاجتماعيـة إلـى الحد الأدنـى الـذي لا يغضـب النـاس منهمـا، فاتفقـا علـى ألا يذهـب (نـواف) إلـى أي اجتماعـات نسـائية إلا التـي تحضرهـا والـدة (نـوف) أو والـدة (نـواف) و أكبـر عـدد ممكـن مـن السـيدات العجائـز، فوجـود العجائـز ﭬ الجلسـة يفـرض عليهـا طابعًـا خاصًّـا، وأن يصطحـب (نـواف) (أسـيل) معـه ﭬ كل مـرة فتكـون حجـة مقنعـة لانصرافـه مبكـرًا قبـل أن تنفجـر دماغـه مـن الصـداع! وسـيكون (نـواف) مضطـرًّا للإصابـة دومًـا بالـزكام ﭬ أي جلسـة يحضرهـا حتـى لا يسـلم إلا مصافحـة فقـط.

أمـا (نـوف) فلـن تحضـر إلا الجلسـات العائليـة وﭬ حضـور الآبـاء وكبـار السـن، وأيضًـا سـتصاب بالبـرد والـزكام فـلا تسـلم إلا بيدهـا، واتفقـا كذلـك علـى أن يكثـرا مـن السـفر بحجـة متابعـة العمـل ﭬ الخـارج وأن (نـواف) يريـد اصطحـاب زوجتـه وابنتـه معـه.

برغـم ذلـك فقـد كان لـدى (نـواف) وقـت فـراغ كبيـر، فقـرر أن يسـتغله ﭬ قـراءة كـوم الكتـب التـي كان يشـتريها حـين يصـادف كتابًـا يعجبـه ﭬ مكتبـة مطـار أو محطـة قطـار علـى أمـل أن يقرأهـا يومًـا مـا، فـإذا مـلَّ القـراءة ابتكـر أي تسـلية لقضـاء وقتـه، فـكان أحيانًـا يعبـث ﭬ خزانـة

أغـراض (نوف)..ما كل هـذه الأشـياء! إن في خزانـات أغـراض المـرأة مـن دهاليـز و فوضـى ومقتنيـات أكثـر ممـا في عقلهـا مـن زحـام! إن (نـوف) محظوظـة مـن بـين بنـات جنسـها؛ لقـد جربـت إحسـاس البسـاطة في التفكيـر وقلـة التفاصيـل في حيـاة الذكـور.

وأحيانًـا مـا يلتقـط (نـواف) مـن خزانـة (نـوف) فسـتانًا مكشـوفًا أو قميصًـا سـاخنًا كـي يجـرب إحسـاس المـرأة بجمالهـا و بجسـدها، إنـه الآن يفهـم و يعـذر المـرأة في افتتانهـا بجسـدها وغيرتهـا علـى جمالهـا، إن المـرأة تتزيـن أحيانًـا لتعجـب الرجـل لكنهـا تتزيـن غالبًـا لتكيـد غيرهـا مـن النسـاء!

وحتـى التـي تعـرف أنهـا أوتيـت حظًـا عاديًّـا مـن الجمـال فإنهـا تتزيـن لنفسـها كـي تقنـع نفسـها بنفسـها و تشـبع جـزءً مـن غرورهـا...لا بـأس يـا (نـواف) فبعـض الرجـال للأسـف يفعلـون ذلـك – قـال (نـواف) لنفسـه...

فعـلاً إن المـرأة التـي تحتشـم في ملابسـها تبـذل جهـدًا نفسـيًّا لا يسـتهان بـه، أمـا التـي تُنَقِّـي قلبهـا مـن الغيـرة مـن غيرهـا مـن النسـاء فهـي بـلا شـك قديسـة...

ويا لصبر النساء على النساء!

واقتحمـت عليـه (نـوف) الغرفـة و قطعـت استرسـال أفـكاره تلـك، وألقـت بنفسـها فـوق أحـد المقاعـد الوثيـرة في تعـب وغضـب وهـي تصيـح في ضيـق:

– أف!

نظر إليها بدهشة وقال:

- ما بكِ؟

نظرت إليه لثوانٍ ثم انطلقت كالمدفع الرشاش:

- ما هذه الحياة التي تحيونها يا رجال الأعمال؟ ما كل هذا الصداع والتوتر؟ مطلوب منك أن تكون متيقظًا لما يقال أمامك ومنتبهًا في مكالماتك و مدققًا في أوراقك، و خلال ذلك لا يتوقف عقلك عن التفكير في كافة مشروعاتك والتخطيط لغيرها، ومشاكل مشاكل مشاكل...

سكتت ثانية ثم أمسكت رأسها وقالت: رأسي يكاد ينفجر.

ابتسم (نواف) و قال:

- تشتكين رغم قِصر المدة وأنا معك فيها يدًا بيد، أما كنتِ ترغبين في العمل؟ ها هو العمل بين يديكِ.

- كنت أرغب أن أعمل موظفة بدوام جزئي أو أن أدير عملاً بسيطًا، أمَّا هكذا؟ هذا انتحار عصبي.

ضحك (نواف) و قال:

- وهل تظنين أن المشروع البسيط سيكون كنزهة خلوية؟ ثم إن هناك من النساء من يعملن سيدات أعمال و ناجحات.

- هن بالضبط كما يعمل بعض الرجال في الطهي أو في تصميم أزياء النساء، هذه استثناءات لا تجد غالبية الرجال يقبلون عليها،

الموضوع بصراحة فاق احتمالي خصوصًا وأن مشروعاتك ضخمة ومتشعبة.

جلس (نواف) على مسند مقعدها وربت على رأسها وقال:

- ماذا نصنع، هذا قدرنا، كما أنني معك على الخط في كل ما تحتاجينه.

- الهاتف غير كاف، حتى الموظفين بدَءُوا يستغربون حكاية الهاتف هذه، أنا أريدك بجواري.

نهض (نواف) من على طرف المقعد وقال:

- كيف ذلك؟ حتى يقال إن (نواف) يستعين بزوجته ويقحمها بين الرجال في مكتبه؟

- وما العمل إذن؟ حتى لو لم تهتم بما أعانيه من جهد وتحاملت أنا على نفسي ما يفوق طاقتي، فهل ستتحمل أن أتمرن في أعمال ومشروعات بمئات الملايين؟ هل ستتحمل قرارًا خاطئًا آخر كالذي اتخذته منذ أيام في البورصة وتداركته أنت بصعوبة وبعد خسائر؟

نظرا إلى بعضهما وأخذا يفكران في حيرة، وبعد قليل قالت (نوف):

- لننتقل إلى مكتب جدة أو مكتب دبي بقية هذا العام؟

نظر إليها (نواف) في تفكير فأكملت هي:

- كثير من أعمالك تتم إدارتها من هناك، وكثيرًا ما كنت تسافر إلى هناك لمباشرة بعض الأمور، وهناك أيضًا سيكون أكثر قبولاً لتواجدك المستمر إلى جواري في المكتب.

- والمراسلات والمقابلات؟ ننقلها كلها من الرياض؟

- وضع مؤقت حتى يمر باقي العام على خير بإذن الله، وهذا أيضًا سيرفع عنا حرج الزيارات الاجتماعية التي في الرياض.

هزَّ (نواف) رأسه وبدا عليه الاقتناع و إن كان لا يزال يدير الفكرة في رأسه، ثم قال:

- على أن نعود إلى الرياض من وقتٍ لآخر، ليس معقولاً أن نترك المكتب الرئيسي عامًا كاملاً بغير متابعة.

●●●

(٣٢)

أصبحت رحلات (جوزيف) اليومية بالتوكتوك في شوارع وحارات مصر القديمة مصدر متعته بعد أن كانت مصدر شقائه، وبعد الاختناق الذي كان يملأ كيانه من الضوضاء والزحام الخانق والتلوث ثلاثي الأبعاد في الماء والهواء والطعام، وعقله الذي يكاد يفقده وهو يحاول تفسير تصرفات الناس الخارجة عن أي منطق و البعيدة عن أي توقع له كعقلية رجلٍ من أهل الغرب؛ ها هو الآن يرتدي نظارة جديدة تسجل كل هذه التفاصيل، ويضع في عقله كشّافًا يلتقط المفارقات التي قد تصادفه ليخرج منها بالشخصيات الكرتونية والمواقف الكوميدية التي يبحث عنها.

وبدأت تتبلور في عقله بعض الشخصيات ويدون في دفتره الأحداث؛ عم (متولي) رجل ستيني متهالك الصحة ويعمل رجل أمن في إحدي العمارات في أحد الأحياء الراقية، (نعيمة التريللا) امرأة شديدة البدانة وتضاريسها مترامية الأطراف وفي نفس الوقت واحدة من أشهر راقصات الأفراح الشعبية – التي تنصب شوادرها في الشوارع – وتشعل حماس الجمهور برقصها البذيء وكلمات أغانيها الأكثر بذاءة.

وجاءته فرصة لحضور أحد أفراح الخمس نجوم، (وليد) صديق (يوسف) الذي يعمل في أحد البازارات الكبرى والذي ساعده في بيع القلادة (لجوزيف)؛ مدعوٌ لحضور زفاف ابنة صاحب البازار على ابن صاحب أحد القرى السياحية في الغردقة – زواج سياحي مبارك – وبطاقة الدعوة لفردين.

وجلس (جوزيف) يسجل أفراح الأثرياء هناك.

في البداية أذاعت فرقة القاعة تسجيلاً لنشيد يتلو أسماء الله الحسنى؛ فقال (جوزيف) لنفسه إذن فهو فرح لأناس متدينين.

ثم لما دعت الفرقة العروسين لرقصة هادئة قال لعل هذا النوع من الرقص الهادئ جائز عندهم، وتمالك (جوزيف) نفسه أن يقع من على كرسيه من الضحك لما كانت هذه الرقصة على أغنية (هوتيل كاليفورنيا)؛ ماذا تفعل هنا هذه الأغنية الوجودية التي تتحدث عن تدمير الذات؟ تساءل (جوزيف)...

ثم استغرب (جوزيف) لما اشتعلت حلقة الرقص بأغاني الروك الغربية و ضحك على طريقة رقص الشباب على هذه الأغاني وطريقة تقليدهم للرقص الغربي؛ هؤلاء الناس يصرون على تقليدنا بطريقة مضحكة- قال (جوزيف) و هو يضحك في نفسه - والغريب أنهم فخورون بذلك! بل و يتلقى من يتقن بعض الحركات نظرات التقدير من الشباب و نظرات الإعجاب من الفتيات!

وهنا ساقته غريزة التباهي إلى حلبة الرقص ليستعرض بعضًا من مواهبه فيه، وكانت رقصة واحدة على أغنية روك واحدة كفيلة له بأن يطفئ كل من حوله، واستحوذ (جوزيف) على الأضواء وعلى نظرات الإعجاب من كل تاءات التأنيث! حتى نبتت مشاعر الحسد له في قلوب من حوله من الطواويس.

ثم اندهش (جوزيف) لما بدأت الفرقة تعزف تشكيلة من أغاني المهرجانات الشعبية و أغاني التكاتك في حفل زفاف لناس من أهل الصفوة، و تعجب من رقص بعض الفتيات المحجبات على هذه الأغاني بطريقة لا تخلو من الخلاعة!

وأخذه الغرور الذي أشبعه في وصلات رقصه الغربي إلى مجاراة الراقصين كي لا تنحسر عنه الأضواء، وهنا خانته مفاصله تمامًا وفشل خَصْرَه في تجميع حركة واحدة من حركات الشباب الذي أخذ يتلوى حوله في تلقائية، ففضل الانسحاب وهو يقرر أن يضيف بند الفروق في الرقص إلى نظريته الأنثربولوجية!

ثم لما جاء المطرب ثم الراقصة ثم عازف العود وأغانيه الشرقية القديمة أدرك (جوزيف) أن أصحاب الفرح يريدون إرضاء جميع الأذواق، ويريدون مساعدته في كتابة قصته الطريفة!

وعاد (جوزيف) لتسجيل يومياته في الشارع، وسجل بعض الوظائف الغريبة التي يعمل بها بعض الناس؛ رجلٌ يحمل مبخرة ويطوف بها على المحلات و لمقاهي ليصيب من فيها بالاختناق من بخوره القوي ومع ذلك يحصل منهم على بقشيش، وماسح لزجاج سيارات لا تحتاج لمجهوداته في إشارات المرور، وبلطجي موقف سيارات الأجرة مع أنه قصير ونحيف البنية جدًا ووجهه ينطق بكل أعراض إدمان المخدرات وسوء التغذية، وشاب بائس يقود عربة يجرها حمار يقوم بإفراغ محتويات صناديق القمامة على الأرض ويبعثرها لينتقي منها الورق والزجاج و البلاستيك، وأهالي بعض الشوارع لا يوبخونه بل ينفحونه

مبلغًا شهريًّا كي يقوم بعملية الفرز هذه داخل الصناديق ولا يبعثرها على الأرض.

ثم ابتكر جوزيف من خياله شخصيات أوحاها إليه حاله، رجلٌ مصري تزوج من أوروبية شقراء و من إفريقية سمراء و أنجب من الأولى ولدًا أوروبيًّا الملامح تمامًا و من الأخرى ولدًا أسودًا البشرة كالأبنوس، والأخوان جاءا ليعيشا في حارة فيلمه ويمرّا بالمفارقات المضحكة...يا له من خليط رائع و جديد تمامًا على عالم الكرتون الأمريكي.

ثم أوحت إليه عمليات الاستبدال التي حصلت له ولباقي رفاق القلادات بفكرة أكثر ابتكارًا؛ ملك من التاريخ الفرعوني وقائد من جيش الرومان الذين غزوا مصر ووزير فاطمي و أمير من الأسرة العلوية، وقد بعثوا من صفحات التاريخ وحلّوا محل بعض أهل الحارة من البسطاء، وعليهم أن يعيشوا في مصر الغريبة عنهم لمدة عامٍ مثلاً...

تخيل القائد الروماني مكان فارز القمامة!

والملك الفرعوني مكان ماسح زجاج السيارات!

والوزير الفاطمي محل حامل المبخرة!

رائع و مبتكر؟ قال (جوزيف) لنفسه...

الحقيقة يا (جو) أنه كله مستوحى مما حولك...هل صحيح أن عقل الإنسان يعجز تمامًا عن أن يبتكر شيئًا بغير مصدر يوحي له؟

هل فعلاً يستحيل على عقل الإنسان أن يبتكر أي فكرة من عدم؟

هـل فعـلاً كل الابتـكارات و الاختراعـات و الأفـكار بـل والمواد الفنيـة والأدبية...كلها لهـا مصـدر أولـيّ أوحـى لصاحبهـا بهـا؟ حتـى الحيوانـات الخرافيـة إنمـا هـي تركيـب لأجـزاء مـن مخلوقـات أخـرى؟

وعبثًـا حـاول (جوزيـف) أن يعثـر علـى ابتـكار واحـد نبـت ـِ2 عقـل مبتكـره مـن عـدم، هـل هـذا وقـت الأنثربولوجيـا يـا (جـو)؟ هيـا لتكمـل عملـك ـِ2 البيـت.

●●●

وهكـذا يجمـع (جوزيـف) حصيلـة ملاحظاتـه، وكل ليلـة يلجـأ إلـى غرفتـه وسـط اسـتغراب أمـه و أختـه اللتـان اعتادتـا مـن (يوسـف) أن يقضـي أمسـيته إمـا ـِ2 المقهى أو أمـام التلفـاز، ويـدون (جوزيـف) مـا رآه ويرسـم شـخصياته ويجمع المفارقـات والنكات التـي يطلقهـا النـاس بعفوية، ويجالـس أصدقـاء (يوسـف) ويجمـع قفشـاتهم و حواديتهـم و سـخريتهم مـن واقعهـم...

هـؤلاء النـاس نصـف كلامهـم نكـت عفويـة - قـال (جوزيـف) لنفسـه، نحـن الأمريـكان نظـن أنفسـنا خفيفـي الظـل حتـى نـرى المصريـين!

ولكـي يسـتطيع (جوزيـف) التركيـز ـِ2 عملـه كان عليـه أن يتخلـص مـن صـداع وسـماجة الجـار (أبـو سـهير).

لا بأس من بعض التسلية و المرح!

ومرحبًا ببعض الطرائف يضيفها إلى قصة حارته.

خزن (جوزيف) في الفريزر بقايا رُءُوس و قشور وجبة من الجمبري كان قد اشتراها وعزم أمه وأخته عليها، كيف ستأتي اللحظة السانحة لتنفيذ خطته؟ علينا إذن مراقبة هذا الجار واستطلاع جدوله الأسبوعي.

يوم الأحد يخرج (أبو سهير) للقاء أصدقائه على المقهى و تستغل زوجته ذلك الوقت لتأخذ حمامها الطويل دون أن يتململ منها.

ما إن تأكد (جوزيف) من خروج الرجل و أغلقت زوجته شباك الحمام المطل على المنور استعدادًا لحمامها الطويل حتى أسرع (جوزيف) لتنفيذ خطته وهو يتمنى أن يصدق حدَسَه في أن رجلاً خاملاً كأبي سهير لن يغلق وراءه بالمفتاح، وأن باب شقته من التهالك بحيث تنجح خطته.

وبالفعل أخذ (جوزيف) عبوة مياه غازية من البلاستيك مقصوصة من منتصفها بشكل مدبب، وأعمل في حشر طرفها المدبب عند لسان باب الشقة، وبقليل من الجهد نجح طرف العبوة في إزاحة اللسان وفتح باب الشقة.

تسلل (جوزيف) و إثارة المغامرة تملأ كيانه أكثر من أي رحلة سبق له القيام بها، وأحضر كُرسيًّا تحت مروحة صالة الشقة وصعد عليه، ورفع علبتها ودس فيها كيس بقايا الجمبري وأحكم غلق العلبة وتأكد أن المروحة تعمل بلا صوت غريب ثم سارع بمغادرة الشقة.

يومان اثنان وعلا عراك الزوجين على هذه الرائحة النتنة التي

لا يعرفون لها مصدرًا، وكل يوم يقلبان الشقة رأسًا فوق عقب ويرميان منها أي شيء يشكان فيه ولكن ظلت الرائحة العفنة هي سيدة الموقف، وغسلت الزوجة الشقة بكل ما تعرفه من مطهرات بل وعاونها (أبو سهير) بكل جهده والشقة لا تزيد إلا نتانة، ومهما حاولا تهوية الشقة وتجديد هواءها بواسطة المروحة فإن ذلك لم يجدِ إلا في نشر وتوزيع المزيد من الرائحة.

وبالطبع انصرفت شلة الكيف عن الحضور وتوقف التسجيل العالي عن الإزعاج و كأن سماعاته سدت بسبب الرائحة.

وعلا عراك الزوجين من جديد ولكن تعاركا هذه المرة أين يذهبان ويتركان الشقة و ليس لهما مأوى آخر.

واستمتع (جوزيف) بالتفسيرات الغريبة التي أطلقها الناس لتفسير هذه الرائحة الغامضة، والتي لم تخل من حواديت العفاريت أحيانًا، ولولا أن (أبو سهير) يقطن في طابق علوي لنقَّب الناس أرضية الشقة بحثًا عن قتيل تعفنت جثته لو كان يسكن في الطابق الأرضي.

وتغلبت أسرة (يوسف) - كما تغلب باقي الجيران - على الرائحة بحرق البخور ليل نهار.

وبذلك كان يأوي (جوزيف) إلى غرفته لإنجاز قصته ورسوماته ومزاجه في قمة الانتشاء بعد أن نجح في إخراس والانتقام من ذلك الجار المؤذي.

لكنه لم يحاول أن يفكر كيف سيتخلص من جسم الجريمة خصوصًا وأن الرائحة بدأت تؤذي الجيران بحق.

●●●

وذات ليلة أحس (جوزيف) و كأنه يختنق و هو نائم، واستيقظ على صرخات (سارة) وأمها و تجاوبت معهما صرخات الجيران، وأفاق ليدرك أن حريقًا شبّ في العمارة، وألجمته المفاجأة وهو الذي لم يعتد التعامل مع المواقف الصادمة تلك، و وقف مذهولاً لا يحرك ساكنًا، حتى اقتحم الشقة بضعة شباب من شباب الشارع وحملوه هو والأم والأخت، وفوجئ (جوزيف) و هو يجد نفسه محمولاً على كتف (أبي سهير) أى خارج العمارة، واستمر (جوزيف) في ذهوله أسفل العمارة و هو يراقب الشباب الذين تكاتفوا في إخراج أهل العمارة منها و إطفاء الحريق في أسرع وقت...

- يدك معنا يا (يوسف).

- حرام عليك، دعه، إن الصدمة العصبية ليست بسيطة.

واستمر الشباب و رجال الشارع يتحركون في تناغم وكأنهم مدربون على مواجهة مثل هذه المواقف من قبل، و في أقل من نصف ساعة كانوا قد أطفأوا النيران التي شبت في الطابق الأول حتى خمدت النيران قبل أن تصل سيارات المطافئ.

وظن (جوزيف) أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، لكنه وجد الرجال يعاينون الشقق المتضررة من آثار النيران أو آثار الدخان

ويحصـون الخسـائر، والشـقق التـي لا تصلـح للسـكن في وضعهـا الحالـي – ومنهـا شـقة (جوزيـف) وأسـرته – ينـزل أصحابهـا في ضيافـة الجيـران مـن العمـارات المجـاورة حتـى يتم إصـلاح الخسـائر، وهكـذا وجـد جوزيـف نفسـه في ضيافـة (سـعيد) صديق (يوسـف) والـذي ليس لـه أخـوات بنـات، في حـين حلَّـت الأم و (سـارة) في ضيافـة عـم (متولـي) – حـارس الأمـن متهالـك الصحـة – الـذي يعيـش مـع زوجتـه وآخـر بناتـه التـي لـم تتـزوج بعـد.

وفي صبـاح اليـوم التالـي مباشـرة بـدأت أعمـال الصيانـة وإصـلاح الخسـائر، وتكافـل أهـل المنـزل في جمـع مـا يقـدرون عليـه مـن التكاليـف، أمـا الباقـي فتكفـل شـيخ المسـجد بدعـوة أهـل المنطقـة للمسـاهمة فيـه؛ كلٌّ بمـا تجـود بـه نفسـه، و سـاهم في تقليـل هـذه التكاليـف أن كثيـرًا مـن عمـال الإصلاحـات و الصيانـة كانـوا مـن أهـل الحـارة، فمنهـم مـن تقاضـى أجـرًا رمزيًّـا ومنهـم مـن لـم يتقـاض شـيئًا.

وهنـا انتبـه (جوزيـف) أنـه لـم يكـن يـدوِّن ولا يرسـم إلا كوميديـا السـلبيات فقـط، وأن هـذه السـلبيات ركامٌ يغطـي معدنًـا مختلفًـا لـم يـره إلا في هـذه الحادثـة.

وفي بيـت (سـعيد) عـرف (جوزيـف) معنـى الضيافـة والتكافـل... (سـعيد) صديـق (يوسـف) منـذ الطفولـة، و والـده كان يعمـل أيضًـا في العـراق حيـث عـاش (سـعيد) عـدة سـنوات هنـاك، و عايـش والـده نفـس محنـة والـد (يوسـف) و أهـوال رحلـة الهـروب مـن العـراق.

وبدأ (جوزيف) في تغيير نظارته التي كان يرتديها وبدأ يغير بعضًا من سيناريو وأحداث قصته.

وفي وقت راحة العمال تسلل (جوزيف) إلى شقة (أبو سهير) وسارع بانتزاع كيس الروائح من علبة المروحة، وارتبك لما صادفه (سعيد) في الشارع وهو يحمل ذلك الكيس قبل أن يتخلص منه، سأله عن تلك الرائحة البشعة، لكنه تمالك نفسه وفسرها بأنه كيس فسد في ثلاجتهم بعد أن غادروا شقتهم.

وفي أقل من أسبوعين كان يعود هو وأسرته إلى شقتهم و قد حمد الجميع الله أن الحريق لم يستمر إلا قليلاً فلم يؤثر على أعمدة الخرسانة؛ الحمد لله، قدّر ولطف.

ورنَّت كلمتا القدر واللطف في أذني (جوزيف) في سخرية، إنه تفسير جديد على عقله، لكنه بالفعل يفسر حجم الخسائر المحدود، بل ويفسر نجاة من ينجو من حوادث مميتة و يخرج منها بغير خدش واحد، لكنه لا يفسر لماذا يختص اللُّطف أُناسًا بعينهم دون غيرهم - هكذا قال (جوزيف) لنفسه.

وأفاق (جوزيف) من أفكار القدر و اللطف على منظر بعض الشباب يزينون الشارع بأفرع من الإضاءة و أوراق الزينة الملونة وبعض الفوانيس، وظن (جوزيف) أن أهل الشارع سيقيمون (بارتي) بمناسبة انتهاء إصلاح العقار و عودة أهله إليه، لكنه عرف أنها زينة للاحتفال بقدوم ذلك الشهر الذي يقدسه المسلمون.

وأسقط في يد (جوزيف)؛ ماذا سيصنع في رمضان!

(٣٣)

انتهـز (حسـن) فرصـة أن يصفـو أبـاه (الشـيخ البـرغـواطـي) وأن يعطيـه وجهًـا أو بعـض وجـه، لقـد كانـت الأسـئلة لا تـزال تتزاحـم في ذهنـه ويريـد لهـا جوابًـا، ولـم يكـن ليجـرؤ أن يسـأل أبـاه إلا بعـد أن يطيـب نفسًـا مـن ناحيتـه.

وفي ليلـة صفـت فيهـا السـماء كمـا صفـا فيهـا مـزاج الشـيخ أيضًـا انتهـز (حسـن) الفرصـة وقـرر أن يدخـل في صلـب الموضـوع مباشـرة دون تمهيد...هـو يعلـم أن أبـاه لا يحـب المراوغـة.

- أبـي؛ أريـد أن أسـتفهم عـن أمـرٍ واحـدٍ يشـغل بالـي مـن يـوم الشِعْرَى والقلادات.

نظـر إليـه الأب طويـلاً وقـد أقطـب جبينـه حتـى ظـنّ (حسـن) أنـه قـد أسـاء التوقيـت، لكـن أبـاه بـادره وقـال:

- على ألا تكون أسئلة فيما تحويه الخزانات من أسرار.

فبادر (حسن) قائلاً:

- لا لا أبدًا أبدًا، لا فضول بعد اليوم.

وسكت لحظات ثم قال:

- مـا يحيرنـي فعـلاً هـو أننـي دهشـت مـن حجـم مـا في الخزانـات مـن قـوة، إن طلسـمًا واحـدًا في خزانـة واحـدة قلـب دنيـا بعـض الأشـخاص،

و(برقان) يصنع الأعاجيب ويسافر عبر ممرات السماء وبوابات المجرات و يأتينا بالخبر من أقصى الأرض بل ومن الماضي أيضًا، وأنت تتحكم فيه يا أبي كأنه ابن لك أو خادم عندك.

سكت (حسن) فأشار إليه أبوه أن يسترسل فقال:

- لا أصدق أن كل هذا العلم وكل هذه القوة لا وظيفة لها إلا مساعدة بعض الناس في فك سحرهم أو صرف مسّهم أو حسدهم، إنني و قبل أن أحيط علمًا بأي شيء مما في هذه الخزانات قادر بحمد الله على فعل ذلك، فلا بد أن هناك أمرٌ أكبر وراء هذا العلم.

سكت الأب حتى ظن (حسن) ألاّ إجابة عنده، ثم تكلم الأب وقال:

- قد يكون الصواب ألا أجيبك إلا بعد أن تبدأ في طريق تلك العلوم، لكنك قد لا تُمنح هذه الفرصة فيظل السؤال يأكل صدرك، لكنه على كل حال سؤال ذكي و يستحق أن أنوّه لك عن بعضٍ من إجابته.

وسكت الشيخ لثوانٍ و ظهر الارتياح على وجه (حسن)، وأكمل الشيخ:

- لن أعطيك إجابات كاملة وإنما هي مجرد إشارات، ولا تسألني عن أي تفاصيل، اتفقنا؟

- اتفقنا.

- هل تظن أن أهل السحر الأسود وأعمال الضرر لا دور لهم إلا استعراض قوتهم في الربط والضرر والمرض وأعمال الخوارق؟ كلاًّ؛ إن لهؤلاء يومًا موعودًا يجتمعون فيه تحت راية كبيرٍ لهم، فيُخرجون أقصى ما في جعبتهم من أفاعيل و أعاجيب تفتن الناس لتجعلهم أتباعًا لذلك الكبير، هنا يأتي دورنا أنا مع سائر نظرائي أو أي وريث لنا، لنجتمع نحن أيضًا ولكن تحت الراية الأخرى ويكون دورنا أن نبطل هذه الأعاجيب ونطفئ نارها و نزيل غشاوتها من على أعين الناس، وما هذا الذي نصنعه اليوم- نحن أو الفريق الآخر - إلا تدريبات، كأنها تمارين لياقة نبقي بها جذوة ذلك العلم متقدة في صدورنا.

- و لكن يا أبي...

قاطعه الأب بإشارة من أصبعه و قال:

- ها أنت تخالف شرط ألا تسأل في التفاصيل.

- لن أسأل في تفاصيل لكنه سؤال آخر؛ أنت تصر على السكن في هذا المكان النائي، وأظن باقي النظراء كذلك، فهل لذلك أي مغزى؟

- وهل لنا أن نظهر ونخالط الناس إلا بعد أن يخالطهم هو ويخلط عليهم بباطله؟

ثم قام الأب وانصرف قاطعًا على (حسن) أي مجال لسؤال آخر.

●●●

(٣٤)

عَدَل (يوسف) عن خطة السفر والسياحة التي كان ينتويها، إنه الآن في مرحلة إثبات بل تحدي الذات، الفرصة الذهبية لتحقيق أحلامه في أرض الأحلام.

كان يستطيع ببساطة أن يرسل خطابات شكر إلى (حسن) و(برقان) وشكر خاص (لجوزيف) على هذه الحياة الممتعة و لا يعيدها له أبدًا، ويتخلص من السِبْحَة المسحورة فيحرقها أو يهشمها أو حتى يلقيها في المحيط، لكنه فعلاً يأبى أن يأكل المال الحرام.

كما أنه لا يضمن أن يعاقبه الله من جنس عمله ويسلط عليه طلسمًا جديدًا من طلاسم (حسن) و (برقان) فيصحو يومًا ليجد نفسه (غطَّاس مَجَارِي) أو (نَاسِك هِنْدِي) في معبد يقدس الفئران والأسوأ أن يجد نفسه سجينًا في سجن معسكر ٢٢ في كوريا الشمالية أو نزيلاً غير مرحبٍ به في أحد السجون العسكرية في بلد عربي.

هو أيضًا يفتقد أمه وأخته بشكل كبير و لا يملك حتى الاتصال بهما هاتفيًا، ولا يتخيل نفسه محرومًا منهما للأبد.

رجع (يوسف) إلى شقة سياتل الفاخرة و دخل غرفة المكتب التي في الطابق السفلي من الشقة و جلس إليه؛ لن يخرج قبل أن يفتح الله عليه بفكرة تصلح للتنفيذ فلا ينتهي العام إلا وقد بنى نفسه ماديًا، لا بأس أن يستفيد من مال (جوزيف) في تجارة ما، سيتشاطر معه الأرباح، لكنه لم يدرِ كيف سيتقاسم معه الخسائر إذا خسر المشروع!

ومضى (يوسف) يستعرض في رأسه كل المشاريع الممكنة؛ التفكير هذه المرة يختلف عن أيام التفكير في مشاريع التوكتوك و البلياردو وتنس الطاولة، يستطيع أن يفتتح مطعمًا، أو أن يُصَدِّر كبد البقر إلى مصر؛ هم هنا لا يأكلونها عادة وسيحصل عليها بأسعار زهيدة، ويمكنه أن يستورد من مصر خضروات أو فاكهة في مقابلها، لاحظ (يوسف) أن كل أفكاره تنصبّ في بند المعدة، ولاحظ أيضًا أنه لا يفقه شيئًا في أساسيات التجارة والمشاريع، لا بأس فلا أحد يولد خبيرًا، لكن الوقت ضيق و ليس أمامه إلا باقي العام ليخرج بنتيجة مربحة، هو إذن لا يحتاج إلى مشروع تقليدي بل إلى خبطة كخبطة (جوزيف) و عفريته، أو إلى اختراع ناجح وهو آخر علاقته بالعلم دروس الفلسفة.

ومرت ساعات و (يوسف) يقلب أفكاره ذات اليمين وذات الشمال ولا جديد، حتى بدأ اليأس يزحف إلى قلبه، وفجأة...قفزت إلى عقله فكرة وكأنها كُرَة ركلها أحد الأطفال لتصطدم برأسه؛ إذا كان هو عاجز عن استنبات فكرته الخاصة فلِمَ لا يتبنَّى أفكارًا صديقةً؟

(سعيد) – صديق الطفولة وابن رفيق والده في رحلة الهروب من حرب العراق – استمر لمدة عام يصدع رأسه بخصوص فكرة عَقَار لعلاج الإدمان...أي إدمان، حتى إدمان العادة السرية أو مواقع التواصل الاجتماعي، وبرغم تخصص (يوسف) الأدبي فإن إلحاح (سعيد) في الكلام عن عقاره جعل (يوسف) يدرك قدرًا لا بأس به عن فكرته، وفي المقابل حاول (سعيد) تبسيط فكرته لأقصى درجة كي تجذب انتباه (يوسف)...

- الدوبامين...الخلاصة في الدوبامين.

هكذا كان يبدأ (سعيد) كلامه دائمًا...

- مواد الإدمان ترفع مستوى الدوبامين بشكل هائل في الدماغ مسببة له قدرًا رائعًا من السعادة، المخ المغمور بالدوبامين يفزع من هذه الكميات من الدوبامين فيقوم بتعطيل بعضًا من مستقبلات الدوبامين ليريح نفسه من هذا العمل الزائد، ولكي يشعر المدمن بنفس شعور النشوة السابقة بعد تدمير هذه المستقبلات فإنه يلجأ لمزيد من الجرعات التي ترهق المخ من جديد، وهكذا في حلقة مفرغة حتى ينهك المخ ويتدمر.

- وماذا يصنع عقارك؟

وهنا يتوه عقل (يوسف) الأدبي في كلام (سعيد) العلمي عن كيمياء المخ وقدرة عقاره على فصل هذه المتلازمات عن بعضها، ويجد عقله يتساءل عن علاقة (سعيد) بالعقاقير بالرغم أنه لم يتخرج لا في طب ولا في صيدلة، بل هو دارس للعلوم قسم كيمياء ويعمل في معامل وزارة الصحة...لا عجب؛ فأغلب الفلاسفة ليس بينهم دارس أكاديمي للفلسفة إلا قليل منهم...

ثم يفيق (يوسف) من تفكيره في معضلة التخصص و الإبداع على شكوى (سعيد)، إذ ترفض أي جهة في مصر تبني مشروعه والمجازفة بتجربته.

- وهل تظن أن مراكز الأبحاث الدولية والجامعات العالمية بجيوش باحثيها في غفلة عن هذه الفكرة؟

- الفكرة كلها اكتشفتها بالصدفة، الصدفة وراء نصف اكتشافات العالم، بالضبط كما ساقت الصدفة لاكتشاف مفعول الفياجرا والبنسلين، أو كما قاد الخطأ إلى اكتشاف عود الثقاب أو مادة التيفال أو فرن المايكروويف...إلخ.

لكن قَلَّ من يمتلك عينًا تلاحظ.

- وكيف جاءت صدفتك؟

يضحك (سعيد) وهو يقول:

- من صديقي العَطَّار المدمن...

ثم يستطرد...

- عندما تضيق به ذات اليد عن شراء الكيف كان يذهب إلى محل عطارتهم و يخلط مجموعة من الأعشاب غريبة الأسماء ويتصبر بها حتى تفرج، ومن هنا جاءتني فكرة أن هناك مادة في هذه الأعشاب تريح العقل من إلحاح الدوبامين، وعَمِلتُ لسنوات مستغلاً عملي في معامل الوزارة، ففوجئت بنتيجة عكسية؛ أنها تعالج تعطيل حساسات الدوبامين في المخ، بنظام (دَاوِنِي بالتي كانت هي الداء)...

ثم يعود (سعيد) ثانية للغرق في شرح تفاصيله العلمية.

وبقـي العقـار حبيـس أدراج عقـل (سـعيد)، ومـن وقـت لآخـر يحـاول تسـويق الاختـراع بالداخـل أو بالخـارج بـلا فائـدة، بـل عوقـب مـرة بأنـه استعمل معامـل الـوزارة في عمـل خـاص بـه، وبـين المحـاولات الفاشـلة تلك يدخـل (سـعيد) في حـالات اكتئـاب محترمـة يكـون (يوسـف) مُلزَمًـا بحكـم الصداقـة أن يتشـاطرها معـه، حـان الأوان يـا (سـعيد) أن نتشـاطر الأربـاح أيهـا المختـرع الكئيـب!

وسـحب جـرس البـاب(يوسـف) مـن أفكـاره، غريبـة؛ إن موظـف الأمـن لـم يخطـره بقـدوم أحـد لزيارتـه، علـى كل حـال فالطـارق ليـس شـخصًا غريبًـا، (نيكـول) التـي اتصلـت بـه يـوم أن قـرر مغـادرة سـياتل إلـى لـوس أنجلـوس ونيويـورك ولـم يـرد علـى اتصالهـا؛ إنهـا الآن تقـف وراء بـاب شـقته.

وقـف (يوسـف) ينظـر في تـردد و دهشـة للشاشـة التـي تعـرض مـا تصـوره الكاميـرا المثبتـة ببـاب شـقته، إن (نيكـول) تـدق الجـرس في إصـرار وواضـح أنهـا قـررت ألا ترحـل حتـى تقابلـه، لقـد عاهـد (يوسـف) نفسـه علـى أن يكـون لـه مـن اسـمه نصيبـه مـن العفـة، ولكـن واضـح أن (نيكـول) تصـر علـى أن يكـون لهـا نصيبهـا الخـاص بهـا هـذا اليـوم!

لكن ملامحها الحزينة لا توشي أبدًا بأنها جاءت بحثًا عن المتعة.

فتـح (يوسـف) البـاب فدخلـت (نيكـول) ووقفـت صامتـة لثـوانٍ ثـم انفجـرت فجـأة في البـكاء وهـي تقـول:

- (جوزيف)؛ لقد فقدت كل شيء!

ثم ارتمت في أحضانه وراحت في وصلة طويلة من البكاء والتهنّف، و(يوسف) يقف مذهولاً ويسترجع من ذاكرة (جوزيف) موقع (نيكول) من الإعراب في حياته، بعد لحظات أدرك إنها صداقة مخلصة لم تخرج عن حدود البراءة إلا قُبْلَة قديمة قررا بعدها أنهما أصدقاء فحسب، وصارا الصديقين الأقرب يحكي كل منهما للآخر عن حياته حتى جوانبها العاطفية بل والحميمية.

هدأت وصلة (نيكول) من البكاء فرفعت رأسها عن كتفه ومسحت بأصابعها آثار بكائها عن ملابسه ثم قالت وملامح البكاء لا تزال عالقة بعينها و أنفها و فمها:

- هل لديك بيرة؟

- أنا آسف يا (نيكول) لكني تعلمت خلال سفري الأخير أن أقلع عن الشراب.

استغربت و قالت:

- وما علاقة الشرب بالبيرة؟

تدارك (يوسف) كلامه فقال:

- أقصد أقلعت عن كل ما هو كحوليات، هل أحضر لكِ عصيرًا ؟

- قهوة لو سمحت.

أحضر (يوسف) كوبين من القهوة وذهب إلى حيث تجلس (نيكول) في صالة الاستقبال الواسعة فجلس أمامها وأعطاها كوبها، فانطلقت هي في الكلام من قبل أن يسألها:

- لـم أكـن أقصـد أبـدًا حـدوث ذلـك الحمـل، صحيـح أن (جيمـس) وأنـا اتفقنـا علـى أننـا غيـر مستعدين لحـدوث ذلـك إلا بعـد الـزواج الـذي اتفقنـا أن يكـون بعـد الترقيـة التـي ينتظرهـا (جيمـس) في عملـه، لكـن الحمـل بالطبـع لـم يكـن مسـئوليتي أنـا وحـدي، كنـت مسـتعدة أن أتحمـل ثورتـه علـى أنهـا مجـرد تنفيـس عـن غضبـه ثـم نفكـر سـويًّا فيمـا يجـب أن نفعلـه، لكنـه بـكل نذالـة هجـر الشـقة وتـرك لـي مظروفًـا مـن المـال و رسـالة يُحملنـي فيهـا مسـئولية مـا حـدث وأن هـذا المـال تكاليـف عمليـة الإجهـاض و أنـه بذلـك يخلـي مسـئوليته، بـل وطلـب مـن عملـه أن ينتقـل إلـى مكتبهـم في فلوريـدا.

ثم أخذت تبكي ثانية لكنها استمرت في الكلام وسط دموعها:

- أكثـر مـا يجرحنـي أنـه عاملنـي كأننـي عاهـر ولسـت حبيبتـه التـي طالمـا حلـم معهـا بالمسـتقبل الـذي نبنيـه سـويًّا و بطفلـين يكبـران ليذهـب أحدهمـا إلـى هارفـارد والآخـر إلـى سـتانفورد.

اندمج (يوسف) مع قصتها فقرر أن يجاريها وقال:

- حدث كل ذلك وأنا مسافر في الشهور الأخيرة؟

- لقـد كنـت فعـلاً بحاجـة إليـك وقتهـا، لكننـي قـررت أن أتحـداه وأن أحتفـظ بطفلـي وأن أتولَّـى تربيتـه وحـدي حتـى أثبـت لـه ولأسـرتي أننـي قـادرة علـى الحيـاة بدونهـم، ولكـن...

ثم دخلت في البكاء من جديد و هي تقول:

– ولكن الشركة التي كنت أعمل بها استغنت عنِّي وعن مئات الوظائف في عملية إعادة الهيكلة، وهكذا وجدت نفسي بلا مورد، فأجريت عملية الإجهاض حتى لا أرى طفلي يذهب إلى أسرة بديلة أو إلى سكة التشرد بدلاً من الذهاب إلى هارفارد، وهكذا وجدتني بلا عمل ولا طفل ولا حبيب، و صِلَتي مقطوعة بأسرتي منذ فترة طويلة كما تعلم، لم يبق لي سوى مجموعة من الأصدقاء يتناقصون واحدًا تلو الآخر بأن يذهب كل منهم وراء رزقه أو أحلامه...لا أريد أن أصحو يومًا فأجد نفسي مثل جارتنا القديمة (مدام مارجريت) عندما وجدت نفسها في الخمسينات من عمرها بلا أسرة ولا زوج ولا أصدقاء ولا وظيفة لها في الحياة سوى تلقي معاشات الضمان الاجتماعي؛ فأنهت حياتها في لحظة يأس. أنت تعرفني فتاة محبة للحياة و أكره أن أسقط فريسة للاكتئاب الذي يبتلع الناس هذه الأيام كأنه وباء، لقد أصبحت أستيقظ أحيانًا في الليل مرعوبة، و تزورني الكوابيس بانتظام كأنها مسلسل تلفزيوني يومي، تمر عليَّ الوحدة في المساء كأنها موجة من الحُمى...ساعدني يا (جو) كي أخرج من كبوتي.

قال (يوسف) وهو يتقمص شخص (جوزيف):

– بكل تأكيد يا (نيكول)، أنتِ أعز صديقة لي.

– أنا أحتاج لأن أقيم عندك لفترة حتى أعثر على عملٍ جديد، فبخلاف أن الوحدة تقتلني فأنا بصراحة لا يمكنني الاستمرار في دفع إيجار الشقة التي أقيم فيها.

فوجئ (يوسف) بهذا الطلب الغير متوقع، هل تريد أن تأتي لتقيم هنا في غرفة و أنا في غرفة أخرى والشيطان يجلس في الردهة؟ صحيح أنها و (جوزيف) أصدقاء بلا علاقة جسدية و أن الآلاَف هنا يؤجرون غرفًا في شققهم ليجدوا من يشاطرهم تكاليف الحياة وأحيانًا ما يكون هذا الشريك من الجنس الآخر، لكنهم لا يبالون عادةً إن قامت بينهم أي علاقة، الجنس بالنسبة لهم كتناول الطعام ، فهل سأصمد أمام هذا الإغراء.

لكنه لم يستطع أن يرفض طلبها وهي في هذه الحال، ولا أن يجرح كرامتها فيعرض عليها مالاً تسدد به احتياجاته؛ فقال لها :

- متى تريدين أن نذهب لجلب أغراضك؟

●●●

(٥٣)

وقعت صفعة والد (سالمة) على قلب (سلمى) قبل أن تقع على وجهها، إنها لم تعتد حتى أن ينهرها أبوها، ولم يسبق له أن رفع يده عليها حتى وإن كانت مخطئة.

واعتصمت في حجرتها رفضًا لما جرى وبكاءً من عقوبتها وهي ترى أنها لم ترتكب خطأ أصلاً.

واستغرب إخوة (سالمة) وأخواتها من ردة فعلها، فخطؤها واضح بالنسبة لهم، وحتى إن صفعها الوالد بغير ذنب فهم لا يرون أن الأمر يستحق كل ذلك الغضب منها!

واغتاظت (سلمى) لمّا وجدت أخواتها يطلبن منها أن تذهب لتعتذر لأبيهم.

وعبثًا حاولت الأم أن تواسيها بأنها تعرف أباها وأنه قاسٍ قليلاً في تربية أبنائه لكن قسوته تلك قد أحسنت تربيتهم، كما أنه طيب القلب، وأخذت تتلو على مسامعها قصص حنانه السابق معها ومع إخوتها.

لكن (سلمى) أرادت أن توصل رسالة؛ المبدأ أصلاً خطأ، بل كثير من المبادئ هنا لا تعجبها، لكنها لم تجد إلا تعاطفًا مكتومًا مع حزنها، في حين لم يلق كلامها تجاوبًا منهم.

ثم بدأ التعاطف ينقلب استنكارًا لما اعتبروه مبالغةً منها في ردة فعلها، ما المشكلة؟ أنها ليست المرة الأولى التي يضربها فيها الوالد أو يضرب أحدًا من إخوتها أو أخواتها بل وأحيانًا أمهم!

بل إن الحاج (محمد البكري) رجل عاقل لا يضرب إلا نادرًا ولا يضرب إلا صفعًا خفيفًا بكف يده!

وأحست (سلمى) أنها لو مكثت في غرفتها شهرًا فلن يُلْقِ أحدٌ لها بالاً، في حين أن الأب حين حاول أن يصالحها اكتفى بأن نادي عليها وطلب منها أن تعدَّ له فنجانًا من القهوة، وهو ما اعتبره الأم والأخوات لفتة طيبة من جانب الأب!

قررت (سلمى) أن تكون إيجابية، صحيح أنها لن تمكث هنا إلا ما بقي من شهور هذه السنة، لكنها يمكن أن تصنع شيئًا خلال هذه المدة، الكثير من المفاهيم الخاطئة هنا تستطيع أن تغيرها، يكفيها أن تحاول لفت انتباههم إلى الكثير من السلبيات التي يحيونها.

العديد من الأنشطة التي كانت تنخرط فيها قديمًا – تقصد في المستقبل – والكثير من الأفكار و المبادئ التي كانت تؤمن بها وتشارك في فعالياتها؛ تستطيع أن تنقل ذلك هنا ...إلى الماضي.

الفكرة كائنُ حي – قالت (سلمى)...

ليست بحاجة إلى منابر إعلامية ومنتديات ثقافية حتى تنشر بين الناس.

تستطيع بث ذلك التغيير بين أخوتها ...أن تحمل مشعل النور بين جاراتها وقريباتها، حتى يعمَّ الضياء عقول الفتيات والنساء هنا.

وسرحت (سلمى) و هي تتخيل نفسها داعية التغيير في رشيد لتعود إلى القرن ٢١ لتفاجأ باسمها مَسَطَّرًا كأول من نادت بالتنوير، لكنها انتبهت أن ذلك لو تمَّ فسيُسطّر باسم جدتها (سالمة) لا باسمها هي...لا يهم - فكرت (سلمى) - فصاحب القضية الذي ينتظر تخليدًا لاسمه ليس بصاحب قضية أصلاً.

وقامت (سلمى) من فراشها، وأخذت تضع في عقلها الخطة التي ستسير عليها، ستستهدف أخواتها وجاراتها و قريباتها، ما أكثر التجمعات هنا فلا يكاد يمرّ يوم بدونها، لعل هذه هي الحسنة الوحيدة لغياب التكنولوجيا و الأجهزة الحديثة و مواقع التواصل التي عزلت الناس في أيامي كُلاً في جزيرته الخاصة - قالت (سلمى).

وأمسكت بقلم رصاص وورقة - لم تكن تتوقع أن تجد القلم الرصاص في ذلك الوقت - وأخذت تضع في رَوِيَّة المفاهيم التي ستحاول نشرها.

لو حدثتهم كيف أن الدنيا سيتغير شكلها و مفاهيمها تمامًا عما قريب فسَتُصّدِر بذلك لنفسها شهادة رسمية بجنونها.

لكنها تستطيع الكلام و مداعبة أحلامهن عما يجب أن يكون عليه شكل الحياة.

لا يجب أن تكون صادمة فتحدَّث الناس مثلاً عن سفر الفتاة مع أصدقائها أو حريتها في ارتداء ما يحلو لها من أزياء، هذه مرحلة بعيدة.

يمكن أن تحدثهم عن حقوق الطفل و أصول التربية الصحيحة، وعن عدم التمييز بين الولد والبنت في المعاملة...

عن تعليم الفتيات، عن حقوق المرأة، عن حقها في اختيار الزوج وحقها في رفض التعدد أو الموافقة عليه...

عن مواجهة التحرش...لا...لا...لا يوجد تحرش هنا أصلاً...

فلتكلمهم عن التوعية و التعددية السياسية...لا أيضًا، هذه صعبة في القرن ال ٢١ فكيف بها الآن...

يمكن أن تستبدلها بالتوعية الصحية و بممارسة الرياضة، بل أن تنظم فصلاً رياضيًّا للفتيات و النساء هنا...

أن تتبنى حقوق الإنسان و محاربة العبودية، حق الجارية (صُبح) مثلاً في تحديد مصيرها و حقها في الزواج...

صحيح؛ لماذا لم تتزوج (صُبح)؟ بل كيف ستتزوج أصلاً؟ إنها فتاة جميلة و متفجرة الأنوثة، ما الذي بينها وبين الحاج (محمد البكري)؟ لماذا هو الوحيد بين أعمامي الذي له زوجة واحدة!

●●●

(٣٦)

جـاءك رمضـان يـا (جوزيـف) فمـاذا أنـت فاعـل؟ إنـه لا يريـد أن يثيـر حفيظـة أم (يوسـف) أو أختـه (سـارة)أو أي أحـد مـن أهـل المنطقـة إذا أدركوا أنـه مُفْطِر، صحيـح أن بعض السـائقين والصنايعيـة يجاهـرون بالإفطـار في نهـار رمضـان، لكـن النـاس تعـرف عـن (يوسـف) أنـه شـابٌ ملتـزم نوعًـا بـل ويكثـر مـن التـردد علـى المسـجد، والبعـض لاحـظ فعـلاً أنـه صـار لا يتـردد علـى المسـجد إلا لصـلاة الجمعـة التـي يذهـب إليهـا مـن بـاب الفضـول ليسـمع و يـرى ويسـجل، لكـن رمضـان شـيء مختلـف، سـيكون عليـك يـا (جوزيف) أن تنتبـه كثيـرًا فـلا يلاحظـك أحـد وأنـت تـأكل أو تشـرب خِلسـة.

ظـن (جوزيـف) أن المشـكلة انتهـت عنـد هـذا الحـد، لكـن مفاجـأة أخـرى كانـت في انتظـاره، رمضـان هـو الموسـم الذهبـي لمكبـرات الصـوت في المسـاجد التـي كانـت تزعجـه، بالـذات مـؤذن المسـجد المجـاور وصوتـه الأجـش المنَفِّـر في الآذان وبالـذات في أَذَانِ الفجـر، ففوجـئ أن مكبـرات الصـوت يـزداد نشـاطها في رمضـان مـا بـين تراويـح ودروس يوميـة يُصـرُّ مُلقوهـا علـى إذاعتهـا عبـر مكبـرات الصـوت، برغـم أن رداءة نـوع المكبـرات تجعـل الـكلام يخـرج مشوشًـا يصعـب علـى الأذن تفسـير مـا فيـه...إنـه كابـوس لمـدة شـهر يـا (جوزيـف).

لكنـه أدرك بعـد يـوم واحـد أن رمضـان جـاءه بحصيلـة ذاخـرة مـن الفلكلـور والعـادات التـي تسـتحق أن تُسـجل؛ مـا بـين المسـحراتي الـذي

لا يوقظ أحدًا! لكنه يحافظ على تراث هذه المهنة العريقة ونفحاتها اليسيرة، وبين صانعي الحلوى والمشروبات الرمضانية، وما يسمونه مائدة الرحمن لإفطار الفقراء والغرباء، سهرات المقاهي إلى قرب الفجر والأمسيات الرمضانية التي تنظمها المراكز الثقافية و التي عرف طريقها عن طريق (سارة) التي تجد سلواها من حياتها الجافة في أنشطة هذه المراكز.

وذات يوم وجد (سعيد) يقبل نحوه مسرورًا و يزفُّ إليه بشارة أن الشيخ (جبريل) سيَؤم صلوات التراويح في الجامع الضخم الذي في أقصى الحي (جامع عمرو بن العاص) و ذلك لعدة ليالٍ، و وقف جوزيف للحظات لا يدري ما وجه البشارة في ذلك حتى فطن و أسعفه مخزون ذاكرة (يوسف) حبه لصوت ذلك الشيخ، حسنًا فلنجرب.

وأخبره (سعيد) أن عليهما التواجد من قبل الإفطار هناك كي يدركا مكانًا معقولاً قبل الزحام الشديد المتوقع، مطّ (جوزيف) شفتيه بامتعاض ولكن لا بأس من التجربة.

وانتبه (جوزيف) أنه – وهو الرحالة المتجول الأصيل – لم يزر المعالم التي يزخر بها هذا الحي من الآثار الإسلامية والقبطية برغم مرور كل ذلك الوقت على تواجده مكان (يوسف)، وكان من قبل يستغرب حين يسافر إلى بلدٍ بعيدٍ خصيصًا كي يزور أحد معالمها ثم يفاجأ بأن من أهل هذا البلد من لم يزر ذلك المَعلم أبدًا، فينظر إليهم نظرة استخفاف ويعتبرهم قليلي الثقافة والرقي الفني!

وقبل المغرب بساعة كان يتخذ موقعه مع (سعيد) في الجامع الذي ذُهِلَ لازدحامه المبكر برغم اتساعه الكبير، ولمَّا صدح المؤذن بآذان المغرب تساءل (جوزيف)؛ إذا كان يمكن للأذان أن يكون جميلاً ومنغمًا هكذا فلماذا يُسمح لمؤذن المسجد المجاور للبيت أن يفعل فينا ما يفعله؟ حتى ظننت أن رفع الأذان بذلك الصراخ من شعائر دينهم.

وقرر (جوزيف) - وهو ينصت إلى مؤذن الجامع رخيم الصوت - ألا يكون سلبيًّا كباقي أهل الحارة وأن يكون إيجابيًّا و يسعى لتغيير ذلك المؤذن.

واكتظ الجامع زيادة و زيادة، و فهم (جوزيف) من كلام من حوله أن من بخارج الجامع أضعاف من بداخله، وأقيمت الصلاة، ورويدًا رويدًا بدأ(جوزيف) في الانسجام مع التلاوة، وأخذ الانسجام يتحول إلى إعجاب ثم إلى خشوع .

وعَجِبَ (جوزيف) لهذه الدموع التي بدأت تترقرق في عينيه برغم أنه لم يفهم إلا قليلاً مما يقرأه الشيخ، و أخذ عقله يحاول تفسير هذه الدموع، هل هي بسبب جمال الصوت؟ إنه لم يبكِ من قبل لسماع مطرب أو مغنى أوبرا أو لسماع أي مقطوعة موسيقية برغم عشقه للموسيقى و دراسته لمقاماتها، فماذا إذن؟

إنها تُذَكِّره بتلك التجربة الروحية التي جربها في أحد الصلوات الجماعية في ذلك المعبد البوذي جنوب الهند، أو بتلك الحلقة الصوفية النقشبندية التي حضرها في إسطنبول...

لا...ذلك أمر مختلف، في تلك التجربتين كان الأداء جماعيًّا- قال (جوزيف)- و كانت مشاركتي إيجابية في الحركات و في الصوت، لكني هنا متلقي سلبي، لعله يشبه التلقي السلبي حينما أندمج مع أحد المشاهد المؤثرة في فيلم رائع فتنساب دموعي معه؟ لا...هذه الدموع طعمها مختلف وهذه القشعريرة آتية من مدارات روحية لم أعشها من قبل.

كيف تستطيع طقوس الأديان أن تثير حالات النشوة و الخشوع تلك في نفس الإنسان؟ - تساءل (جوزيف)- هل احتاج إليها الإنسان فاخترعها؟ فلماذا احتاج إليها أساسًا و كيف اخترعها؟ أم أنه اكتشف تأثيرها الرائع فمارَسَهَا؟ و إذا كانت اكتشافًا فلماذا هي أصلاً لها هذا التأثير العجيب؟ و من صنعها إذن؟

ونفض (جوزيف) عن عقله تساؤلاته و أغمض عينيه و غرق من جديد في بحر الخشوع الذي لا يفهم له سببًا.

●●●

(٣٧)

وهكذا انتقلت معظم أعمال (نواف) إلى مكتب (دبي)، ولم يستغرب الموظفون هناك وجود (السيدة نوف) بقدر ما دهشوا من سرعة انخراطها في تفاصيل العمل وكأنها كانت تتابع كل شيء منذ زمان.

بل لاحظ أولئك الذين لا تفوتهم شاردة ولا واردة في جو العمل - ولا يخل من أمثالهم أي محيط عمل - أن (نوف) أكثر إلمامًا ببعض التفاصيل، لكن ما اعتادوا عليه من شخصية (نواف) الصارمة في العمل لم يسمح لهم بالتعليق على ذلك أو حتى تداوله فيما بينهم إلا همسات هنا أو همهمات هناك و في أُذُن من يثقون بهم فقط، فطبيعة العمل الخاص هو الحذر الشديد وبالذات تجاه شخص صاحب العمل.

واستقرت أحوال العمل بعد أن انضم (نواف) إلى (نوف) فيه، ونجحا في إخفاء حقيقة أن (نواف) هو من يدير الدفة و هو في جسد (نوف) و لكن عبر (نوف) التي هي في جسد (نواف)، ولم تسقط منهما إلا هنّات بسيطة و التي لاحظ منها أولئك الخبثاء ما لاحظوا، ولكن بالطبع لم يخطر على بال أكثرهم خبثًا أو خيالاً حقيقة ما هما عليه من تحول.

وظنَّ (نواف) و (نوف) أن قاربهم قد استقر وأنه سيعبر رحلة بقية العام في سلام، حتى تلاطمت القارب أمواج جديدة!

(نوف) لم تكن تعرف من نساء العمل اللواتي حول (نواف) سوى (كوليت)، لكنها في مكتب دبي عاينت ما لم تكن تعرفه، موظفات عربيات وأوروبيات تعملن هناك، والقاسم المشترك بينهن هو الجمال والتفاني في إرضاء (المستر نواف) في العمل، لكن (نوف) كأنثى كانت لتدرك ما وراء تفاني بعضهن.

كان طبيعيًّا حال ظهور زوجة (نواف) في العمل أن تتحول بعضهن إلى الاهتمام (بنوف) والتقرب منها حتى لا يثرن غيرتها، بينما بقيت بعضهن على ما اعتدن عليه من التقرب (لنواف)، وكان هذا و ذاك كفيلان بإثارة الغيرة في قلب (نوف) والتساؤل عما بعد مرور ذلك العام؟

لكن الذي لم تتصوره (نوف) أن تدب الغيرة في قلب (نواف) أيضًا من موظفيه الشباب وهم يحيطون ويتقربون من زوجته (نوف) وإن كانوا يظنونها رئيسهم (نواف)، ورغم أن (نواف) قد وضع لها كثيرًا من القواعد في التعامل خصوصًا مع أولئك الذين يحلو لهم إظهار مواهبهم في خفة الظل أو الأناقة أو الوسامة، وهي المواهب التي لم تكن تظهر في مكتب الرياض حيث جميع العاملين من الجنس الخشن! إلا أن (نوف) لم تكن لتغير طبائع هؤلاء أو لتلوم أحدهم على اهتمامه بأناقته أو شكله،هي أصلاً استغربت تعليمات (نواف) خاصة وأن من يتعامل معها يتعامل على أنها (نواف)، و لكن تقبلتها بغير نقاش طويل حتى لا تثير غيرته أكثر.

وبدأت بعض مناوشات و تعليقات الغيرة على استحياء فيما بينهما إلى أن حانت سفرية ضرورية إلى بيروت، و احتار (نواف) من يسافر منهما، إنه يشتاق إلى (كوليت) و لكن ما فائدة سفره وهو في جسد (نوف)، و (كوليت) بالتأكيد اشتاقت إلى زوجها و لكن ما فائدة ذلك أيضًا وجسده الآن ملك (نوف)، و (نوف) الآن ترفض أن تسافر هي إلى بيروت وإلى (كوليت) تجنبًا لما لا يصح أن يقع بينهما!

وهنا سألته (نوف) صراحةً؛ ماذا ينتوي أن يفعل مع (كوليت) في نهاية العام؟ هي تنتظر منه أن يبادر بطلاقها، هي ترى أنهما الآن روحٌ انشطرت في جسدين حقيقة لا مجازًا، وتظن أن تجربة التبادل تلك وما تبعها من ذوبانهما في تجربةٍ من الحب لا يمكن وصفها ولا تصورها، ظنت أن كل ذلك كفيلٌ بأن يُغنيه عمن سواها بقية العمر، لكنها فوجئت بإجابة مائعة من (نواف):

- دعينا لا نستبق الأحداث و لا نقاطع في الأمور، وقت أن يسترد كلٌّ منا هويته تأكدي أنني لن أصنع إلا ما يرضيك.

وقرأت (نوف) ما وراء الكلمات من تسويف، وزاد مكتب (دبي) عليها من هواجسها ما لم تكن تراه من قبل.

واتخذ تفكيرها منحىً آخر!

●●●

(٣٨)

استغرب (جوزيف) و قال لنفسه:

كيف لم أفكر في هذا الأمر من قبل؟ المفترض أن (سالمة) الآن هي أقرب إنسان لي في القاهرة، هي الوحيدة التي يمكنني أن أتواصل معها ونتكلم في هذا التحول السحري و لا تعتقد أنني مجنون تنقصه طاسة يلبسها فوق رأسه، أو أنَّ بي حمَّى أثرت على كهرباء دماغي حتى أفقدتني عقلي، بل لعل المسكينة هي أيضًا تحتاج إلى من يشاركها لبس الطاسة، أقصد إلى من تفضفض معه، إلى من يسمع صرخاتها مما هي فيه من غربة، ثم إنها فرصة ذهبية لي كدارس للأنثربولوجيا أن أتعرف - ليس دراسة بل معايشة - على عقل إنسانة مما قبل المدنية الحديثة وتفاصيل حياتها...إنها حتى لم تكن تعرف ما هي الكهرباء!

لكن كيف أصل إليها؟ حسب رؤيا (برقان) لي فإن اسمها الآن (سلمى) و تدرس التاريخ في عامها الجامعي قبل الأخير، إذن فهي رحلة إلى رحاب الجامعة وبقليل من البحث - أو بكثيره لا فرق - وسأصل إليها، المثير في الأمر هو كيف ستكون ردّة فعلها عندما تراني!

يومان كانا يكفيان لأن يصل (جوزيف) إليها، لا توجد في دفعتها (سلمى) غيرها، وهي مشهورة بما فيه الكفاية؛ تلك الفتاة التي كانت شعلة أنشطة ثم تحولت وفجأة توقفت عن معظمها مع تغير ملحوظ في شخصيتها وتصرفاتها.

- آنسة (سلمى) مساء الخير.

- مساء النور؟

- أظنك تعرفيني كما أعرفك.

- لا أظن أننا تقابلنا من قبل، بعد إِذْنَك.

واستدارت لتمشي فبادرها قائلاً:

- هل تحبين إذن أن أناديك (سالمة) بدلاً من (سلمى) اسم حفيدتك؟

تسمرت قدماها ثم التفتت إليه وهي مذهولة و أوصالها ترتجف، فبادرها ثانيةً:

- أرجوكِ تماسكِ، أنا مثلك أحد ضحايا قلادات (حسن) و(برقان) وطلسمهم، بالتأكيد تعرفينني، لكن حذار أن يغمى عليكِ فيلتفّ حولنا زملاؤك ثم نكون مطالبين بتفسير ما حدث.

ابتلعت ريقها في صعوبة واحتاجت لدقيقة حتى تمالكت أعصابها واستطاعت أن تنطق لتقول:

- أنت...

بادرها قائلاً:

- أنا (جوزيف) الأمريكي بديل (يوسف) المصري.

تطوح جسدها منها فمالت للوراء و أسعفها حسن الحظ أن كانت تقف بجوار جدار فاستندت عليه.

- أرجوكِ للمرة الثانية أن تتماسكي، بالتأكيد هي مفاجئة كبيرة لكِ، هل نجلس قليلاً؟

دقيقتان من الوجوم بعد أن جلسا إلى إحدى الطاولات حتى قطعت هي حبل الصمت و قالت:

- لماذا ظهرت الآن؟ وأين كنت من البداية؟ لقد كدت أُجَنّ طوال الفترة الماضية ولا أستطيع أن أخرج ما في صدري لأحد.

- وأنا كنت مثلك مصدومًا وربما أكثر.

- أكثر مني؟ مستحيل، على الأقل أنت تنتمي لهذا العصر المجنون وتفهم ما فيه من تغيرات وتطورات لم نكن حتى نحلم بحدوثها، أما أنا فكان عليَّ استيعاب صدمتين في وقتٍ واحد.

- أما أنا فكان عليَّ استيعاب تغيير الجسد وصدمة اللغة وصدمة الفقر وصدمة الجنسية المختلفة...ألا تلاحظين أننا عكس بعضنا في كل شيء؟

ابتسمت لأول مرة منذ بداية اللقاء وقالت:

- وكيف ذلك؟

- ذكر وأنثى، غربي و شرقية، أنا من العالم المعاصر وأنتِ من الزمن القديم.

ضحكت ضحكة خفيفة و قالت:

- فعلاً، والآن أخبرني كيف استقبلت هذه الصدمات.

ولساعتين أو أكثر أخذا يتكلمان بلا توقف وكأنهما يسابقان عقارب الساعة كي يُفَرِّغ كل منهما بعضًا مما يكبته في صدره، حتى أفاقت (سالمة) فجأة:

- يا خبر! لقد أخذنا الحديث والوقت ويجب أن أنصرف الآن، لكننا لا بد أن نتقابل ثانية، لقد جئتني كأنك النجدة، حتى وإن كانت نجدة متأخرة.

- بالتأكيد سوف نتقابل، كما أننا في هذا العصر نستعمل اختراعًا يسمى الهاتف وآخر...

قاطعته (سالمة) بضحكة عفوية عالية خالفت ما هي عليه من تحفظ طوال الشهور الماضية و قالت:

- وآخر اسمه المحمول، هل تظن أنني كنت سأحل محل (سلمى) هذه الشهور دون أن أتعرف على التقنيات الحديثة؟

ابتسم (جوزيف) و قال:

- أنا آسف، اعذريني فما زلت أراكِ (سالمة) من عصر ما قبل الكهرباء.

- وبالتأكيد تخيلت أنني سأعود إلى بيتي على ظهر حصان أو جمل.

ضحكا سويًّا ثم قالت هي:

- لعلمك لقد استوعبت كل هذه التقنيات والمخترعات في أسبوع واحد، وأنا الآن سأعود إلى بيتي على متن سيارتي الخاصة وليس على متن توكتوك.

وقالت جملتها الأخيرة وهي تنظر إليه في خبث، فضحك (جوزيف) وقال:

- عليكِ أن تري الشقة التي يسكنها (يوسف) الآن، ستحتاجين إلى دليل لشرح ما فيها من تكنولوجيا كما احتاج (يوسف) نفسه.

وضحكا من قلبيهما كما لم يضحكا من شهور وتبادلا أرقام المحمول ومضى كل واحدٍ منهما في طريقه وهو يحمل في قلبه إحساس من عثر على عائلته بعد أن كان تائهًا لشهور.

●●●

(٣٩)

وهكذا أخذت (سلمى) تضع بالورقة والقلم خطتها وترسم خطواتها كأنها مدير تسويق يضع خطة حملته الدعائية، فتحدد الفئات التي ستستهدفها في حملتها وطريقة عرض بضاعتها عليهم.

يمكنها أن تنظم ما يشبه الصالون الثقافي، إن النساء عادة ما يجتمعن ظهرًا في بيت إحداهن بعد أن ينتهين من أعمال المنزل وقبل أن يعود الرجال لتناول الغذاء، وأحيانًا ما يجتمعن عصرًا بعد خروج الرجال مرة أخرى بعد قيلولتهم، فتعقد النساء من جديد مجالس الثرثرة والنميمة.

وهذه هي فرصتي...قالت (سلمى)!

سأحول مجالس الهذر هذه إلى جلسات توعية، سأبدأ بالقصص وبالتاريخ - وعندي منهم الكثير - بل يمكنني أن أنسج من سفرياتي السابقة - أقصد اللاحقة - قصصًا كأنها من نسج الخيال، أفتح لهن من خلالها طاقات النور، وأبث من خلال كل ذلك الأفكار التي أهدف لنشرها بينهن.

وبدأت (سلمى) تضع خطتها موضع التنفيذ، وبدأت تسرد قصصها التاريخية والخيالية، ونجحت من أول يوم في شد انتباه الفتيات والنساء إلى حكاويها، ومرة وراء مرة تصدرت الاهتمام في جلسات النساء، وتفننت هي في انتقاء قصصها واكتشفت في نفسها موهبة السرد

حتى إنها كانت لتدهش من نفسها أحيانًا و يُهَيَّأ إليها أنها تنصت في استمتاع إلى راوية أخرى تتحدث وليس إلى نفسها.

وتحولت لقاءات النساء هذه إلى ما يشبه الصالون الأدبي أو قل إلى مقهى للحكواتي لكنه يعقد في حرملك النساء. وبعد أن كانت اللقاءات تبدأ بالسلامات و كلام المجاملات و تبادل بعض الأخبار ثم تسلّم ناصية المجلس إلى (سلمى) كي تبدأ حديثها؛ صارت اللقاءات التي تحضرها (سلمى) بمثابة ندوة لها، ثم صار الأمر أكثر انتظامًا فقامت المهتمات بكلام (سلمى) و حكاويها بتخصيص أيامٍ ثابتةٍ لها تكون ندوات خالصة مخلّصة لها بعيدًا عن اللاتي أظهرن عدم اهتمام بكلامها أو من أكلت الغيرة قلوبهن من (سالمة) الجديدة.

وصار للقاءات اسم متعارف عليه (مجلس سالمة) يعقد ثلاث مرات أسبوعيًّا لمدة ساعتين كل مرة، و صار أغلب وقت (سلمى) مشغول في الإعداد لهذه اللقاءات و انتقاء ما تقوله فيها بحيث توصل رسالتها ضمنيًّا في حكاويها.

فطنت (سلمى) من البداية أنها يجب أن تلفت الانتباه بغير أن تثير الريبة أو التساؤل؛ أنَّى لكِ هذا الكلام؟

ولا أن تثير حفيظتهن بأفكار صادمة لهن، و أسعف (سلمى) أنها وجدت في قبو البيت وسط الكتب الكثيرة التي ورثها والد (سالمة) عن جدها كتاب الأغاني للأصفهاني و كتاب ألف ليلة و ليلة، فكان أن جعلتهما مصدر رواياتها لمن يسألها عن مصادرها، لكنها بالطبع

زادت من عندها قصصًا من رحلات جاليفر وآليس في بلاد العجائب بل وهاري بوتر بخلاف ما نسجه خيالها، وهي تعلم جيدًا أن أيًّا منهن لم تقرأ لا الأغاني ولا الليالي، بل و غالبيتهن لم يسمعن عنهما أصلاً.

كانت تركز على القصص التي تحكي بطولات المرأة واستقلاليتها و تمردها على الاضطهاد و تكافؤها مع الرجل، وعلى القصص التي تظهر قوة المرأة إذا كانت متعلمة، وفي مرات أخرى تحكي قصصًا عاطفية البطل فيها الرجل العاطفي الحنون الذي يكتفي بامرأته عن كل نساء الدنيا.

لكن (سلمى) وجدت أن قصصها لا تغير في قناعات من تحدثهن شيئًا، فعندما تحاورت مع بعضهن وجدت أنهن يحضرن...يسمعن... ينبهرن...ثم ينصرفن و كأن شيئًا لم يقل، ولا ينطبع في وجدانهن شيئًا مما ترميه وراء قصصها.

لم تُحبط (سلمى) و أدركت أن القصة وحدها لا تكفي بغير بعض الإسقاط و التعليق، فقررت أن تغير طريقتها بأن تُقَلِّد بعضًا ممن سمعتهم من الدعاة الذين ظهروا في المستقبل، فصارت تقص الحكاية وفي وسط الأحداث تتوقف لتسقط الحدث على حياة من يسمعنها وعلى واقعه :

- لماذا لا تكوني مثل زينب؟
- يا حظ من يكون زوجها محبًا و مخلصًا مثل علاء الدين.

- هل رأيتنَّ أهمية التعليم ؟
- سعاد كانت تدرك أنها لا تقل قوة و لا أهمية عن زوجها أو إخوانها الذكور.
- وهذه هي عاقبة التفرقة بين الولد والبنت في المعاملة والتربية.

وهنا بدأت المشاكل تطل برأسها في وجه (سلمى)، فبعض الحاضرات رفضن تلك الإسقاطات:

- هذا زمان غير زماننا و أصولهم غير أصولنا والتشبه بهن مُحال.

والبعض الآخر احتجبن عن مجالسها إذ مُنعن عن الذهاب لما حاولن أن يقتدين ببطلات قصص (سلمى):

- ما الذي غيرك يا امرأة؟ من أين أتيت بهذه الأفكار؟
- إنهن البطلات اللاتي تحدثنا عنهن (سالمة).
- يمين طلاق ألا تذهبي إلى هناك مرة أخرى.

أما باقي الحاضرات فكنَّ يكتفين بمتابعة أحداث القصة و يعتبرن إسقاطات (سلمى) مجرد فاصل إعلاني ينتظرن انتهاؤه حتى تواصل رواية حكايتها.

وأخطأت (سلمى) لما حاولت مرة أن تجادل من أعلنَّ رفضهن لهذه الإسقاطات، إن بعض ما تعتبره هي من المسَلَّمات يعتبرنه هن من المنكرات.

حتى فصول الرياضة و الأيروبكس التي حاولت تنظيمها فوجئت بأنها لم تجد من النساء من تتحمس لها...

حتى أقنعت بعضهن بصعوبة بالحضور، وبذلت جهداً كبيراً معهن في تلفيق ما يناسب من الملابس لهذا الفصل الرياضي.

- ألا يكفينا هدّ الحيل في أعمال المنزل؟

هكذا قالت كل من حضرن معها فصلها الرياضي اليتيم الذي نظمته، وانصرفن جميعًا قبل نهايته وهن يتَندَّرن على شكل ملابسهن المضحكة!

ووجدت (سلمى) أنها ستخسر كل ما بدأته وأدركت أنها تعجلت في خطواتها، لذلك قررت أن تعود إلى المربع الأول.

●●●

(٤٠)

عثرت (سارة) مصادفةً على بعض رسومات (جوزيف) التي يصور فيها شخصياته الكرتونية، ودهشت أنها لم تعهد في أخيها من قبل أي مواهب فنية، واستعجبت أكثر أن تعليقاته على الرسوم كتبها بالإنجليزية بل و بلغة طلقة وبعامية أمريكية جعلتها أحيانًا لا تفهم كثيرًا من الكلام، واستغربت أكثر أن تعليقات (جوزيف) على المكان وأهله أنها بصيغة (هم)، ببساطة سألته لمن هذه الرسومات وببساطة كأنه كان يعمل حساب أن تعثر عليها؛ أجابها أنها له:

- لن أظل سائق توكتوك إلى الأبد، عملي أتاح لي مخالطة كل أصناف الناس و تأمل مفارقاتهم، فجأة خطرت لي الفكرة بعد أن شاهدت أفلام أنيميشن أمريكية وها أنا أنفذها لأفاجأ بموهبتي التي لم أكن أعلم عنها شيئًا من قبل.

- ؟

- التعليقات التي بالإنجليزية؟ لقد نقلتها من بعض مواقع الكاريكاتير الأمريكية؛ أحببت أن أستفيد من طريقتهم في تنفيذ الرسومات و في كتابة التعليقات، أنتِ تعلمين أننا الآن نقلد الأمريكان في كل فنوننا بل ننقل عنهم أفلامهم نقل مسطرة أحيانًا حتى في تصميم أفيشات الأفلام.

ولـم تفـوِّت (سـارة) الفرصـة بعـد أن أظهـرت إعجابهـا وحماسـها لموهبـة أخيهـا:

- لا ينبغـي أن تظـل هـذه الرسـومات حبيسـة الأدراج، لابـد أن نعرضهـا علـى الفنانـين في قصـور الثقافـة.

حـاول (جوزيـف) أن يتملـص منهـا لكنـه لـم يُـرد أن يثيـر ريبتهـا لمـا سـألته:

- لمـاذا ترسـم تلـك الرسـوم إذن إذا كنـت لا تريـد أن تعرضهـا علـى أحـد؟

فأخذته معها إلـى المراكـز الثقافيـة، وبالفعـل نالـت رسـوماته إعجـاب كل مـن رآهـا عـدا بعـض مـن يهيمنـون علـى أنشـطة الرسـم والجرافيـك هنـاك! فقـد أظهـروا عـدم اكتراثهـم بهـا و قـال بعضهـم بـكل ثقـة أنهـا تحتـاج لتحسينات حتـى تكون صالحـة للعـرض، و (جوزيـف) يضحـك منهـم في سـرِّه، لكن البعض الآخـر عـرض عليـه أن يسـاعده في نشـرها في بعـض الدوريـات.

لكن لا كلام هـؤلاء ولا كلام أولئك كان لـه أي صـدى عنـد (جوزيـف)، إنـه لـم يسـتنفر كل قـواه طـوال تلك الشـهور ليخـرج بقصتـه ورسـوماته تلك كـي تعـرض في دوريـات مصريـة محـدودة، إن هدفـه هنـاك عنـد الشـركة التي اشـترت منه سـابقًا مشـروع العفريت، ولكن لا بـأس أن يسـاير (سـارة) فقـد كان يريـد أن يـرى ويـدرس ذلك المجتمـع الثقـافي عـن قـرب.

أكثر من قابلهم هناك شباب متحمس ومُحْبَط في ذات الوقت من كل شي، يشعرون بالغربة ولا يدري لماذا؟ يناقشون هنا في حرية بعض التابوهات الفكرية التي لا يجرؤون على مناقشتها خارج هذه الجدران.

لكنهم يناقشون أحيانًا قضايا تجاوزناها نحن منذ عقود - قال (جوزيف) لنفسه...

بل و يتبنون أفكارًا تجاوزها حتى أصحابها...

وكثير منهم يتفنن - لست أدري لماذا - في جعل مظهره مختلفًا وغير اعتيادي، وكأنه يقول للناس من حوله أنا لست منكم، وبعضهم - مثل (سارة)- متوازن في كل شيء، يستمع لآراء الكل و يتفرج على كل المعروض ويصفق ثم يمضي خارجًا لعالمه الحقيقي وواقعه.

ما أظن أن نشاط (سارة) الثقافي هذا إلا تنفيسًا عن بعض كبتها؛ فتاة مليحة و تفوح أنوثةً و جاوزت الثلاثين من عمرها ولا زالت عذراء القلب والقالب، وتعيش في مجتمعٍ فقيرٍ في فرص الزواج بسبب تعقيدات أهله فهي بالتأكيد تعاني غليانًا و كبتًا في آنٍ واحد...

أنا أستطيع بنظرة واحدة أن أخترق عين الفتاة فأقرأ كل تجاربها العاطفية والجنسية، هذه فتاة لم تعرف الحب إلا عن طريق النظرات أو المكالمات، و أقصى تجربة يمكن أن تكون مرت بها أن تكون قد تفرجت على ما لا يصح لها مشاهدته من لقطات أفلام أو مقاطع فيديو، لو كانت عندنا لاعتبروها قديسة أو شاذة، لكنها في الحقيقة ضحية تعقيدات مجتمع لا يعرف له هوية محددة.

دعك من كل هذه المتاهة يا (جوزيف)، ما يهمك الآن هو رد شركة Pixar على مشروع الفيلم الذي أرسلته إليهم عبر البريد الإلكتروني...

وهذه هي المشكلة!

لم يكن في إمكان (جوزيف) أن يراسل الشركة على أنه (جوزيف)، سيحددون له موعدًا ليعرض عليهم المشروع كاملاً و لمناقشة بعض التفاصيل وتوقيع الكثير من الأوراق كما حدث سابقًا، كان عليه إذن أن يراسلهم على أنه (يوسف) و يكون على الشركة أن تتولى هي إجراءات سفره إلى أمريكا.

ومرَّ الوقت ولم يجد جوزيف أي صدىً لمراسلاته. جرَّب المحاولة مع شركات أخرى ومجلات أمريكية للكاريكاتير ولم يجد أي صدىً مختلفًا عندهم.

إحباط و لكنه متوقع، وهذا ما خفف وطأته على قلبه، هذه الشركات و تلك المجلات تتلقى يوميًّا مئات بل ربما آلاف الأفكار، وكونك مؤلف سابق لديهم يا (جو) لا يهمهم في شيء سوى ما تقدمه لهم من أفكار وابتكارات، و لن يشفع لك اسمك إلا في أن تجد من ينصت إلي فكرتك ليقيمها بحساب الربح و الخسارة فقط، فما بالك حين تكون اسمًا مجهولاً و من بلد آخر؟

لابد من سلوك الطريق المختصر كي تجد أفكاره طريقها إليهم، لو جاءهم المشروع عن طريقه هو (كجوزيف) صاحب التجربة الناجحة لوجد المشروع - إذا أعجبهم - طريقه مباشرة إلى استوديوهات

التصوير، لو كان يستطيع السفر إلى أمريكا لعرف كيف يسلك تلك الطرق المختصرة حتى وهو (يوسف)، لكن جواز سفر (يوسف) عليه رفض من السفارة الأمريكية، تبًّا لهذا الحظ التعس.

وبالتأكيد لو طلب من (يوسف) استقدامه إلى أمريكا سيتوجس خيفة من نواياه وسيرفض.

لماذا إذن لا تكمل تجربتك المحلية؟ لماذا لا تعرضها على الشركات أو المجلات هنا؟

وحاول (جوزيف) أن يقوم بذلك بالفعل، وساعده في ذلك بعض من تعرف عليهم في مراكز (سارة) الثقافية، لكنه كان يريد الوصول إلى شركات الإنتاج السينمائي أو مجلات الكاريكاتير التي تدفع بسخاء كما في أمريكا، لكنه ما لبث أن اكتشف أن الطريق إليهم له ممراته ودهاليزه الأشد صعوبة من الممرات التي حاولها - كيوسف - مع الشركات والمجلات الأمريكية، والأهم من ذلك أن السينما هنا لا تزال بعيدة جدًا عن إنتاج أفلام الأنيميشن بالشكل الذي يريده.

كان طبيعيًّا أن يسحب ذلك (جوزيف) في دوامة من الاكتئاب، هذه هي موهبته التي يجيدها وليس لها متنفس إلا حيث كان في أمريكا، وهو الآن عالق في مصر، ومن يضمن له أن (يوسف) سيوفي بوعده ويقاوم إغراءات أرض الأحلام وهي تقول له هيت لك؟

وفجأة...قفزت إلى عقله فكرة مجنونة، ولم لا ؟ وكل ما هو فيه الآن جنون في جنون أصلاً؟ إن شركة بيكسار تعرف (جوزيف)، فلِمَ لا

يصل إليها عن طريق (يوسف) الذي هو الآن (جوزيف)؟ هل يخاف أن يسرق فكرته ومجهوده؟ إنه الآن بالفعل يتمتع بثمار فكره القديم ومجهوداته بل وكل حياته، فلم لا يسحب رداء الثقة ليغطي فكرته الجديدة تلك؟ المسخوط دِيكًا لن يتضرر كثيرًا إذا سُخِطَ دجاجة!

ولعدة ليال يدير (جوزيف) الفكرة في رأسه، ويحسب كل احتمالاتها السيئة...فليكن ما يكون.

وللمرة الثانية يتصل (بيوسف) ولكن دون الحاجة لادِّخار هذه المرَّة بفضل هاتفه الذكي الجديد الذي سمح بتثبيت برامج للمحادثة عليه:

- لا تقل لي أن ال ٣ آلاف دولار قد انتهت و أنك تريد المزيد من المال.

- ولنفترض ذلك؟ أليس هذا حقي؟

- قلت لك أن مالك محفوظ، و اتفقنا أنه لا داعي لإثارة التساؤلات حولك، عمومًا كم تريد؟

- أنا بالفعل لا أريد مالاً و لكن أريد شيئًا آخر أهم...

وشرع (جوزيف) يشرح (ليوسف) ما يريده منه، وتفاصيل وخطوات الوصول والتفاوض مع شركة Pixar ، بعد أن انتهى (جوزيف) من شرح ما عنده قال (يوسف):

- أراك أصبحت تثق بي فعلاً.

- ولم لا تقل أنه الحل الوحيد المتاح أمامي؟

- على كل الأحوال هي ثقة...وهل تريدني أن أحول لك الأرباح المنتظرة إلى حساب (يوسف) في مصر؟ أم أضيفها إلى حسابات (جوزيف) هنا في الولايات؟

سكت (جوزيف) لأنه يعرف رأي (يوسف) في مسألة تحويل المال تلك، ولأنها أيضًا مسألة محيرة و مربكة، لكن (يوسف) استرسل قائلاً:

- أنا عندي مخرج لمسألة تحويل المال!

- وما هو؟

- أنا أيضًا فكرت في أن أستغل هذا العام في جمع بعض المال ينفعني بعد أن أعود (كيوسف)، و عندي فكرتان يمكن إدراجك فيهما وتكونان مبررًا لما سيتدفق عليك من مال و أنت في مصر.

- وما هما الفكرتان؟

- الأولى أنني لما سافرت نيويورك و لوس أنجلوس لم أجد في الفنادق لُوف للاستحمام، فخطرت لي فكرة أن أستورد هذا اللوف من مصر، وببعض التجهيز البسيط له سيكون ملائمًا لاستعمال الفنادق بل ومراكز التجميل، يقولون أن هذا اللوف بخلاف فوائده في النظافة وتقشير خلايا الجلد الميتة فإنه يعالج تكون السليوليت تحت الجلد، وسيتم استيراد هذا اللوف عن طريقك.

- والفكرة الثانية؟

- هي خدمة تسديها لي و لصديقي (سعيد) أكثر منها مشروعًا... خدمة في مقابل خدمة.

وشرع (يوسف) يشرح بدوره (لجوزيف) فكرته في تمويل اختراع (سعيد).

- ماذا؟ ستخاطر بأموالي في تمويل اختراع لا أحد يعلم مستقبله ولا نسبة نجاحه؟

- ليس بالتمويل الكبير الذي تتخيله، المطلوب فقط تمويل الخامات وتجارب المعمل حتى يتم تنفيذ نموذج أولي للعقار، ثم يتم الاتفاق مع أيٍ من شركات الأدوية هنا و ما أكثرها، وهي التي ستتولى تجاربه على الحيوانات ثم البشر، وفي حال نجاحه سيتم الاتفاق معها على حصص إنتاجه وتسويقه، وإن أردت أن تدخل شريكًا في التمويل فلك حصتك من الأرباح، وإن رفضت فسأقوم بالتمويل من حصتي من أرباحك من فكرة فيلمك الجديد.

قال (جوزيف) بتوجس:

- حصتك من الفيلم؟

- ألن أقوم بدور الوسيط بينك و بين شركة السينما؟ العدل يقول أن أحصل على نسبة ١٠ ٪ من الأرباح، والعدل يقول أن تحصل على حصتك من أرباح اختراع (سعيد) إن وافقت على تمويله، وطالما أن جدارًا من الثقة بدأ يُبنى فيما بيننا فيمكننا أن نتفق الآن على كل التفاصيل وحصص أرباح كلٍّ منا من المشاريع الثلاثة.

سكت (جوزيف) مقتنعًا بكلام (يوسف)...لو كان يريد الاستيلاء على أمواله وحياته لما فكر لا في هذا اللوف ولا في مشروع (سعيد) الذي أحبه بعد شهامة الاستضافة أيام حريق المنزل، ثم قال بعد قليل:

- وما هو المطلوب مني في مشروع (سعيد)؟

- أن تكون حلقة الوصل بيني و بينه، أنت الآن صديقه (يوسف) الذي سيذهب ليزف إليه بشارة أن ذلك الأمريكي الذي اشترى القلادة سوف يتبنى مشروعه، وأنا هنا سأقوم بالإجراءات اللازمة لاستقدامه إلى أمريكا.

- اتفقنا...بالمناسبة أريد منك أن تشحن لي بعض الأغراض التي لن أجدها في مصر و ليس معي ثمنها بصراحة.

- هل هي...

قاطعه (جوزيف):

- اطمئِن، هي ليست ممنوعات، هي مثلاً كبسولة أكسيد النيتروز، وصبغة مخلقة غالية الثمن و أشياء من هذا القبيل.

ابتسم (يوسف) و قال:

- وماذا ستصنع بهذه الأشياء الغريبة.

- برغم أنها من أسرار المهنة لكم لا بأس، فمن يؤلف قصة يحتاج لأن يعايش على الواقع بعض ما يدور في خياله، لا أستطيع أن أفصح لك أكثر من ذلك.

- لا بأس، ولكن أبعث لي بالتفاصيل كي لا أتوه أو أخطئ.

- لا تخف، والأفضل أن تكلف (نيكول) بذلك، الفتاة موهوبة في البحث و التقصي.

وشعر كلاهما بالارتياح بعد نهاية المكالمة، ليس لمجرد أن المشاريع ستجد طريقها للنور بهذا التعاون، و إنما أكثر لروح الود والثقة التي بدأت تظهر بينهما، لكن (يوسف) بدا أكثر سعادة، لقد اكتشف أنه وإن لم يكن مبدعًا أو صاحب مواهب أو مبتكر اختراعات، لكنه يصلح لأن يكون راعيًا أو مستثمرًا أو وسيطًا في مواهب واختراعات الغير، وهؤلاء كثيرًا ما يجنون من المال أكثر من صاحب الموهبة ذاته!

أما (جوزيف) فكان ينتظر ما طلبه من (يوسف) من أغراض بفارغ الصبر، وربما أكثر من لهفته على نجاح قصته، فقد حانت ساعة الانتقام لكرامته التي أهدرت في موقف مركبات الأجرة، وأيضًا لإحداث بعض التغيير فيمن حوله!

●●●

(٤١)

هل يمكن للإنسان أن يتعلم أو يكتسب معرفة و هو نائم؟

تمنَّت (سالمة) ذلك.

فهي طوال اليوم وفي كل يوم تستقي علمًا أو معرفةً أو خبرةً جديدين، لقد اكتشفت أن المعرفة ليست محصورة بين دفَّات الكتب أو في صفحات الإنترنت أو داخل قاعات المحاضرات.

الحياة نفسها خبرة، وهي لم تختبر من قبل إلا حياتها المحدودة التي كانت في رشيد، و لم تختبر إلا نوعيات أناسها المعدودين.

لكن هنا - قالت (سالمة) - أمواج من البشر بأطياف وألوان أكثر ثراءً وتنوعًا من كل شخصيات مسرح شكسبير التي قرأت عنها، وتعقيدات في الحياة أكثر إحكامًا من العقدة الجوردية؛ تلك العقدة في الحبل والتي لا يمكن حلها إلا بقطعها بالسيف.

لذلك كان (جوزيف) بالنسبة لها صندوق الدنيا الذي رأت من خلاله كل هذه الدنيا ومفتاح الحضارة الغربية عرّابة كل هذا التغيير الذي حدث في العالم.

كانا يتهاتفان كل يوم و يزورها أحيانًا في الجامعة، و كانت لا تملّ وهو يحكي لها بالساعات عن رحلاته في كل أرجاء الدنيا، وكان هو يستمتع بأن يحكي كل ما لديه.

وكانت (سالمة) بالنسبة ل (جوزيف) - دارس الأنثربولوجيا وعاشق السفر- بمثابة الكنز؛ تأشيرة سفر للماضي بلا تزوير، وكتاب مفتوح عن الماضي وملئ بتفاصيل لن يجدها في أي كتاب تاريخ...

- كيف استطعتم اختراع كل تلك الاختراعات في ذلك الزمن القصير؟
- كيف كنتم تقومون بكل الأعمال يدويًّا وكنتم تتنقلون بدون مركبات آلية ومع ذلك كان لديكم وقتٌ أكثر منا؟
- كيف تحتملون حياتكم بهذا الضجيج والتوتر والإيقاع السريع؟
- بل كيف ستحتملين أنتِ أن تعودي للماضي البدائي؟

وكثيرًا ما يدور بينهما الجدل عن تفاصيل و مفارقات حياتهم:

- لا أتصور أن يتقبل الإنسان فكرة أن يكون لديه عبيد وجواري.
- حال العبيد والجواري أيامنا أفضل من حال بعض عمال وعاملات اليوم.
- لكنهم على أي حال عمال أحرار؛ يستطيعون ترك الوظيفة لغيرها في أي وقت.
- ولماذا لا يفعلون؟ بل عندما تقهرهم ظروف العمل فلماذا يكتفون بالتظاهر أو الإضراب؟
- هل تساوين بين العبودية وقهر الحاجة للعمل؟

- لا طبعًا، لكن كلاهما قهرٌ، وأي قهر لا يمكن التخلص منه فهو نوعٌ من العبودية، بالضبط مثل من تسمونهم الرقيق الأبيض هذه الأيام؛ هنّ أشد بؤسًا بمراحل من الجواري في أيامنا.

- لا زلتِ تصرين على التقليل من قيمة الحرية، أنا أرى أن قطط الشوارع وعصافير الأشجار أوفر حظًا ممن يتم اعتقالهم في أقفاص البيوت.

- و لو خيرت قط البيت لما اختار الشارع، ولو خيرت جارية الأمس لما اختارت أبدًا حال بائعات هوى اليوم... مَن مِن جواري اليوم تمتلك حق الاختيار؟ من منهن تستطيع أن تقول لا؟ جارية الأمس لرجلٍ واحد وجارية اليوم تفشل في إحصاء من عاشرتهم في أسبوع واحد، جارية الأمس لها حق الرعاية في مرضها وكبرها بينما جارية اليوم تنتهي حياتها يوم انتهاء صلاحيتها كسلعة.

- لكن من تسمينهن جواري اليوم يملكن الأمل على الأقل في غدٍ مختلف، ومنهنّ من تصبح مليونيرة.

- وكثير من جواري الأمس كنّ يعشن حياة الأميرات.

وهكذا من موضوعٍ لآخر وكلٌّ منهما يريد أن يغترف من الآخر كل ما يستطيع عن زمنه وطريقة حياته، لكنّ ما أدهش (جوزيف) هو ذكاء (سالمة) واستعدادها الفطري للتعلم، إنها تقرأ الموضوع الذي تهتمّ به فتفهمه وتتقنه بل وتحفظه فلا تنساه.

ومن وقت لآخر تثار بينهما المناقشات لكنها لا تصل أبدًا إلى حدّة الخلاف:

- أنا أظن أن نقص العلم هو ما جعل أيامكم أيام إيمان، بينما يتراجع ذلك الإيمان مع ثورة العلم والمعرفة.

- هل أنت ملحد؟

- كنت ملحدًا يومًا، لكن الاكتشافات الحديثة لمدى التعقيد الرهيب الذي عليه الجينوم البشري والدقة البالغة في انفجار وظهور الكون ثم استمراره بهذا التوازن العجيب وبهذه الدقة المدهشة، كل ذلك جعلني أستسلم لفكرة جوب وجود عقل جبار ويد قادرة وراء كل ذلك...لكن من يدري؟ فقد يصل العلم إلى تفسير مقنع يقف وراء كل ذلك دون الحاجة لوجود إله، وعلى كل الأحوال أنا وإن كنت سلمت بوجود الإله لكني لا أؤمن بصدق الرسالات والأديان.

- ولماذا لا تؤمن بالرسالات؟ هل يخلق الإله عبيده ثم يتركهم و شأنهم؟

- ولماذا يترك الخالق كل ذلك الشر والظلم يفتك بمملكته؟ لماذا لا يتدخل ويكتفي بإرسال رسل لا يوجد دليل جازم على صدق رسالتهم.

- ولماذا إذن تَبِعَهم الناس؟ إن الإيمان في فطرة الإنسان.

- بالضبط كما قلتي، هو شيءٌ فطري وغريزة بدائية، لكنه ليس دليلاً على صدق أصحاب الرسالات.

- ولماذا يدعي الرسل ذلك؟ ما الفائدة التي سيجنونها من وراء ذلك وطريقهم كله كان أشواكًا وأذية؟

- الخلود! سيستفيدون الخلود في التاريخ، هذه شهوة أقوى من كل الشهوات عند طالبي الشهرة والتخليد، في سبيلها يتحملون كل عنت وأي أذى.

- ومن أين أتوا بكتبهم و تعاليمهم؟

- من كتب و تعاليم من قبلهم.

- ومن أين أتى من كانوا قبلهم بتعاليمهم، بل وكيف استقى الإنسان أصلاً علومه منذ البداية؟

- بالتطور التدريجي؛ بدأ الإنسان بدائيًّا يلتقط ثمار الأشجار ثم تعلم الصيد ثم الزراعة واستقر على ضفاف الأنهار، لينشأ فكره وتتطور معارفه؛ بدائية جدًا في أولها ثم عبر أجيال سحيقة تطورت علومه رويدًا رويدًا، مع حدوث بعض الطفرات التي كانت تنقل البشرية نقلة نوعية كاختراع العجلة مثلاً أو اكتشاف الكهرباء.

- و ما الدليل على ذلك؟ ما الدليل أن الإنسان نشأ بدائيًّا ثم علّم نفسه بنفسه

- الحفريات القديمة و آثار الإنسان الأول، بل حتى يومنا هذا لا زالت عشرات القبائل حول قارات العالم تعيش هذه الحياة البدائية؛ مثل (السينتال) وشعب (الرووك) في جزر آسيا و(يانومامي) و (الآوا) في غابات الأمازون و (هادزا) و(الهيمبا) في إفريقيا، و غيرهم و غيرهم، بل كان أهل قارات بأكملها بدائيين تمامًا وقت اكتشافها مثل أستراليا، و هكذا كنا نحن أيضًا مثلهم بالتأكيد.

- هذا دليل على عكس كلامك!

- رد جوزيف باستغراب:

- وكيف هذا؟

- أن تكون هناك عشرات القبائل لا زالت تعيش البدائية، فهذا دليل على أن الإنسان لا يمكن أن يعلم نفسه بنفسه، وإلا لما استمر هؤلاء عشرات القرون لا يتعلمون شيئًا ولا يتقدمون خطوة واحدة للأمام، ومعنى انتشارهم و وجودهم في معظم قارات العالم بل إن هناك قارات بأكملها كانت بدائية حتى جاءها الغزاة والفاتحون فهذا دليل أن ذلك هو الأصل في الإنسان بدون استثناءات؛ لا بد أن هناك من يبدأ بتعليم الإنسان - أي إنسان - يأخذ بيده ويضع قدميه على أول الطريق ثم يكمل التلميذ مشواره وإلا لبَقِيَ بدائيًّا كحال كل هذه الشعوب البدائية، ويكون السؤال الصحيح هو: من علّم الإنسان أول مرة؟

وسكت (جوزيف) متأملاً، لقد صدمه منطق (سالمة) رغم بساطته.

●●●

احتار (جوزيف) – بعد أن وصله الطرد من (يوسف) – بأيهما يبدأ؟

بتطفيش مؤذن المسجد قبيح الصوت؟

أم بثأره مما حصل له في موقف الأجرة؟

واختار أن يبدأ بثأره حتى يبرد قلبه، ولأنه أيضًا يحتاج لمعاونة شخص معه في خطته تلك، وليس أمامه إلا (سعيد) الذي تألم وثار جدًا وقتها لكن لم يكن بيده حيلة، كما أنها فرصة ل (سعيد) كي يرد الجميلة وهو يظنه (يوسف) الذي فتح له باب الأحلام في أرض الأحلام...لن يتورع (سعيد) عن مساعدته بأي شيء مهما كان جنونيًّا...

فغر (سعيد) فاه وقال (لجوزيف):

– لن أسألك من أين أتيت بهذه الفكرة يا (يوسف) رغم أنني ككيميائي لم أكن لأقترح عليك بأخبث منها، ولكن سأسألك من أين أتيت بمكوناتها؟

رد (جوزيف) و قد توقع كل الأسئلة التي قد تخرج من شخص لمَّاح و متشكك (كسعيد):

– الفكرة يسهل الحصول على أمثالها ببعض الصبر في البحث على الإنترنت، وهناك أشرار لكن خدومون مستعدون للتطوع

بإسـداء النصائـح، أمـا المكونـات فالبركـة ﰲ ذلـك الأمريكـي (جوزيـف)؛ هنـاك ﰲ أمريـكا يمكنـك الحصـول علـى كل شـيء.

- لكـن مـا الـذي يدفعـه لشـراء تلـك الصبغـة لـك؟ صبغـة كتلـك تتحمـل درجـات حـرارة احتـراق عاليـة جـدًا بالتأكيـد غاليـة جـدًا.

- ربمـا يـرد لـي بعضًـا مـن ثمـن السـبحة التـي اشـتراها بنصـف مـا تسـتحق مـن ثمـن.

هـز (سعيد) رأسـه كمن يفكـر:

- لقـد توطـدت علاقتـك كثيـرًا بـه رغـم أنهـا مجـرد سـبحة اشـتراها منـك، لكـن الغريـب؛ أي عقـل شـيطاني أصبحـت عليـه يـا (يوسـف)؟ أكاد أُرَاهِـن أنـك مـن زرعـت تلك الرائحـة الكريهـة ﰲ شـقة (أبـو سـهير)!

- أيًّـا مـن كان فعلهـا فقـد نـال (أبـو سـهير) مـا يسـتحقه، والآن اجهـز فموعدنـا الليلـة للانتقـام.

الخطـة بـأن يتسـلل (جوزيـف) و (سـعيد) لحـوش ذلـك الرجـل الـذي يشـتري بعـض الجازولـين والديـزل (البنزيـن والسـولار) مـن عربـات الشـركات الناقلـة لـه و يخزنـه عنـده؛ ليبيعهـا لسـائقي الأجـرة ﰲ ذلـك الوقـت الـذي تفاقمـت فيـه أزمـة الوقـود، سـائقو الأجـرة مسـتعدون لدفـع ضعـف ثمـن الوقـود ولا تتوقـف مركباتهـم.

عبوات من شراب الذرة السائل سيفرغونها - (جوزيف) و (سعيد) - في الخزانين، الكل يعرف مفعول السكر عند إضافته للجازولين، لكن الحرفة أن تضيف ذلك الشراب الغير معروف هنا والذي يؤدي نفس مفعول السكر، و الأكثر حرفة أن الكثير يعتقد أن تأثير السكر ذلك لا يحدث عند إضافته للديزل أيضًا، وهذا أيضًا جزء من الخدعة.

وزيادة في التمويه - و في الإثارة أيضًا - سيضيفان تلك الصبغة الحمراء الباهتة اللون و التي لن تحترق بسهولة في المحركات لتخرج مع العادم بلونها الأحمر المرعب.

أخذ (جوزيف) يتخيل مشهد السائقين و الركاب بل و المارة وهم يشاهدون تلك الألوان تخرج مع العادم مع فرقعات مهولة تصدر من محركات السيارات!

وقبيل الفجر تجمع السائقون لتموين سياراتهم في الخفاء، وللتمويه قرر (يوسف) أن تمر مركبته بنفس التجربة!

لو تخلف عنهم فستتجه بعض أصابع الاتهام إليه، لذلك سيخوض التجربة معهم لكنه سيوقف مركبته مع ظهور أول بوادر تلك الحفلة من التوكتوك.

وبالفعل وقف (جوزيف) يتفرج على الألعاب النارية تخرج أصواتًا وألوانًا من سيارات الأجرة، ويعاين الصياح و الفزع الذي ملأ شوارع المنطقة كأنها منطقة كوارث، وتمنَّى أن يكون ذلك الشرطي الذي وشى به مالكًا أو مشاركًا في سيارة من السيارات المتضررة بشدة.

ولـم تـأت الظهيـرة إلا وكأن القيامـة قـد قامـت ليـس ﴿ الحـي فحسـب، بـل ﴿ الشـوارع البعيدة التـي خرجـت إليهـا سـيارات الأجـرة تلـك، وسـارعت الشـرطة بالتحفـظ علـى كثيـر مـن تلـك السـيارات، بـل وداهمـت ذلـك الحـوش الـذي مـلأ منـه السـائقون خزانـات سـياراتهم وقبضـت علـى صاحبـه.

وملأ رجال الشرطة السرية موقف السيارات و أنحاء الحي...

واختفـى (بعليكـة) ورجالـه مـن المشـهد...لا بـأس، فلـم يـأت دور الانتقـام منـه بعـد!

وفشـل الميكانيكيـون ﴿ تفسـير مـا حـدث، لكـن المركبـات التـي تحفظت عليهـا الشـرطة سـتخضع لفحـص طويل.

وجاهـد (جوزيـف) ﴿ تمثيـل دور المتألـم لمركبتـه، ونجـح ﴿ إخفـاء مشـاعر الفـرح بالانتقـام التـي مـلأت قلبـه.

ومـلأت صيحـات الألـم ونـدب انقطـاع الـرزق بيـوت أصحـاب وسـائقي المركبـات المتضـررة، وبسـببها تحـول الفـرح ﴿ قلـب (جوزيـف) إلـى غصَّـة، وللمـرة الثانيـة تظهـر معانـي القـدر واللطـف، إذ لـم يقـع ضحايـا لانتقامـه المجنـون، وتزاحمـت عشـرات الأفـكار ﴿ عقلـه حـول الجريمـة والعقـاب والمجتمـع والفوضـى وأحـكام الفقـر والفسـاد والقـدر والاختيـار، فقـرر أن يسـتغل كل تلـك المشـاعر و يفـرغ كل ذلـك التضـارب ﴿ أوراقـه ورسـوماته.

وأرَّقَتـه نظـرات (سـعيد) اللائمـة والنادمـة ﴿ نفـس الوقـت، والـذي طفـرت مـن عينيـه تسـاؤلاتها؛ مـن أيـن أتيـت بهـذه الأفـكار الشـيطانية

يـا (يوسـف)؟ صحيـح أننـي أعـذرك في انتقامـك، لكـن هكـذا؟ ليـس هـذا (يوسـف) الـذي أعرفـه.

لا بأس...قـال (جوزيـف)، فـلا يلبـث (سـعيد) أن يطيـر إلـى أرض أحلامـه.

والآن لا بأس من بعض المرح مع مؤذن المسجد!

●●●

هـذه المـرة سـوف أعمـل وحـدي، لـن يوافـق (سـعيد) علـى العبـث مـع المـؤذن، سـيظن أننـي أسـتخف بالشـعائر بينمـا أنـا لا أريـد إلا الإصـلاح، وبرغـم أن الـكل هنـا يجمـع علـى النفـور منـه ومـن صوتـه إلا أنـه يأبـى أن يرحـل ويتـرك إقامـة الشـعائر لمـن هـم أفضـل منه...صنـدوق النـذور في المسـجد لـه سـحره، والنـاس هنـا لا تحـب إحـراج أحـد.

لكن ليس أنا!

طالمـا سـأكمل العـام هنـا فـلا بـد أن أكـون إيجابيًّـا...ولا بـأس أيضًـا مـن بعـض الكوميديـا!

وهكـذا اشـترى (جوزيـف) ميكروفونًـا مطابقـا للـذي يـؤذن فيـه الرجل، واختلـى بـه في حجرتـه وأعمـل فيـه أدواتـه، فقـام بـزرع كبسـولة غـاز أكسـيد النيتـروز فيهـا وأوصلهـا بالأسـلاك الداخليـة، المفتـرض أن تنفتـق هـذه الكبسـولة الصغيـرة عنـد توصيـل الكهربـاء بالميكروفـون...والآن حـان أوان تبديـل الميكروفونـين!

اختار (جوزيف) أذان العشاء لتنفيذ خطته، ذلك أكثر أذان مشهود بين أهالي الشارع، والمسجد لا يغلق بين صلاتي المغرب و العشاء بسبب ضيق الوقت بينهما.

لا يحتاج إلا لدقيقتين يخلو فيها المسجد ليبدل الجهازين دون أن يراه أحد.

وجاء المؤذن و رفع أزرار تشغيل النظام الصوتي، وتوصلت الكهرباء بالميكروفون الجديد، واستنشق الرجل ذلك الغاز عديم اللون، وبالطبع لن يستطيع تمييز رائحته لأنها أول مرة يشمه.

وما كاد الرجل يبدأ آذانه حتى ظهر المفعول الفوري لذلك الغاز... وبدأ المرح!

أخذ الرجل يضحك بهستيريا في البداية، ثم أمسك بالميكروفون وأخذ ينشد:

نحن غرابا عك!

ثم أطلق زغروتة طويلة وأخذ بعدها يعيب في زوجته ويصف ضاحكًا مساوئها.

لم يسترسل الرجل في نوبته، فقد اقتحم المسجد سكان الشارع الغاضبون وأزاحوا الرجل عن الجهاز وهموا بالفتك به، لكنهم تجمدوا عند مظهر الرجل...

لأول مرة يشاهدون إنسانًا وعيناه تدوران في مقلتيهما بالفعل.

والرجل يؤكد لهم أنه عصفورة و لكنه لا يدري لماذا تفشل محاولاته للطيران.

وأخذ الناس يحوقلون و يضربون كفًّا بكف، و (جوزيف) يقف وراءهم يكتم ضحكاته.

ودخل إمام المسجد مسرعًا، وبعد أن استوعب الصدمة قرر التصرف و صرف هذه الفوضى، فأمر بعض الشباب باصطحاب الرجل إلى المستوصف القريب.

لا بأس...قال (جوزيف) لنفسه، فلن يلبث أن يفيق الرجل من تأثير الغاز و بالطبع لن يعود للأذان ثانية بعد اليوم.

وأفاق (جوزيف) على صوت الإمام يخاطبه:

- هيا أذِّن للعشاء يا (يوسف)!

- ماذا!!

- ماذا دهاك يا (يوسف)، لقد كنت لا تنقطع عن الجماعة حتى أخذك منَّا ذلك التوكتوك، و كنت تؤذن أحيانًا عندما يتأخر المؤذن، هيا أنقذ الموقف و ذكرنا بآذانك الجميل.

وأسقط في يده و لكن لم يجد بُدًّا من الانصياع، فبدأ يؤذن، والغريب أن خرج الصوت جميلاً من حنجرة (يوسف)، والأغرب أن (جوزيف) وجد نفسه يجوّد في الآذان ويحاول مطابقته لآذان جامع عمرو بن العاص الذي أعجبه، ودهش أن المقام الموسيقي الشرقي

لـلآذان كان يخـرج مـن قلبـه وليس مـن حنجرتـه فقـط، بـل انتبـه أن كلمـات الآذان تصلـح لأن تطبـق عليهـا المقامـات الغربيـة أيضًـا.

وبعـد الآذان سـرح في قصتـه و أخـذ يطابـق مقالبـه تلـك كـي يضعهـا في قصـة فيلمـه، حتـى أفـاق ثانيـة علـى الإمـام وهـو يناولـه مفتـاح المسـجد ويقـول لـه:

- خـذ المفتـاح مؤقتًـا حتـى نتدبـر مقيمًـا آخـر للشـعائر، ولا تنـس أن تحضـر لتـؤذن للفجـر!

وقبل أن يفيق من الصدمة قال له الإمام:

- هل لديك استعداد أن تحل أنت محل المؤذن القديم؟

●●●

(٤٢)

أنهـى (يوسـف) الكثيـر مـن الإجـراءات طـوال الأسـابيع الماضيـة؛ أرسـل مشـروع فيلـم (جوزيف) إلـى شـركة Pixar وبالفعل لاقت الفكرة ترحيبًا ووجد المشـروع طريقـه للدراسـة ومـن ثـم التنفيذ ممـا جعـل خـط الاتصـال مفتوحًـا بـين (يوسـف) و (جوزيـف) للرجـوع إليـه في كثيـرٍ مـن التفاصيل والتعديـلات، ولاسـتكمال مسـودته النهائيـة بعـد إضافـة بهاراتـه و مقالبـه!

وأحـس وقتهـا يوسـف أن نسـبة ال ١٠٪ مـالٌ حـلال قـد تعـب في مقابلـه.

وفي أثنـاء ذلـك أنهـى إجـراءات اسـتقدام صديقـه (سـعيد) إلـى أمريكا والـذي كاد أن يتوقـف قلبـه مـن الفـرح بقـرب خـروج مشـروعه إلـى النـور، وأيـن...في أمريكا ذاتهـا.

ولـم ينـدم يوسـف علـى وجـود (نيكول) إلـى جـواره، لقـد قامـت بـدور السـكرتيرة في كل مـا سـبق، وكمـا قامـت بتوفيـر طلبـات مقالـب جوزيـف وهـي تسـتغرب منهـا، فقـد أنهـت إجـراءات كثيـرة لـم يكـن (يوسـف) ليعـرف كيـف ينجزهـا بمفـرده، فقامـت بالتواصـل مـع شـركات الأدويـة لتتبنَّـى إحداهـا تجـارب عقـار (سـعيد)، و قامـت كذلـك بتخليـص كل الأمـور الخاصـة بمشـروع اللـوف وبـدأت الطلبـات تأتيهـم مـن الفنـادق ومراكـز التجميـل إعجابًـا بالفكـرة.

وعرض عليها (يوسف) صراحةً أن تقوم بدور السكرتيرة وبراتبٍ ودوامٍ كاملين بما في ذلك تدبير الكثير من شئون البيت الواسع، وأصرت هي على أن يخصم من راتبها ثمن إقامتها:

- لسنا حبيبين حتى أقيم عندك، اعتبرني أؤجر غرفة عندك في شقتك الواسعة، يكفي أنك استضفتني تلك الفترة حتى عرضت عليَّ ذلك العمل.

قالت (نيكول) ثم أكملت وهي تضحك:

- إنه عملٌ رائع أن تختصر زمن المواصلات فالبيت هو مكان العمل، بل إن مشواري للعمل أقصر من مشوارك، أنا أخرج من غرفتي إلى غرفة المكتب الملاصقة لها بينما تضطر أنت لنزول درجات سلّم الطابق العلوي.

لم يحدث بيننا أي شيء...قال (يوسف) لنفسه.

أنا لم أحاول و هي أيضًا كذلك.

إذا كنت أنا تمنعني توبتي عن أخطائي التي حدثت منذ ارتديت جسد (جوزيف)، فما الذي منعها هي؟

الحياء؟ لا أظن.

فلا حياء هنا في الجنس.

الجنس عندهم مثل الطعام...من يجوع يطلبه بلا حرج.

ولكن له آدابه كما للطعام بالضبط.

كل ما تخبرني به ذاكرة (جوزيف) أنه و (نيكول) لم يكونا أبدًا إلا أصدقاء، لكن ذاكرته تخبرني أيضًا أنهما لم يمكثا من قبل وراء باب مغلق ولأسابيع طويلة كما يحدث الآن، لا أظن أن الشيطان في أجازته السنوية هذه الشهور.

أحيانًا تلمع عيناها لمعةً غريبة و نحن نتحدث، وأحيانًا يحلو لإبليس أن يناقش معي تفاصيل بعض مفاتنها، لكن (أحيانًا) الأولى لم تتزامن أبدًا مع (أحيانًا) الثانية. فعلاً...الجنس إحساس مشترك وهذا أحلى ما فيه وأصعبه في ذات الوقت.

الغريب أن ذاكرة (جوزيف) تخبرني كذلك أنه كثيرًا ما اشتهاها في نفسه لكنه لم يحاول معها أبدًا، هذا الخبير اللعين يعرف أنها ليست فتاة العلاقات العابرة أو الليلة الواحدة، هي فتاة مستقيمة بمقاييسهم هنا! هي إما زوجة وإما حبيبة مخلصة حتى يتم الزواج، لكنها أبدًا ليست من أهل التذوق العابر...وهذا مالا يريده (جوزيف).

لكن لماذا تحلو لها الإقامة هنا في الشقة؟ هل صحيح ما تقوله أن ذلك أوفر تكلفةً لي و لها إذ نقتسم النفقات؟ هل خوفها من الوحدة ومن مصير (مدام مارجريت) جارتها السابقة هو ما يمنعها من إيجار شقة أو غرفة مستقلة لها؟ هل تنتظر زوجًا أو حبيبًا جديدًا كي تنتقل للإقامة معه كما ألمحت لي ذات مرة؟ لكنها قالت لي كذلك أن جدار ثقتها في الرجال قد انهدم بسبب (جيمس) ومن الصعب بناؤه من جديد.

يبدو أنني سأُورِّث لك شريكة في المنزل يا (جوزيف)!

وسحبه صوت (نيكول) من أفكاره وهي تقول له:

- هيا يا (جوزيف)، سوف نتأخر على المصري (سعيد).

وأفاق (يوسف) على كلماتها، لابد أن يذهبا الآن إلى المطار لاستقبال (سعيد) كي يخطو خطوته الأولى في أرض تحقيق الأحلام.

●●●

وصلا المطار وخرج (سعيد) إليهما يدفع عربة فوقها حقيبة واحدة، وابتسم (يوسف) وهو يراهن أنه يستطيع تخمين كل ما تحويه هذه الحقيبة؛ جانب منها لملابسه التي يحفظها جيداً بما فيها مناماته، وسيحتل جزءاً آخر منها التموين الغذائي الذي بالتأكيد أصرت عليه والدته أن يصطحبه معه كأنه ذاهب إلى الصحراء، في حين ستشغل أوراقه ومراجعه الجانب الباقي من الحقيبة.

وصافحه (سعيد) وأخذ يشد على يديه ويهزها في قوة وفرح، وكاد (يوسف) أن يحتضنه أو أن يصارحه: إني أنا صديقك (يوسف) فلا تبتئس ممن خذلوك، لكن أسرها (يوسف) في نفسه ولم يبدها له واكتفى بالابتسام وهو يرى الابتسامة التي غابت عن وجه (سعيد) لسنوات تعود إلى وجهه من جديد ؛الآن أصبح لك من اسمك نصيب بعد أن كنت رمزًا للحزن والاكتئاب...قال (يوسف) لنفسه.

وطـوال الطريـق و (سـعيد) يحـاول جاهـدًا أن يشـرح بعضًـا مـن تفاصيـل فكـرة اختراعـه، وللمـرة الألـف يسـمع منـه (يوسـف) حديثـه عـن الدوبامـين، و أن عقـاره يعمـل علـى المـخ فيمنعـه مـن تعطيـل مسـتقبلات الدوبامـين، إنـه يعالـج الغـرق في الدوبامـين بمزيـد منـه! فيزهـد المـخ مـع الوقـت مخـدره الـذي أدمنـه.

وبعـد أن أحـس (سـعيد) أن(يوسـف) و (نيكول)قـد شـردا منـه في التفاصيـل العلميـة والكيميائيـة للعقـار، غيـر حديثـه إلـى شـكرهما علـى اسـتضافتهما لـه في بيتهـم، إذ سـيقيم (سـعيد) معهمـا ولكـن في الطابـق العلـوي في غرفـة مجـاورة لغرفـة (يوسـف):

- لا داعي للشكر فهذا جزء من التمويل.

قالت (نيكول) ثم أكملت:

- وإذا كان ولا بـد مـن المجاملـة فأشـكر (جوزيـف) وحـده فأنـا سـكرتيرته فقـط .

ولاحظ يوسـف أن لغـة (سـعيد) الإنجليزيـة كانـت أفضـل كثيـرًا وهـو يشـرح اختراعـه منهـا وهـو يتحـدث في الأمـور العاديـة، ولـم يتمالـك نفسـه مـن الضحـك عندمـا قـال (سـعيد) (لنيكـول) بدهشـة:

- وأنتِ تقيمين معه في نفس الشقة؟

●●●

(٤٣)

ليس فأرًا واحدًا بل عائلة فئران مجتمعة تلعب في صدري...قالت (كوليت) لنفسها.

(نواف) يسافر فجأة وهو متغير ويودعني وداعًا باردًا لم أعتده منه حتى ونحن متخاصمين...

ليس فقط يعاملني من بعدها بفتور بل و يتجاهل بعض مكالماتي على غير العادة بحجة أنه مشغول...

أُحِس أنه لا يتذكر كثيرًا من تفاصيل حياتنا، فكلما حدثته في الهاتف عن أمرٍ من أمور الماضي أو ذكرى من ذكرياتنا أجده يتلعثم قليلاً ثم فجأة يتذكر ويبدأ في مجاراتي في الحديث؛ لم اعهد (نواف) لا ضعيف الذاكرة ولا شارد الذهن هكذا.

أنا كأي أنثى تمتلك الرادار الذي ينبئها بفتور زوجها عنها، وما فيه (نواف) ليس فتورًا بل تغيرًا غريبًا لا أعرف له توصيفًا دقيقًا.

أما الفأر الآخر فهو من زوجته (نوف) التي صارت فجأة تكثر من الاتصال بي و تعاملني بودٍ غير معهود، وتسألني عن أخباري وعن أحوالي وأننا ينبغي أن نوطد علاقاتنا ببعضنا وأن نتعامل كأسرة واحدة حميمة العلاقات بل وتريد أن تزورني في بيروت...

وتطمئن أحيانًا على أحوال العمل عندي...

وهذا هو الفأر الثالث...

منذ متى و (نوف) تتدخل في العمل، بل كيف أدخلها (نواف) في أعماله هكذا فجأة بعد أن كان يرفض عملها رفضًا قاطعًا معتبرًا ذلك الرفض مسألة مبدأ، بل حتى عندما نصحته أن يدع (نوف) تعمل فتقلّ بذلك المشاكل بينهما ثار و اتهمني بالتواطؤ معها، واتهمني في نفس الوقت أنني أريد أن أخرب فيما بينهما - الاتهامان في نفس الوقت لست أدري كيف؟

الآن (نوف) ليست فقط تعمل بل تشارك (نواف) في العمل ذراعًا بذراع...دوامًا بدوام...قرارًا بقرار في مكتب دبي الذي انتقلا إليه فجأة، وهذا هو العضو الرابع في أسرة الفئران تلك.

حتى صديقتي (جويل) التي توسطت لها عند (نواف) لتعيينها في مكتب دبي تقول لي:

- مستر (نواف) تصرفاته مختلفة بعض الشيء، والأغرب أن (نوف) متداخلة في أمور العمل و كأنها تعرف كل الخيوط منذ البداية، هناك شيء غريب فيه، حتى مشْيَتُه السريعة المشهور بها صارت بطيئة.

(نواف) كان لا يفوت شهرًا - أو شهرين على أكثر تقدير - دون الحضور إلى بيروت، الآن صار يتهرب من المجئ إلى هنا و يخترع في ذلك حججًا مختلفة يصعب أن تتجمع كلها وراء بعضها بهذا الشكل.

مرت على زيارته الأخيرة تلك حوالي ستة أشهر، وكلما ألمحت له في الهاتف باشتياقي إليه يحول الكلام إلى موضوع آخر، حتى صارحته ذات مرَّة:

- (نواف) يجب أن تحضر إلى بيروت، هناك أمور مهمة في العمل تحتاج لمباشرتك الشخصية.

- البركة فيكِ أنتِ يا (كوليت)، أنتِ أدرى مني بكل التفاصيل وأنا أفوضك في اتخاذ أي قرار.
- هناك عقود تحتاج لتوقيعنا المشترك نحن الاثنين كما تعلم.
- يمكنك إرسالها لي وأنا أوقعها وأعيد إرسالها لكِ من جديد.
- أفهم من ذلك أنك ما عدت تشتاق إلى بيروت؟
- لا طبعًا، من قال هذا، أنا فقط مشغول جدًا وسأحضر في أقرب فرصة.
- متى إذن؟ لقد مضى عليك ستة أشهر لم أرك فيهن.

رد بفتور:

- اصبري قليلاً...هانت!

ولأنني لم أعتد أن أكون امرأة ضعيفة...

ولأنني لا أطيق الحيرة والتوتر...

ولأن ليس من رأى كمن سمع...

ولأن لي في (نواف) مثلما لـ (نوف) بالضبط...

فقد اتصلت به:

- (نواف)؛ أنا في المطار قادمة إلى دبي!

●●●

(٤٤)

حمـدت (سـلمى) ربهـا أن تراجعـت في الوقـت المناسـب، لـو كانـت استمرت في طريقها قليلاً لقاطع مجلسها الرافضات ولمُنع عنه الباقيات من آبائهن و أزواجهن، و لربما اشتكى الرجال إلى والدها و أن (سالمة) تحرض النساء فتكون العواقب وخيمة أهونها أن يمنعها أبوها عن هذه المجالس أصلاً.

أدركت (سلمى) أنها تسرعت كثيرًا وأنها ما كان ينبغي لها أن تصادم المجتمع بهذا التعجل، ماذا تصنع؟ فليس أمامها إلا بضعة أشهر كي تقول كلمتها قبل أن تمشي.

لابأس...ستعود إلى بعض السكوت في المجالس وإلى الاكتفاء بالقصص الشيقة فيها، حتى عادت النساء يطالبنها من جديد بأن تقص عليهن ما يفتقدنه من حكاويها.

ستبدأ (سلمى) الطريق الطويل، طريق غرس المغزى من القصة في اللاوعي عندهن، و هكذا أخذت تسترد ما فقدته و عادت مجالسها للازدهار من جديد و للانتظام كما الأول.

لكنها أحست أنها لا تتقدم أي خطوة، إنها تزرع أشجارًا لا تنمو ولا تثمر إلا في سنوات طوال، اغتاظت (سلمى) كثيرًا لما أحست بالعجز، كيف استطاع إذن دُعَاة و دَاعيَات التنوير و التغيير الذين قرأت عنهم أن ينجزوا ما أنجزوه؟

وتجمعت فوق رأسها كل سحب الحيرة والغيظ والإحساس بالعجز، حسنًا؛ لنجرب شيئًا جديدًا...

قالت (سلمى) لنفسها...

سأقترح على الحاضرات أن أمحو أميّتهن و أعلمهن، هذا أمر لن يعترض عليه أحد، بالذات تلك المرأة العجوز (خضرا) التي تحرص على حضور كل مجالسي و تكتفي بالصمت المطبق مصحوبًا بنظرات غير مريحة لدرجة أنني أحس أنها أحد المخبرين...أو بالأصح إحدى العسس!

تفاجأت (سلمى) أن كثيرات لم يتحمسن لفكرة محو الأمية تلك واعتبرنها تحصيل حاصل و أنهن يفضلن ألا يضيعن وقت المجالس فيما لا يفيد! لكن (سلمى) لم تيأس و اكتفت باللاتي تحمسن وبدأت معهن فصول محو الأمية و غالبيتهن كنّ حديثات السن.

لكن (سلمى) استغربت أن (خضرا) حرصت على حضور كل فصولها بجانب مجالس حكاويها، و اكتفت أيضًا بالحضور الصامت، والأغرب أن (سلمى) أحست أن (خضرا) ليست بحاجة إلى أي محو أميّة، أحست أنها مدربة جيدًا على ما تكتبه و ليست مرتبكة كباقي النساء والفتيات اللاتي تعلمهن، إنها تعرف جيدًا كيف تمسك القلم وكيف تخطّ الحروف بل والكلمات ولا تحاول حتى أن تمثل أنها أميّة.

لو كانت دسيسة لحاولت على الأقل أن تتظاهر بالأمية وأن تحاكي الفتيات في غشوميتهن، وبدأت (سلمى) تشعر بالريبة تجاهها، وتعمدت

أكثر من مرّة أن تطيل النظر في عيني (خضرا) كأنها تتعمد أن تخبرها أنها تتوجس فيها، و الغريب أن (خضرا) قابلت تلك النظرات بنظرات أكثر ثباتًا و بابتسامة كلها ثقة.

وأخذت (سلمى) تتحسس ما وراء هذه المرأة الغامضة،لا أحد يقول أكثر من أنها (شيخة) مباركة، كانت زوجة لأحد الرجال الصالحين وكان يمتلك بستانًا من النخيل ولم يرزقا سوى بولدٍ وحيد، وفي أحد مواسم الحج خرج الزوج حاجًّا مصطحبًا ابنه الذي كان قد ناهز الخامسة عشر وقتها، لكنهما لم يعودا مع القافلة التي كانوا فيها، ولم يعرف أحدٌ عنهما شيئًا من يومها.

واستقبلت (خضرا) الصدمة بصمت عجيب، وصارت لا تتحدث إلا بالذكر والبسملة والحوقلة والحسبنة، ثم فجأة هجرت دارها التي كانت تعيش فيها واستوطنت كوخًا على ضفاف النيل، و حفظ أهل زوجها لها ميراثها من بستان زوجها وصاروا يحجزون لها ربع ريع البستان طبقًا لميراثها الشرعي، فكانت تأخذ ما يقيم حياتها حد الستر وتتصدق بباقي ريعها كله، ثم أصبحت كثيرًا ما تخرج في الطرقات تتغنى بقصائد الذكر والمديح النبوي، ولا أحد يعلم من أين أتت بهذه المدائح ولا ممن حفظتها.

وارتاب بعض الأهالي فيها الجنون و لكنها فاجأتهم جميعًا بما أظهرته من كرامات، فالكل يحكى أنها ذهبت ذات ظهيرة إلى جمع من الرجال كانوا يجلسون حول طاولة أحدى المقاهي و وقفت على رُءُوسهم ووجهت كلامها لأحدهم و قالت:

- يا (عبد البر) بدلاً من أن تحدثهم عما تتهمني به من الجنون والمس الشيطاني، اذهب و تهيَّأ لاستقبال ولدك من سفره.

وبهت الرجال لأن (عبد البر) هذا كان قبل قدومها إليهم يحدثهم همسًا أنها قد مُسّت بجنون بسبب مصيبتها، ثم ذُهِلَت رشيد كلها بعودة ابن الحاج (عبد البر) في اليوم التالي بعد سفرٍ طويل كان فيه موفدًا في بعثة تعليمية إلى فرنسا، وأن باخرته قد وصلت الإسكندرية في اليوم الذي أخبرتهم فيه (خضرا)، لكن الابن لم يصل رشيد إلا ثاني يوم.

ومن بعدها كفَّ الناس عن الريبة في أمرها بل صار الكل يتبرك بها، والكثير يحاول أن يتسقط منها خبر المستقبل أو أن يطلب منها رقية أبنائه، لكنها لم تكن تجيبهم إلى مطالبهم إلا بمقدار، وكانت أحيانًا تدهشهم بالأخبار التي لا تلبث أن تقع.

وتغيرت نظرة الريبة لدى (سلمى) إلى (خضرا) لكنها أيضًا لم تفهم لماذا تواظب على حضور مجالسها و الانتظام في دروسها.

لذلك قررت (سلمى) ذات يوم أن تفتح حوارًا معها فهي لا تحب أن تعيش في توتر وترقب، سوف يكون الدرس اليوم في بيت (سلمى) لذلك فسوف تستبقيها وقت انصرافهن و تفتح معها أي حديث.

وفوجئت (سلمى) في نهاية الدرس أن (خضرا) قد بقيت من تلقاء نفسها في مكانها بعد انصراف الحاضرات وجلست تنظر لـ(سلمى) في ابتسام غريب، واحتارت (سلمى) كيف تبدأ الكلام معها، لكن (خضرا) بادرتها وقالت:

- قولي ما لديكِ يا بنيتي و لا تترددي أو تجهدي نفسك في انتقاء الكلمات.

ردت (سلمى) بعد تردد:

- لا شيء غير أني أستغرب مواظبتك على دروسي رغم أنني أحس أنكِ متعلمة و لا تحتاجينها.

- لا أحد كبير على تلقي العلم يا (سلمى)! يا ابنتي.

وبهتت (سلمى) للحظات ثم هُيِّء إليها أنها لم تسمع الكلام جيدًا، إلا أن (خضرا) قالت:

- هو كما سمعتِ بالفعل؛ (سلمى) و ليست (سالمة).

أحست (سلمى) بالأرض تميد بها تحت قدميها لكنها تمالكت نفسها وسألتها وهي تبتلع ريقها:

- ومن أنبأكِ هذا؟

- أنبأني من أخبركِ في منامك بما حدث لكِ و لجدتك.

ردت (سلمى) في وَجَل وانفعال:

- من أنتِ؟ ما حكايتك؟ هل أنتِ معهم؟

- هونًا عليكِ يا (سلمى)، أنتِ و كل أهل رشيد تعرفون من أنا، وقد أخبروكِ عن حكايتي لمّا سألتيهم، و لهذا كنت أؤجل هذا الحديث حتى تعرفيني جيدًا ولا تذهب ظنونك بعيدًا كما تحاول أن تذهب الآن.

- وماذا كنتِ تريدين مني؟

- بل ماذا تريدين أنتِ بمجالسك و دروسك هذه؟

- أريد التغيير، أريد التنوير، أن أعلّم هؤلاء النسوة و أن أُبصّرهن بحقوقهن.

-إذن فأنتِ تريدين القفز بهن للأمام قرنًا من الزمان.

- قرنٌ أو بعض قرن أو حتى عقد واحد من الزمان، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت.

- وهل تظنين أن هذا طريقٌ للإصلاح؟ أعني هل تعتقدين أن ما تفعلينه سيثمر أي نتيجة؟

- وهل يكون إلا بذلك؟ بالتعليم و التوعية.

نظرت (خضرا) إليها بطرف عينها و سألتها في ثقة:

- يا دارسة التاريخ! هل يوجد تغيير واحد في تاريخ حياة المجتمعات تمّ بغير قوة تحركه؟ هل انتشرت أي فكرة بغير دافعٍ يدفعها وسلطة تعمل على نشرها؟

فكرت (سلمى) قليلاً وكأنها تستعرض ما درسته وما قرأته في شاشة عقلها ثم قالت:

- سأختار الطريق الطويل، وحتى لو لم أؤثر إلا في محيط مجتمع رشيد فهذا يكفيني.

- وهل شهورك المتبقية لكِ قبل عودتك تكفي كي تحققي ما تريدين؟

- اعتبريها صرخة أطلقها في البلدة، كلمتي أقولها و أمشي.

- ثم تأتي (سالمة) و تتلقى هي تبعات صيحتك و كلمتك؟ من بدأ مشوارًا فعليه إكماله أو على الأقل تحمل تبعاته!

نظرت إليها (سلمى) في ارتباك و سألتها في حذر:

- وماذا تقصدين؟

أجابتها في ثقة:

- أقصد أنكِ إن اخترتِ أن تغيري الماضي فعليكِ أن تبقي فيه لنهاية المشوار فيكون هو حاضرك و مستقبلك، والأمر إليكِ فانظري ماذا تختارين!

صمتت (سلمى) تفكر ثم قالت:

- و (حسن) و (برقان) هما من طلبا منكِ أن تخبريني بتلك الرسالة؟

- (حسن) و (برقان) هما أكثر من يريدان عودتك أنتِ وجدتك بل عودتكم جميعًا أنتم الستة.

نظرت لها في حيرة و قالت:

- لا (حسن) ولا (برقان)؟ فمن يكون إذن؟ الشيخ (البرغواطي)؟

ردت عليها (خضرا) بنفاد صبر:

- أنتِ فضولية جدًّا يا (سلمى) وتجهدين عقلك فيما لا يجدي، والأصوب أن تجهديه في تقرير مصيرك...والآن!

صمتت (سلمى) ثم قالت في غيظ:

- و هل كتب عليَّ أن أبقى باقي السنة أشاهد الخطأ و أسكت عليه؟ أليس لنا من أمرنا شيء؟ خطوات رسمت لنا ليس لنا إلا أن نخطوها و لا نقدر أن نغير من مسارها شيئًا؟

- بل إن ما أعرضه عليكِ هو عكس ما تقولين، لكن من يغير مسارًا فعليه أن يخطوه و يكمله.

صمتت (سلمى) ثانية ثم قالت و لكن في هدوء هذه المرة:

- وإذا اخترت العودة فعليَّ أن أوقف كل ما أصنعه؟

- استمري في دروس التعليم، العلم نورٌ في كل زمان ومكان، لكن لا تستعجلي حدوث ما تعلمين أنه سوف يحدث لكن في وقته، وما يدريكِ؟ لعله بعد أيامكم اللاتي جئتِ منها تأتي أيامٌ تستخف ما كنتم عليه وتعتبره عين التخلف!

وسكتت لثوانٍ ثم قالت:

- عيشي اللحظة يا (سلمى)، استمتعي بأيام قد تشكل لكِ يومًا أهم بل أحلى ذكريات حياتك.

هـزت (سـلمى) رأسـها و همَّت (خضـرا) بالانصـراف، فقالت (سـلمى) و كأنهـا تذكـرت سـؤالاً خطـر لهـا:

- سيدة (خضرا) كنت أودّ أن أسـألك سؤالاً آخر.

تنهدت (خضرا) والتفتت إليها وقالت:

- تريديـن أن تعـرفي علاقـة مصيبتـي بمـا صـرت إليـه، وبعدهـا تسـأليني عمَّـن أرسـلني إليـكِ وفوضنـي أن أقـول لـكِ مـا قلـت.

سـكتت (سـلمى) ولـم تـرد فـكل مـا هـي فيـه اسـتثناء مطلـق لا مجـال للاسـتغراب فيـه، فاقتربـت منهـا (خضـرا) ونظـرت في عينيهـا بعمـق ثـم قالـت والدمـوع تترقـرق في عينيهـا بغيـر أن تدمـع:

- فأراد ربها أن يبدلها خيرًا منهما وأقرب رُحما.

ثم استدارت وانصرفت، و لم ترها (سلمى) بعد ذلك في مجالسها.

●●●

(٤٥)

الارتباك كان هو عنوان المشهد بعدما هرعت (نوف) إلى مكتب (نواف) لتقول له:

- (نواف) أدرِكْني؛ (كوليت) اتصلت بي من دقيقة، وهي في السماء الآن تطير نحو دبي.

عشرات من الأسئلة تزاحمت عند عقليهما كلها تريد إجابة، وأبسطها سؤال: أين ستقيم (كوليت).

(كوليت) تعلم أن مكتب (نواف) يحتل طابقًا في البرج المطل على الخليج، و تعلم أنه يمتلك ثلاث شقق أخرى في البرج ويقيم هو و(نوف) في إحداها.

الرفاهية في دبي ليست أن تقيم في فيلا بل في شقة في قمة أحد أبراج هذه المدينة متعددة الطوابق، وقمة العملية أن يكون مقر عملك هو محل سكنك فتوفر ساعات مهدرة في الشارع في ساعات ذروة المواصلات.

و (كوليت) طلبت صراحةً في المكالمة تجهيز إحدى الشقق فهي في زيارة طويلة قد تمتد شهورًا.

ولكن ماذا عن بقية المعضلة؟

إن فتوراً في العلاقة قد حدث بين (نوف) و (نواف) عندما سألته عما ينتوي فعله بخصوص (كوليت) في نهاية العام، فأجاب إجابة مائعة، فها هي (كوليت) تقفز إلى القارب مطالبةً بحقها في (نواف) الذي هو الآن (نوف)!

- المطار هو الحل يا (نواف)، سأخترع أي سفرٍ أسافر فيه الآن، وتول أنت حلّ مشكلتك بنفسك.

- هل هذا معقول؟ أنتِ قلتِ أنها جاءت لتمكث شهوراً، فهل ستفرين طوال هذه الشهور؟ هل نسيتِ جدولنا المزدحم هذه الأيام؟ هناك أطنان من الأوراق ستستلزم توقيعك، بل ماذا عن (أسيل)؟

سكتت (نوف) ثم قالت في لوم:

- أنت من وضعتنا في هذه المشكلة، لو كنت قنوعًا ورضيت بالانسجام الرائع الذي حدث بعد التحول بيننا و طلقتها لما كنّا في هذا الوضع.

- هل سأقولها مائة مرة؟ كيف أطلقها و أنا (نوف) الآن وكيف ستطلقينها أنتِ و أنتِ لستِ (نواف) في الحقيقة، هذا غير مقبول لا شرعًا ولا قانونًا.

- (نواف)! هذه زوجة افتقدت زوجها المتغيب عنها منذ ستة أشهر، وجاءت لتعيش معه حيث يقيم، هل تفهمني؟ هل أحتاج لأن أشرح المزيد؟

صمت (نواف) ثم قال:

- تهربي منها، لا تتركِ فرصة للاختلاء بينكما.

سألته باستغراب:

- وحتى متى؟

- حتى نفكر في تصرفٍ جديد، أو يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

وفكرت (نوف) مع نفسها، إن الفرصة قد جاءتها بقدميها حتى عندها، ستضع كلمة الطلاق في قلب (كوليت) و على لسانها، ستعود إلى بيروت رافعة راية الطلاق...

لكني لن أصفو ل (نواف) كأيام الصفو الأولى التي كانت بعد التحول...

قالت (نوف) في سرها:

- لقد شرخ قلبي.

●●●

(٤٦)

- لم أكن أعلم أن الأمر سيكون مثيرًا لهذا الحد؛ أن تتعامل مع إنسان تعرفه و تراقب تصرفاته و هو لا يدري عن حقيقة أمرك شيئًا.

قال (يوسف) لنفسه...

تُرى؟ لو سألت (سعيد) الآن - وهو يظنني (جوزيف) - عن رأيه في صديقه (يوسف) ماذا سيقول؟...لا...ليس لهذا الحد، يكفيني أن أراقب تصرفاته في بلاد الفرنجة كما يحلو له أن يسميها، أن أشاهد هذا الحماس الذي اشتعل في قلبه بعد أن كانت روحه قد انطفأت، أن أستمتع بمراقبة تعاملاته مع (نيكول) وهو الشاب الخجول الذي كان يرتبك إذا فاجأته الظروف بأن يتعامل مع أي أنثى، فها هو الآن يتعامل مع (نيكول) طوال الوقت.

(نيكول) هي من تولت الاتصالات مع الشركة التي سيقوم (سعيد) بتنفيذ اختراعه في معاملها، هي من تولت التفاوض مع الشركة في طريقة التمويل وحصص كل طرف في حال نجاح العقار، وستكون هي حلقة اتصاله معهم ومع موردي الخامات التي يحتاجها عقاره، بل سيقيم معها ومعي في شقة واحدة، وكاد (يوسف) أن ينفجر ضاحكًا لِما ظهر من عرق الارتباك على جبهة (سعيد) بعد أن عرف بذلك وتلعثم وهو لا يدري ماذا يقول وهل يقبل أم يرفض.

الحقيقة أن الوضع كله كان محيرًا ل (سعيد) فقد فكر لماذا يُصرُّ (جوزيف) على استضافته في بيته؟ صحيح أنه سيمول تنفيذ نموذج الاختراع ولكن ذلك ليس سببًا كافيًا لأن يستضيفه خصوصًا في وجود (نيكول).

ولماذا تقيم (نيكول) مع (جوزيف) أصلاً وهي سكرتيرته فقط كما قالت هي؟ هل هؤلاء الناس عمليون واقتصاديون إلى هذه الدرجة؟ أن يقيم صاحب المشروع والسكرتيرة مع الممول في بيته فيقتصدون في الوقت والنفقات؟ هل معقول أن (نيكول) مجرد سكرتيرة وصديقة قديمة (لجوزيف)؟

ليس هذا شأني على كل حال.

قال (سعيد) لنفسه...

أنا هنا في مهمة لتحقيق نجاحي وأحلامي، وإذا أحسست بأي ضيق أو شعرت أنني خيال مآتة يتبادل العشاق قبلاتهم تحت ظلاله فسأطلب فورًا أن أنتقل إلى أي مسكن غير هذا المكان الذي يسمونه شقة وهو في الحقيقة قصر، لكنه قصرٌ (مودرن) جدًا.

أخذت (نيكول) (سعيد) في جولة في الشقة، و (يوسف) يضحك في نفسه من الخجل الواضح و الطبيعي في تعامل (سعيد) معها؛ لم تكن تدعي الحياء في تعاملك معهن إذن يا صديقي...

قال (يوسف) لنفسه...

ثم أحس بالخجل من نفسه من سابق سقطاته.

هل ستصدقني يا (سعيد) إذا قلت لك أنني سقطت ثلاث مرات قبل مجيء (نيكول) في حين لم أذق منها قبلة واحدة بعد أن جاءت لتقيم معي في شقة واحدة؟

ورويدًا بدأ (سعيد) في الاعتياد على وجود (نيكول)؛ سكرتيرة صباحًا و ديرة المنزل مساءً و مجرد صديقة (لجوزيف) طوال اليوم.

وأصبحت هي تراعي مستوى المساحات المكشوفة من جسدها لِمَا لاحظته من توتر (سعيد) حيال ذلك، فامتنعت عن ارتداء الشورت - بكل مستويات طوله - بعد أن كان الزي الرسمي لها في المساء.

وكان يحلو (ليوسف) أن يراقب ملامح (سعيد) في تعامله معها وكأنه يحاول أن ينفذ إلى أعماق تفكيره، إنه يعلم رأي (سعيد) المسبق في (نساء الفرنجة)، إذ لا يَراهنَّ إلا مُنحلات، لا يرتدين بل لا يعرفن ثياب الفضيلة التي لا تنسج في بلادهن أصلاً، وكان يستشيط غضبًا عندما يرى إحدى سائحاتهن في حي مصر القديمة وترتدي ثياب أختها الطفلة وتريد أن تدخل بها أحد المساجد أو الكنائس الأثرية هناك.

لم يبق إلا أن تحتضن صديقها تحت ظلال المنبر...

كان يقول (سعيد) (ليوسف) و هو يتميَّز غيظًا...

لم يكفِ هؤلاء مؤامراتهم السياسية على بلادنا فهاهم يتآمرون على أخلاقنا وتقاليدنا المحافظة.

ألا يكتفون بتدنيس شواطئنا؟ بل و يريدون أن تظلل سحب ثقافتهم المنحلة سماء آثارنا ومقدساتنا؟

فماذا لو علمت يا (سعيد) أن هذه التي تتعامل معها ليل نهار أجهضت من حرام؟

وتمنَّى (يوسف) لو رطن (سعيد) أو برطم بأي كلام عربي وسط حديثه مع (نيكول) أو معه حتى يفصح عن نظرته إليهم.

لكن (سعيد) لم يفعل ذلك لحسن الحظ...قال يوسف.

ولو فعل ذلك لما تمالكت نفسي من الضحك و لفطن (سعيد) أنني أفهم العربية فيتحفظ في كلامه أمامي و تضيع كل الإثارة في مراقبته.

ها هي الظروف تضع واحدة من نساء الفرنجة في تعامل مباشر مع (سعيد) و طوال اليوم تقريبًا، حتى في ذهابه إلى معمل الشركة كانت هي تقوده بسيارة (جوزيف) إلى هناك، بل و تطوعت في إعداد برنامج سياحي له في سياتل كانت هي فيه مرشدته السياحية... وما أكثر الأماكن التي تستحق الزيارة في سياتل؛ عدد لا يحصى من المنتزهات والحدائق كلها أجمل من بعضها، لكن أكثر ما أثار اهتمام (سعيد) كان برج (إبرة الفضاء)، وذُهِلَ من تجربة الغداء في مطعم (سكاي سيتي) الرابض في قمة البرج ليطل على المدينة و على المحيط الهادي من ارتفاع ١٨٠ مترًا.

واهتم (سعيد) بمتاحف سياتل العلمية و الفنية وهو الشيء الذي أثار إعجاب (نيكول) باهتماماته الثقافية، لكن ما أثار استغرابها هو

رفضه القاطع للجلوس في أي مقهى من مقاهي ستاربكس وبدون ذكر أي سبب لهذا الرفض:

- أنت هنا في عاصمة إمبراطورية ستاربكس، هل يعقل أن تكون في سياتل و لا تزور أول فرع له في تاريخه؟

- اعذريني، فقط لا أريد ذلك.

وكثيرًا ما كانت هذه الجولات تقتصر عليهما بدون (يوسف)، إذ تكون عادة بعد انتهاء (سعيد) من عمله و هما في طريقهما للعودة إلى المنزل، ساعدت هذه اللقاءات (سعيد) كثيرًا على تحسين لغته الإنجليزية في المحادثات اليومية العادية بعد أن كان لا يتقنها إلا في المجال العلمي، كما ساعدت أكثر على ذوبان الجليد في نفس (سعيد) تجاه نساء الفرنجة، و بدأ يرى الجانب الآخر لهن في تعاملاته مع (نيكول).

أكثر ما أعجبه فيها أنها فتاة عملية نشيطة، لا تكتفي بأداء واجبات عملها بل تهتم بالتجويد في أدائه، فلم تهتم مثلاً بمجرد البحث عن قائمة موردي خامات اختراعه بل صرفت ساعات من وقت فراغها للاستقصاء عن أفضلهم و نوعية خاماتهم ومن أين يحصلون عليها، بل اهتمت بالقراءة في الإدمان والدوبامين وكيمياء المخ، وكثيرًا ما تناقشت معه أو استفسرت منه عن بعض النقاط العملية فيه...

- هل تعشقين الشكولاتة؟

- وهل توجد أنثى لا تعشق الشكولاتة؟

- وبماذا تشعرين و أنتِ تأكلينها؟

- أشعر أحيانًا و كأنني أطير فوق سحابة بنية اللون كلونها... بالرغبة في المزيد منها بغير توقف ، وهذه هي معركتي معها ومعاناتي منها.

- لكن ماذا لو وضعت أمامك أكوامًا من الشكولاتة و المطلوب منك أن تتناوليها وحدها بدون ماء؟

فكرت (نيكول) قليلاً ثم ظهر الجزع على وجهها و اقشعر جلدها و قالت:

- لن أستطيع ذلك بالتأكيد، سأتوقف بعد قليل منها وتعاف نفسي الباقي.

- هذا بالضبط هو ما يفعله عقاري...يجعل المدمن يعاف مخدره.

وبالطبع تطرقت أحاديثهم إلى خارج مجال العمل، ووجد (سعيد) عندها معرفة جيدة بأهل الشرق وحياتهم و أفكارهم، وإن كانت لا تخلو من تشويه.

- بالتأكيد يعمل إعلامهم قصارى جهده على تشويه صورتنا ما استطاعوا...

قال (سعيد) لنفسه...

ورويدًا تحولت محاوراتهم التي صارت تشغل جزءً كبيرًا من أوقات فراغهم إلى نقاش ثقافي وحضاري شرقي غربي، و أدرك كل منهما كم

التشوه في نظرة الآخر إليه، بالطبع حاول كل طرف أن يصحح هذه النظرة وأن يمسح غشاوة عدستها.

واستغرب (سعيد) أن وجد نفسه يتحاور في سعة صدر في أفكار غريبة كان مجرد إثارتها أمامه يثير اشمئزازه وحنقه، ودهش (سعيد) أنه لم يَسُب (نيكول) ولم يلعن تربيتها حين أخبرته بقصتها مع (جيمس) ولم ينظر إليها كعاهرة، بل وجد عقله يعتبرها مجرد ضحية، وحاول أن يقنعها أنها ضحية نظام فاشل في علاقة الرجل والمرأة، لكنها أصرت أنها ضحية أنانية (جيمس) وسوء اختيار قلبها له، بدليل أن بعض صديقاتها نجحن في علاقاتهن وأن منهن من تزوجت بالفعل من صديقها الحميم...

- كما تقولين؛ البعض نجحن، لكن كم (جيمس) وسط هؤلاء الرجال؟

- كثيرون للأسف، لكن ما هو البديل؟

- البديل هو اقتصار العلاقة على الزواج ولا شيء قبله.

فغرت (نيكول) فاهها و قالت في دهشة:

- هكذا مرة واحدة؟ بدون مقدمات ولا سابق تجربة؟ على أي أساس سيختار كل طرف إذن؟ ماذا لو صُدِم أيٌّ منهما بطبعٍ في الآخر لم يكن يعرفه؟ ماذا إذا صُدِم فيه جنسيًّا؟ صدقني معظم المشاكل الزوجية تأتي من الفراش.

- وأنتِ؟ ألم تُصْدَمي في (جيمس) برغم كل هذه الاحتياطات؟

هزّت رأسها موافقة وقالت:

- للأسف صُدِمت، و للأسف لا يوجد نظام اجتماعي ليس فيه سلبيات، لكننا اخترنا النظام الأكثر وضوحًا وصراحة مع النفس.

- بل قولي الأكثر لذة و إمتاعًا للنفس، ثم النتيجة كمٌّ الخيانات والأطفال غير الشرعيين و الأسر المفككة.

ثم أحسَّ (سعيد) بفظاظة كلامه فاعتذر عن كلماته الجارحة، فردت عليه (نيكول):

- لا عليكَ، كلامك لا يخلو من بعض الحقيقة.

ثم أكملت و دمعة تتجمد بين رموش عينها:

- صدقني أنني لم أخن (جيمس) أبدًا و أنا معه، ولم أُكوِّن في حياتي أي علاقة عابرة من علاقات الليلة الواحدة.

- أنا آسف مرة أخرى.

●●●

(٤٧)

صار (جوزيف) شخصًا استثنائيًّا في حياة (سالمة)...العلاقة الإنسانية الوحيدة خارج دائرة أسرتها وصديقاتها، علاقة لم تستطع أن تسميها أو أن تصفها، تشعر أحيانًا أنه حفيدها لِمَا بينهما من فاصل زمني، وأحيانًا تراه كأنه أبوها أو جَدّها لما لديه من خبرات عريضة في الحياة تتعلم منها الكثير.

وفي المقابل كانت (سالمة) كذلك بالنسبة (لجوزيف) و أكثر، الأسرة والصديق ومخزن الأسرار الذي يفضي إليه بكل أسراره و مغامراته، كان يفكر فيها أول ما يفكر بعد كل مقلب ناجح من مقالبه، و يسارع بعده إليها كي يقص عليها في استمتاع، تخيل لو أنها لو لم تكن في حياته لايجد من يحكي له مصائبه و مقالبه وأفكار رسوماته؟ كان يمكن أن يُجن فيها.

لا معنى للإبداع عند أي مبدع إن لم يجد من ينبهر به، حتى المقالب...

وكانت (سالمة) تضحك أحيانًا حتى تدمع عيناها، لكنها لامته كثيرًا على حادث موقف المركبات...

- أنا أيضًا تألمت كثيرًا بعدها ولم أذق النوم لعدة ليالٍ ولكن هل كنتِ تريدينني أن أترك ثأري؟

- وهل كان ثأرك يحتاج لكل هذا الانتقام؟ ثم إنك قلت أن كثيرًا من الأبرياء قد تضرروا.

- لقد فكرت كثيرًا ولم أجد أي خطة بديلة للأسف، وتضايقت أن بعض من كنت أقصدهم بالانتقام لم يتضرروا بالذات هذا ال (بعليكة)، وتضايقت بالذات لما تضرر من تضرروا في أرزاقهم وبعضهم لم يشارك في أذيتي، لكني بعد تفكير وجدت أنهم شركاء في الموقف العبثي كله، ولولا موافقتهم الضمنية وسكوتهم من البداية على تلك الفوضى والبلطجة لما كان لموقف السيارات أن يكون بهذا الشكل.

- أنت تريح ضميرك فحسب بهذا الكلام، أليس كذلك؟

- بل هي من أساسيات قوانين المجتمعات؛ الصامتون على الظلم والفوضى هم أكثر المضارين منها.

وسكتت (سالمة) و قد التمعت في ذهنها فكرة، فسألته:

- برأيك يا (جو)، في أي جانب مما حدث يقع الشر والظلم؟

- بمعنى؟

- المتضررون من انتقامك يرونه شرًا وظلمًا حاق بهم بينما تراه أنت العدل والجزاء فيما فعلوه بك من شر، وهذا الذي تراه شرًا فيما فعلوه بك يرونه هم عقابًا عادلاً لوشايتك بهم التي يرونها فعلاً شريرًا منك بينما تراه أنت فعلاً طيبًا، وهكذا ستجد أن الشر والظلم الذي تشتكي وجوده في الدنيا لم تستطع في موقف صغير أن تحكم عليه حكمًا مطلقًا بأنه شر.

- بل الشر عند من بدأ أول فصول ذلك المشهد العبثي، عند من سمح بوجود الفوضى في موقف السيارات و تغاضى عنها بل وتكسب منها.

- وحتى هؤلاء ستجد عندهم ألف مبرر لما يفعلونه، وستجدهم يلقون بلائمة الشر على من فوقهم، وكلما صعدت في سلم الأسباب وجدت عندهم المبررات، وحتى لو وصلت لقمة الهرم ستجد من فوقها يلقي باللائمة على من تحته و لربما ألقاها على آخرين خارج هرمه ومنظومته، وهكذا... إلخ. حتى المحتل الغاصب ستجد عنده مائة مبرر لما يفعله و يراه عين الخير و الصواب.

ضحك (جوزيف) في سخرية و قال:

- هل كي تحلين لي معضلة الشر كعائق أمام الإيمان تنفين وجود الشر أصلاً و تجعلينه نسبيًّا؟ ألا ترين شرًا أو ظلمًا في هذه الدنيا؟

- بل هو موجود بالطبع، ولكني أريك كم هو ملتبس و معقد، وحتى في حادث أنت طرفه لم تستطع منع نفسك من ظلم بعض الأبرياء واعتبرتهم يستحقون ما حصل لهم، فما بالك إذا جئت لتقيس و تقيّم ما يحدث في العالم بأسره؟

أطرق (جوزيف) مفكرًا وهز رأسه و قال:

- فلماذا سَمَحَ بوجود الشر من البداية في عالمه الذي خلقه؟

- هل كنت تريده أن يصادر علينا خياراتنا؟ هل تريد أن تكون مسيرًا أم مخيرًا؟

- مخيرًا بكل تأكيد، ولكن لماذا يجعل تحت أيدينا كل هذا الكمّ من الشر والظلم؟ لماذا لم يقلله؟ إن لم يكن رحمة بنا فرحمة بعقولنا كي لا تطيش في إيمانها به.

سكتت (سالمة) لثوانٍ ثم قالت:

- هو عالمه وهو حرٌّ فيما يخلقه فيه، وما قد تراه شرًا قليلاً قد يراه غيرك شرًا كثيرًا في حين لا يراه ثالث شرًا أصلاً، والأهم من كل ذلك أن وجود الشر في الكون لا ينفي وجود خالقه.

هز (جوزيف) رأسه وسكت لدقيقة ثم غير مجرى الحديث وقال لها مبتسمًا:

- والآن أخبريني عن آخر مغامراتك مع هذه الدنيا الجديدة عليكِ، أنا جاهز لتلقي الأسئلة.

●●●

- من هو (يوسف) هذا يا (سلمى)؟

هكذا سألتها صديقتها (نهى) بخبث ونظرات موحية:

ردت عليها (سالمة) وهي تحاول التظاهر باللامبالاة:

- صديق...مجرد صديق.

- وأين تعرفتِ عليه؟ ولماذا قطعتِ صلتك إذن بكل أصدقائك من الشباب؟

نظـرت (سـالمة) إليهـا ـ في حيـرة كحيـرة العالـم الفيزيائـي (ماكس بلانـك) إذا سـأله طفـلٌ صغيـر أن يشـرح لـه نظريـة الكـمّ الفيـزيائـي... بالتأكيـد أنـا خيـر مـن يجيبـك و لكـن كيـف سـتفهمي كلامـي؟

وانتبهـت (سـالمة) إلـى أن الصـورة التـي يراهـا النـاس هـي صـورة (سـلمى) تقابل بانتظـام شـابًّا اسـمه (يوسـف)، لذلـك طلبـت مـن (جوزيف) أن يكتفيا بالمكالمات الهاتفية و لا داعي أبدًا لأن يلتقيا ثانية في الجامعة...

– ولماذا؟

– لأن الزملاء بدَءُوا يتساءلون و يتهامسون.

– وما شأننا بهم أو شأنهم بنا؟

– نحن نعيش بين الناس و لسنا جُزُرًا منعزلة.

– الذيـن يتسـاءلون اليـوم هـم نفـس الذيـن تسـاءلوا مـن قبـل عن سـبب تغيـر (سـلمى) مـع أصدقائهـا و بالتأكيـد كانـوا يعيبـون مـن قبـل عليهـا كثـرة أصدقائهـا و انفتـاح حياتهـا...صدقينـي لـن تسـلمي مـن كلام النـاس أبـدًا، والصـواب أن تفعلـي مـا تقتنعيـن بـه و لا تلقـي بـالاً لـكلام أحـد.

– إذن تستوي نظرات الناس عندك سواء رأوك طيبًا أو شريرًا؟

– كلا بالطبـع لا تسـتوي، لكنـي أقصـد حياتـي الخاصـة، فليـس لإنسـان أن يحكـم عليهـا طالمـا أننـي لـم أؤذِ أحـدًا.

– ولكن كل مجتمـع لـه أعرافـه و تقاليـده، ومـن يصـادم هـذه الأعـراف والتقاليـد في تصرفاتـه فهـو بذلـك يـؤذي مجتمعًـا بأسـره وليـس مجـرد أفـراد منـه.

- حتى وإن كانت تقاليد خاطئة و أعراف بالية؟

- ومن يحكم عليها بأنها خاطئة و بالية؟

- العقل والمنطق...لقد واجهت من تصرفات الناس هنا ما لا يصدقه عقل، أهونها مكبرات الصوت التي تصدح ليل نهار وينادون بها على كل شيء في حياتهم، و عندما تناقشت معهم فيها صدموا من كلامي في البداية لكنهم مع النقاش المنطقي أقروا بخطئها وأنها في البداية كانت موطن استنكارهم ثم بعد ذلك ألفوها، وفي النهاية قلدوها جميعًا.

- وما علاقة هذه التصرفات بالعادات و التقاليد؟

- جميع العادات تمر بنفس دورة الحياة، يلد التصرف أحدهم ثم يقلده بعضهم ثم مع الوقت ينتشر في المجتمع حتى يصبح من تقاليده، لهذا سمّيت تقاليد من تقليد الناس لها...عفوًا هذه تقاليد تخص أصحابها ولا شأن لي بها.

- دعني أسألك سؤالاً؛ هناك شعوب لا ترى عيبًا في الضراط أمام الآخرين لأنهم يرونها سمومًا لا يجب أبدًا حبسها داخل الجسم - وهي كذلك بالفعل - فهل إذا سافر أحدهم إلى أي بلد يكون من حقه إطلاق أمعائه أصوات و رائحة على الناس كيف يشاء؟

ضحك (جوزيف) حتى أخذه السعال ثم قال بعد أن هدأ:

- لا طبعًا؛ لأنه بذلك سيؤذي من يأنفون مما لا يأنف منه قومه،

لكن دعيني أكون أكثر وضوحًا، دعينا نتكلم عن العادات والتقاليد التي تؤثر بعمق في حياة الناس، ما ضرر المجتمع أن يتقابل فلان و فلانة أو حتى أن يتواعدا؟ لماذا يجبرهما المجتمع على كبت غرائزهما فقط لأن هناك من يرى في علاقتهما عيبًا؟

- المجتمع لم يكبت غرائزهما، إنه فقط نظمها بقوانين الزواج كي يضمن حقوق المرأة و الأطفال إذا حدث حمل وأيضًا كي لا تنتشر العلاقات الغير شرعية فتشيع الفاحشة.

- هذا هو مربط الفرس، اعتبار هذه العلاقة بدون هذه الورقة فاحشة و عيبًا، واعتبار ثمرة هذه العلاقة أبناء زنى لا محل لهم من الإعراب في مجتمعكم، والنتيجة؟ كبت للشباب و أمراض نفسية بالجملة.

- الكبت لا يكون إلا بغلق جميع المنافذ، لكن الزواج بمثابة بناء السد أمام النهر الثائر و تصريف المياه منه بحساب و حكمة كي يروي الأرض بدون أن يغرقها.

- الذي تسمينه سدًا حكيمًا في إرواء الأرض هو ما جعل صديقتك (نهى) تلجأ للورقة العرفية بعد أن فاض الصبر بها و بحبيبها، مجرد محاكاة لورقة الزواج، ثم وقعا في ذات المشكلة الأصلية لمَّا حدث الحمل.

- هذا لأنه لم يكن زواجًا حقيقيًّا ذلك الذي يعقد بعيدًا عن أعين الأهل في الخفاء.

- عدنا لنفس النقطة...العيب الذي اخترعه المجتمع.

- بل عدنا لنقطة أنهما لم يتزوجا حقيقةً.

- وماذا منعهما من الزواج الحقيقي؟

- التعقيدات التي وضعها المجتمع، كمية التكاليف المادية التي افترضوها لقبول أي عريس، المفهوم الغريب أن الزواج لا ينبغي قبل أن تنتهي الفتاة من دراستها وأن يلتحق الشاب بعملٍ مضمون.

- إذن فأنتِ تريدين أن يتزوج الشباب وهم دون العشرين؟ من في ذلك السن يتحمل مسئولية زواج وبيت وأسرة؟

- في زمني كانوا يتحملون، وليس في بلادي وحدها؛ ستجد في أوروبا وقتها مجتمعات يبدأ الشاب فيها مسئولية الأسرة في سن الخامسة عشر!

- الزمن قد اختلف والناس قد تغيروا وما كان يصلح في الماضي لا يصلح الآن.

- لا شيء تغير في الدنيا، أنتم فقط من عقَّدتم دنياكم.

- هل تقترحين إذن أن تتزوج الفتاة وتترك دراستها الجامعية بل ربما الثانوية لتتحمل مسئولية الزواج؟

- ولماذا تتركها؟ هل المتفوقة التي تلتحق بالسلك الجامعي بعد تخرجها لا تستطيع الزواج إلا بعد الحصول على درجة الدكتوراه؟ إن بعض الأستاذات الجامعيات لديهن من الأبحاث والمحاضرات ما يفوق مسئولية أي طالبة، فهل المطلوب من الأستاذة الجامعية أن تَتَرهَّبن في محراب الجامعة؟

– دعكِ من الفتاة، ماذا عن الشاب؟ كيف سينفق على أسرته الجديدة؟

– كما كان ينفق عليه أبوه قبل الزواج، أو كما يفعل الشاب و الفتاة عندكم عندما يقرران العيش معًا.

– أنتِ تريدين مجتمعًا من الأغنياء.

– بل كان كل الناس يفعلون ذلك في أيامي، وحتى اليوم ستجد أُسرًا متوسطة الحال تُزوِّج أبناءها و بناتها في كنفهم وتحت سقف بيتهم حتى يتيسر للابن حاله و ينفصل بحياته وأسرته.

– وأين الخصوصية؟ كيف يكون في مقدور حديث السن أن يحسن اختيار شريكته؟

– كما يختار طلاب الثانوي عندكم رفيقاتهم، وفي حين تنتهي معظم هذه العلاقات عندكم بالهجر والملل فإن معظم الزيجات وقتنا كانت ناجحة و نادرًا ما يقع الطلاق.

– كان الطلاق نادرًا لأن مجتمعكم كان يعيبه، وكان يقهر المرأة في الرضا بنصيبها، هذا إن كان لها من البداية أي دخل في الاختيار أساسًا، في حين يتيح للرجل الفرصة الثانية والثالثة للزواج بكل أنانية.

– برغم أن ما تقصده من قهر المرأة هي حالات فردية ولكن ما هو البديل؟ تعقيدات اليوم في الشرق؟ أم العلاقات بلا ضوابط كما في الغرب؟

- إذا تخلصتي من نظَّارة العيب التي تنظرين من خلالها ستجدين أن ما وصل إليه الغرب هو التطور المنطقي عبر تجارب الأمم؛ أولاً جسد الفتاة والفتى ملك خاص بهما و ليس لأب أو عائلة أو مجتمع أن يحجر على هذه الملكية بدعوى الشرف، ثانيًا كبت الرغبات إما أن يدمر النفسية أو أن ينفجر في علاقات سرية كما في حالة صديقتك (نهى)، ثالثًا لن يصل الشاب أو الفتاة للنضج في الاختيار إلا بالاحتكاك بالآخر وتعدد التجارب.

- ويقبل الأب و الأخ على بناتهم أن ينخرطوا في هذه العلاقات؟

- طبعاًآآ! وهذا هو الاتساق مع النفس والعدل في الحكم، ليس عندنا حالة الفصام التي في مجتمعات الشرق فتتغاضى للرجل عما قد تقتل بسببه المرأة.

- حسنًا؛ سأخلع كل نظَّارات العيب والشرف بل والدين وسأرتدي نظارتك تلك، هل هذه الطريقة قد حلّت مشاكل علاقات النساء والرجال؟ أعني أنكم في الغرب تواجهون مشاكل لا تحصى برغم ما تقول؛ فكم فتاة تضطر لإجراء الإجهاض لحملٍ غير مرغوب فيه؟ وكم أم عزباء عندكم؟ وكم فتاة أو امرأة تجد نفسها في العراء إذا تخلَّى عنها حبيبها وليس لها دخلٌ مالي؟ صديقتك (نيكول) التي حدثتني عنها و التي أخبرك (يوسف) بما جرى لها إنما هي مجرد مثال من ملايين الفتيات في مجتمعاتكم.

- (نيكول) لو لم يطردها عملها أو لو لم تكن علاقتها بأسرتها مقطوعة لكان وضعها مختلفًا.

- وكم فتاة عندكم تنفق عليها أسرتها بعد انتهاء دراستها؟ كلهن مُطَالبَات بالعمل وبأن ينفقن على أنفسهن، لهذا فإن كثيرًا من نساء الغرب يعانين القلق المزمن ونسبة من يصبن بالاكتئاب منهن نسبة مخيفة، خصوصًا وأن الشباب عندكم يعزفون عن الزواج و يريد أغلبهم استمرار العلاقة هكذا.

- المشكلة هنا مشكلة مادية، دعينا لا نخلط الأوراق.

- بل كلها أوراق نفس اللعبة وعناصر في منظومة واحدة، لا يمكنك أن تلعب بورقة و تتجاهل الأخرى، وحتى إذا تجاوزنا تعقيدات ما قبل الزواج و نجح الشاب و الفتاة في العثور على نصفه الآخر؛ كم زواجًا عندكم ينتهي بالطلاق؟ كم هي نسبة الخيانة الزوجية عندكم؟ أرقام كبيرة لا شك، أليس هذا دليل فشل هذه المنظومة؟ أو على الأقل وجود خلل جسيم فيها؟

- على الأقل لا نعاني من الكبت والحرمان الجنسي، انظري إلى التحرش الجنسي هنا في الشارع.

ردت عليه بدهشة:

- ليس عندكم كبت جنسي؟

ثم أردفت:

وهذه الأرقام العالية من الاغتصاب في الغرب ماذا تكون؟ وذلك الكمّ من القضايا المرفوعة يوميًّا بسبب التحرش الجنسي في العمل

والجامعات؟ و تلك النسبة المفجعة للفتيات عندكم اللاتي يفقدن عذريتهن على يد أحد محارمهن؟ ماذا تسمي كل ذلك؟

- الأمر أعقد من أن نشير بأصابع الاتهام لهذا السبب أو ذاك، حياة أي مجتمع منظومة متداخلة و معقدة.

- إذن فأنت تقر أن منظومتكم ليست مثالية ومليئة بالثغرات؟

ابتسم جوزيف و قال:

- كل هذا الحوار الطويل والجدل الحضاري فقط كي لا تقابليني؟

ابتسمت بدورها و قالت:

- ومن قال أنني لا أريد أن أقابلك!

●●●

(٤٨)

بالتأكيد اختارت (سلمى) أن تكمل باقي شهور زيارتها للماضي على خير، لا داعي لاصطناع بطولة لن تقدر على دفع ثمنها، إنها برغم مرور كل تلك الشهور عليها ما زالت تحنّ لحياة المستقبل، تفتقد هاتفها المحمول و تطبيقاته... السينما و التلفاز...الأصدقاء وسفرياتهم ومقاهيهم و أنشطتهم...تفتقد حتى الحمام! لكنها ما عادت تفتقد مطاعم الوجبات السريعة ولا حياة الصخب و السرعة وبالتأكيد لا تفتقد التلوث...

إذن فلتكمل مشوارها على خير و تقضي شهورها تلك في دروسها التي بدأتها، على الأقل تكسب ثوابًا في محو أمية بعض النساء هنا.

فرصة أيضًا أن تتعلم بعضًا من فنون نساء الماضي؛ أي فتاة هنا تجيد ما نعتبر صاحبته في زماننا خبيرة في الطهي أو التطريز أو الأشغال، كل أصناف الطعام يقمن بإعدادها من خاماتها الأولية، حتى الشربات و الجيلي.

ثم خطرت في ذهنها فكرة، لماذا لا تكتب بعد عودتها قصة تسجل فيها ما عاشته؟ رواية تدون فيها حياة نساء الماضي وحواديتهن وأفكارهن؟ إنها فوجئت بهنّ هنا يرفضن كثيرًا من الأفكار التي حاولت عرضها عليهن في حملتها التنويرية بل يرفضن ما تعتبره من حقوق المرأة البديهية، حتى من تجاوبن معها في بعض أفكارها فعلن ذلك من

باب التجربة، كأنهن يجربن وصفة طعام جديد ثم ما لبثن أن لفظنه لأنه لم يعجب أزواجهن!

ستدون في روايتها كذلك الأمور التي لم تعجبها، والأخرى التي صدمتها مثل الجارية (صُبح) والتي تنتظر حدثًا سعيدًا والفاعل هو أبوها - والد (سالمة) - والجميع يعرفون ذلك و يتقبلونه على أنه أمر طبيعي والمولود المنتظر هو أخوهم، و (صُبح) لا تزال جارية البيت حتى تنال حريتها بوفاة والد طفلها.

والأغرب هي (أم سالمة) التي تتعامل مع (صُبح) و كأنها تتعامل مع ابنتها وهي حبلى! لعلها فضلت ذلك عن وجود ضُرَّة لها، ولعل الأب لم يشأ أن يوزع جهده و وقته وماله بين بيتين، وفضَّل أن يجمع نساءه تحت سقفٍ واحد!

رواية ستسجل فيها تفاصيل حياة الناس وتقاليدهم وأحوال بيوتهم، فرصة ذهبية أن تلتقط صورة الماضي بكاميرا ألوان وليست كاميرا أبيض وأسود تعطيك صورة مبتسرة من لونين فقط.

وهكذا أدارت (سلمى) كاميرتها في عقلها و بدأت في تصوير كل شيء طوال اليوم ثم تدوِّن ما تودُّ تدوينه على الورق قبل أن تأوي إلى فراشها، ثم انتبهت أن ما تدونه لن تستطيع اصطحابه معها، لا بأس... سوف تذاكر كل ما دونته قبل أن تعود، ومن يدري؟ فلعل الزمن يحفظ لها أوراقها تلك فتكون وثائقًا في المستقبل.

وضحكت وهي تتصور نفسها في المستقبل وقد وقعت أوراقها تلك بين يديها بعد أن كتبتها بقرنٍ و نصف!

وللمرة الثانية تحس (سلمى) بالحماس لشيءٍ تشغل به وقتها ولكن بنظرة مختلفة هذه المرة، نظرة محايدة غير ناقدة، نظرة تتقبل وتتأمل، نظرة تَنْفُذ في وعي الناس وترى من وجهة نظرهم هم.

حياة لا تخلو من مميزات على ما فيها عيوب...

حياة أناسٍ قد يرون في عيوبهم مميزات...ولا يدركون ما عندهم من حسنات.

- كل شيء في مقابل شيء آخر.

قالت (سلمى) لنفسها.

●●●

(٤٩)

(كوليت) لم تأتِ إلى (دبي) فقط كي تفتقد حضن زوجها، بل جاءت لتباشر عملها من هناك أيضًا، ومن اليوم الأول لوصولها طلبت من (نواف) تخصيص غرفة لها في المكتب.

وما عادت تستغرب – فكل شيء أصبح غريبًا هذه الأيام – عندما وجدت ممانعة من (نواف) في مقابل ترحيب من (نوف) و التي – من جملة الغرائب – تنظر إليها بكل براءة و كأنها ليست من غيرت (نواف) عليها، وتنظر أيضًا إليها بودٍّ و...نظرة أخرى غريبة حسيّة تجعل (كوليت) ترتبك منها!

يبدو أنني سأُجَنّ قريبًا...قالت (كوليت) لنفسها...

ولكن قبل حدوث ذلك يجب أن أفهم، و إذا لم يأتني (نواف) في الشقة الليلة أيضًا فسأذهب أنا إليه و ليكن ما يكون.

صحيح أنني امرأة متحررة لكنني سيدة متزوجة لا تعرف إلا زوجها، ومن حقي أن أطالب بنصيبي منه ولن أخجل من ذلك، ولا بُدّ من وضع النقاط فوق الحروف...اليوم...وبدلاً من تلك الحرب الباردة الدائرة في المكتب والتي لا أجد فرصة فيه للاختلاء (بنواف)، وكلما حانت الفرصة إما يقفز (نواف) خارجًا لأي سبب، أو تقفز (نوف) فوق رءوسِنَا و يُصرُّ (نواف) أن يستبقيها مهما حاولت أنا أن أصرفها.

والغريب – كالعادة – تلك النظرة التي لا أفهمها في عيني (نوف).

جاء الأوان كي تردّ (جويل) ليَّ الجميل، عادة ما ينصرف (نواف) وفي ذيله بعد دقائق تنصرف (نوف)، في الأيام السابقة كنت أنتهز لحظة خروجه وأقول له أنني أريده على انفراد، فيتحجج بأي شيء وراءه و أنه سيتصل بي بعدها فوراً، و بالطبع لا يتصل.

اليوم ستتعمد (جويل) أن تؤخر الفاكس الذي تنتظره (نوف) منذ بداية اليوم بفارغ الصبر من كوريا الجنوبية...فارق التوقيت بيننا وبينهم حجة مقبولة للتأخير و متكررة، سيظهر ذلك الفاكس فجأة لحظة خروج (نواف) من المكتب، سأكون أنا قد انصرفت قبلهما بفترة.

(جويل) تؤكد لي أن هذا الفاكس سيؤخر (نوف) في المكتب نصف ساعة على الأقل، ستتعمَّد (جويل) أيضًا أن تضع الكوريين على خط الاتصال مع (نوف) كي لا تكون هناك فرصة لها أن تستدعي (نواف) من على الجوال،هذا يكفيني جدًّا يا (جويل) لرد جميل هذه الوظيفة التي هاديتك بها.

●●●

يدق جرس باب شقة (نوف)، سارعت الخادمة بفتح الباب وهي تظنها السيدة (نوف) و قد نسيت مفتاحها كما يحدث أحيانًا.

تفاجأ (نوف) بالخادمة تناديها:

– سيدي (نواف)؛ السيدة (كوليت) في انتظارك.

بُهِتَت (نوف) ماذا تصنع، و (نواف) لا يرد على جواله، لا بأس، كلها دقائق و يأتي لينقذ الموقف...

- (نواف) لماذا تتهرب مني بهذا الشكل؟ ما هذا التغير الغريب الذي طرأ عليك ناحيتي؟

قالت (كوليت)...

ردت (نوف) ملطفةً للحوار:

- دعكِ من وساوسك يا (كوليت)، أنا فقط مرهقة من ضغط العمل!

- ومنذ متى و أنت يرهقك العمل؟ لقد كنت تأتيني بيروت أحيانًا طائرًا من نيويورك عبر ميلانو، فتأبى أن تستريح إلا بعد أن نغتسل.

احمرَّ وجه (نوف) خجلاً و غيظًا في حين أكملت (كوليت)...

- أنا لم آتيك الآن كي أستجدي أحضانك، أنا فقط أريد أن أفهم.

ثم أكملت في غضب:

- ومن حقي أن أفهم...منذ آخر يوم لك في بيروت وأنت لست أنت.

وتذكرت (نوف) ذلك اليوم، و تذكرت كيف تدفقت وقتها هرمونات الذكورة في دمائها، ودخلت ذاكرة مخ (نواف) معها على الخط فاستحضرت لها لياليه الدافئة معها.

وارتعبت (نـوف) لما وجـدت دماءهـا تتغيـر تجـاه (كوليـت) فتسـري فيهـا حـرارة الرغبـة الملعونـة مـرَّة أخـرى...

تبًّـا لأجسـاد الرجـال وهرموناتهـم مـرة أخـرى! قالـت (نـوف) لنفسـها . . .

وعـادت حالـة فصـام المشـاعر وتضاربهـا تشـق وجـدان (نـوف) تجـاه (كوليـت)، لكنهـا جاهـدت نفسـها حتـى تغلبـت مشـاعرها نحوهـا كضـرَّة علـى مشـاعر الرغبـة الذكوريـة فيهـا كأنثـى، وكبتـت ذلـك الشـوق المضطـرم في جسـد (نـواف) نحـو زوجتـه العائـدة بعـد غيـاب، ووجدتهـا فرصـة سـانحة لتنفيـذ خطتهـا فقالـت لهـا وهـي تقـاوم أن تحتضنهـا :

- لقد أحرجتيني آخر مرة عندما حاولت وصالك وأنتِ نائمة.

نظرت لها (كوليت) تملؤها الدهشة و قالت:

- لـو كانـت أول مـرة يحـدث فيهـا ذلـك بيننـا لربمـا صدقـت هـذا الـكلام العجيـب، قـل إنـك تتحجـج بـأول حجـة جـاءت علـى بالـك، قلهـا بصراحـة أنـك مـا عـدت تحبنـي.

سكتت (نوف) وغيرت اتجاه نظراتها إلى ناحية أخرى وقالت:

- إن بعض الظن إثم... وليس كله!

هـزّت (كوليـت) رأسـها وقالـت وهـي تغالـب دموعهـا وتسـتحضر كل رصيدهـا مـن الكبريـاء:

- حسنًا يا (نواف)، لقد فهمت، سأعود إلى بيروت وأنتظرك كي نجري إجراءات الطلاق و ترتيبات تخارجي المالي من مشاريعك.

ردت (نوف):

- أنتِ من تطلبين ذلك و ليستُ أنا!

لم ترد (كوليت) بل استدارت وخرجت من الشقة، وأصرت أن تغالب بكاءها وهي تستدعي المصعد الذي وصل ليخرج منه (نواف) والذي فوجئ بوجود (كوليت) أمامه فصاح مندهشًا:

- (كوليت)؟

فرمقته (كوليت) - وهي تظنه (نوف) بالطبع - بنظرات تتزاحم فيها تعابير الحزن والغضب واللوم و...دمعة متجمدة يأبى كبرياء صاحبتها أن يتركها لتنزل، وتركته ولم تردّ ودلفت إلى المصعد وأغلقته خلفها.

وفهم (نواف) ما جرى، فدخل الشقة وهو يستشيط غيظًا، وأخذ ينادي بغضب:

- (نوف)...أين أنتِ يا (نوف).

ولم ينتبه إلا من نظرات الخادمة التي أخذت تنظر إليه نظرتها إلى شخص مجنون ينادي على نفسه بصوتٍ عالٍ وبغضب!

●●●

(٥٠)

جلس (سعيد) مع (يوسف) في غرفة مكتب (جوزيف) وأخذ يشرح له بإنجليزيته التي تحسنت كثيرًا آخر تطورات مشروعه، لفت انتباه (يوسف) أن (سعيد) يكثر من ذكر (نيكول) في حديثه ويثني على مجهوداتها معه و يمدح شخصيته، فابتسم في خبث و قال له:

- أراك مهتمًّا بالحديث عن (نيكول) و مرتاحًا إليها برغم تحفظك معها في البداية.

ابتسم (سعيد) في حياء و قال:

- أنا كنت كذلك فعلاً لكنني اكتشفت فيها جوانب جميلة بعد أن تعاملت معها.

- أراك أعجبت بها؟

تلعثم (سعيد) و قال:

- لا لا، إنها صديقتك أنت.

- مجرد صديقة وليست صديقتي الحميمة.

- برغم أنني لا أقتنع بوجود صداقة بريئة بين شاب وفتاة، ولكن كيف لا تكون (نيكول) صديقتك الحميمة وهي تقيم معك في نفس الشقة؟

- مجرد وضع مؤقت بسبب تخلي (جيمس) و عملها السابق عنها.

- لكن الظروف اختلفت وهي الآن تستطيع أن تستقل في أي شقة صغيرة.

- لقد تَربَّى عندها رعب من الوحدة بعد ما حدث لها، كما أن هذا الوضع أنسب لنا وأكثر عملية.

- إذن فهي لم تبحث عن حبيب طوال هذه الشهور؟ أظن أن (نيكول) تحبك ولولا ذلك لفكرت أنا في الارتباط بها.

رد (يوسف) باستغراب:

- كيف؟ كيف تقول ذلك؟

- لعلها تخجل أن تصارحك بمشاعرها أو أن تلمح لك بها أو لعلها تخاف من تكرار تجربة (جيمس) خصوصًا وأنها تعرف رأيك في الزواج.

- أقصد كيف تفكر أنت فيها؟ إن مبادئك تمنعك من الارتباط بفتاة حملت من صديقها السابق.

رد (سعيد) باستغراب:

- أنت تقول ذلك؟ ثم كيف عرفت بمبادئي؟

ارتبك (يوسف) قليلاً ثم تدارك نفسه وقال:

- لا تنس أنني دارس للأنثربولوجيا واحتككت بمعظم ثقافات

العالـم وبالتأكيـد أعـرف مبـادئ أهـل الشـرق، خصوصًـا وأنـك إنسـان متديـن وتحافـظ علـى صلواتـك.

- صدقنـي أن (نيكـول) هـذه لـو كانـت فتـاة شـرقية لكانـت فتـاة في غايـة الالتـزام بمبـادئ الشـرق، زد علـى ذلـك مـا عندهـا مـن مميـزات أهـل الغـرب.

- لا أظـن أن (نيكـول) سـتقدر علـى الحيـاة في مصـر، ولـو حـدث فسـتصطدم أنـت مـع الوقـت بطباعهـا الغربيـة المتأصلـة فيها...أنـت بعـد ينجـح اختراعـك و تمتلـئ جيوبـك بالمـال لـن تصلـح لـك إلا فتـاة مصريـة... أنـا أعرفـك جيـدًا.

مستغربًا:

- وكيف تعرفني جيدًا من هذه المدة القصيرة؟

تدارك (يوسف) و قال:

- خبرتـي مـن الدنيـا التـي زرت أغلبهـا و نمـاذج النـاس الذين احتككت بهم...صدقنـي يـا (سـعيد) لـن تصلـح لـك إلا فتـاة مصريـة بـل و مـن (مصـر القديمـة) أيضًـا...مـا رأيـك في أخت صديقك (يوسـف)؟

رد عليه بدهشة:

- وكيف عرفت ب (سارة) أخت (يوسف)؟

تلعثـم (يوسـف) مـن جديـد وابتلـع ريقـه وقـال وهـو يلعـن سـذاجته في سـره:

- كانت هي من تتراسل معي بشأنك لأنها تجيد اللغة أكثر من أخيها .

فكر (سعيد) قليلاُ ثم ابتسم و قال:

- (سارة) فتاة ممتازة و جميلة، ولولا ظروفي المادية السابقة لتقدمت لخطبتها، لا أخفيك سرًّا لقد أعجبت بها فترة مراهقتي وشبابي الأول، لم أقل شيئًا من ذلك (ليوسف) طبعًا، لكن أنا أتحفظ على الأفكار التي تولدت لديها من الفعاليات الثقافية التي تحضرها، ولا يعجبني فيها أنها ليست محجبة حتى الآن برغم أنها تجاوزت الثلاثين.

- عجيب أمرك يا (سعيد)؛ تتحفظ على (سارة) لأنها ليست محجبة وترغب في (نيكول) التي حملت من صديقها؟

صمت (سعيد) ثم قال:

- انظر؛ الأمر فعلاً برمته غير منطقي، ربما لأنني أفكر في الاستقرار هنا و عدم العودة إلى مصر إن أمكن ذلك، وربما هو الانبهار (بنيكول) لأنها غربية والإنسان بطبيعته يميل للأغراب، أو كما يقول المثل العربي في تراثنا: فتاة الدار عوراء، وأحيانًا أتعجب أنني كنت أحب (سارة) يومًا، وأحيانًا أحس أنني لا زلت أرغب في (سارة) برغم تلك الحواجز الفكرية التي بيني و بينها.

- ألا ترى أنها حواجز وهمية؟

هز (سعيد) كتفيه لأعلى و قال:

- ربما.

ثم ضحك و قال:

- أقول لك شيئًا؟ أحيانًا أتخيل لو أن (سارة) و (نيكول) كل واحدة منهما مكان الأخرى؛ لكانت (نيكول) الآن محجبة ولكانت (سارة) إحدى عشيقاتك!

ولم يتمالك (يوسف) نفسه فصاح في وجه (سعيد) في غضب و قال:

- احترم نفسك...(سارة) أختي أشرف بنت في الدنيا!

قالها بلهجة عفوية مصرية صميمة!

●●●

(٥١)

في بداية مكالمتهما ظن (جوزيف) أن (سالمة) تريد منه ألا يتقابلا ثانية و أن يكتفيا بمكالمات الهاتف، و في نهاية المكالمة اعتقد أنها تريد مقابلته ولكن بعيدًا عن أعين الفضوليين، ثم ظهرت له الحقيقة أنها حددت اللقاء معه في إطار علمي بحت!

لم يفهم (جوزيف) لماذا اختارته ليكون مرشدًا لها في زيارات المتاحف الأثرية و العلمية في القاهرة.

من أوحى لها أنني خبير بهذه الأمور؟ تساءل (جوزيف)...

أم لعلها تريد أن تلقاني بغير أن يبدو هذا اللقاء على أنه مواعدة؟ وفي نفس الوقت تختار مكانًا لن تجد فيه أحدًا يعرفها! ربما، وربما أيضًا هي فعلاً قررت الاهتمام بالمتاحف بعد أن تشبعت من البحث النظري.

هذه فتاة ولدت في الزمن الخاطئ، لو كانت من بنات أيامنا لحصدت جائزة نوبل يومًا ما، عقلية هذه الفتاة الموزونة وشغفها بالعلم لا يصح أبدًا أن تعود بهما إلى عصرها المظلم.

لأول مرة أجدني حائرًا في فهم فتاة...إنها تعاملني بودٍّ عالٍ وترفع بيننا الكلفة في حين تتحفظ جدًّا في تعاملها مع الشباب الآخرين، لكنها في نفس الوقت تضع حدودًا في تعاملنا لدرجة أنها لا تصافحني أبدًا.

هل تراني حفيدها مثلاً؟ إذن فكل هؤلاء الشباب أحفادها.

هل جمعتنا ظروفنا الاستثنائية؟ ربما.

لن أجهد عقلي في فهمها، لكن ما أدركه جيدًا أنها مختلفة وأنني لا أريدها أن ترجع إلى زمانها في نهاية هذا العام و...

- قل فورًا و بدون تفكير...فيم كنت تفكر و أنت شارد؟

هكذا فاجأته (سالمة) مبتسمةً بينما كان هو شارد في انتظارها في مدخل المتحف الجيولوجي، بادلها الابتسام و أجاب:

- كنت أفكر لماذا تأخرتي.

قالت بدهشة و هي تنظر إلى ساعتها:

- أنا لم أتأخر.

ثم سحبت رأسها للوراء و نظرت له بخبث و قالت في ابتسام:

- أنت تراوغني، تقول هذا كي تأخذ فرصتك في التفكير، لا... لا...لن أتركك قبل أن تجيبني و بدون تفكير.

- صراحة؟ كنت أفكر كم أنتِ فتاة مختلفة.

- بالتأكيد مختلفة، فتاة من القرن التاسع عشر سقطت في ثقبٍ للزمن إلى القرن الحادي و العشرين.

- وهل كل فتاة يمكن استدعاؤها من القرون الخالية كانت لتهتم

مثلك بالعلوم والمتاحف؟ كم فتاة منهن ستتقن في شهور ما يحتاجه غيرها لسنوات كي يتقنه؟ أنا أشعر أنني بصحبة (ماري كوري) أو (هانّا آرينت).

ضحكت (سالمة) و قالت:

- كل زمان ستجد فيه مثل تلك العالمة و تلك الفيلسوفة .

- ولكن ليس كل زمان ستجد فيه (ماري كوري) فرصتها، أنتِ قلتِ أنكِ كنتِ في غيبوبة في الماضي و لولا مجيئك هنا ما أفقتِ من سباتك المعرفي...كم فتاة مثلكِ مدفونة في غياهب الماضي؟

- وكم إنسان اليوم - امرأة كانت أو رجل - مدفونة مواهبه في ظروف شخصه أو أحوال بلده أو كسل نفسه؟ ما من إنسان إلا وله موهبته لكن أغلب الناس ما بين غافل عنها أو متكاسل مستسلم أو الأحوال حوله تقهره.

- وما ذنب الموهوب أن يُدفن تحت ركام قهر الظروف والأحوال؟ بل ما ذنب الإنسان العادي أن لا يحصل على أبسط حقوقه بسبب فقرٍ أو قهرٍ أو ظلم سياسي؟ ما ذنب المعاق أن يعيش حياته في معاناة؟ أين العدل؟

- لن ترى العدل أبدًا إذا قصرت نظرتك على الحياة الأولى، لكن لو اعتقدت في وجود حياة أخرى تسدد فيه الديون و يعوَّض فيه المظلوم لتغير رأيك.

- والـذي لـم يقتنـع بوجـود حيـاة آخـرة؟ أو لـم تصـل إليـه تلـك الأدلـة و لا المعلومـة أصـلاً؟ هـل كُتـب عليـه أن يعانـي في الدنيـا ثـم يعـذب في الآخـرة؟

- لـو اقتنعـت أن الآخـرة هـي عـدلٌ مطلـق و أن صاحبهـا أدرى بهـا و بنـا لوجـدت كل أجوبتـك.

- أقـول لـكِ شـيئًا؟ أو بالأصـح أضـرب لـكِ مثـالاً؟ (سـارة) أختـي أقصـد أخـت (يوسـف)، فتـاةٌ تجمـدت حياتهـا و توقـف بهـا الزمـن عنـد اليـوم الـذي تخرجـت فيـه في جامعتهـا...لا عمـل لا زواج لا حـب...ولا تنخـرط في علاقـة عاطفيـة حـذرًا أن تفقـد زهرتهـا في لحظـة ضعـف، و كل مـن يتـودد إليهـا إنمـا ليطلـب فراشـها لا ليطلـب يدهـا، تحـاول أن تحـرك مـاء حياتهـا الراكـد ببعـض الأنشـطة التـي تشـارك فيهـا، لكنهـا تحـذر السياسـة مخافـة أن تخـرج يومًـا مـن بيتهـا و لا تعـود إليـه، تشـارك في أنشـطة ثقافيـة لكنهـا تتجنـب مناقشـات الأديـان خوفًـا أن يهتـز بهـا حبـل الأمـل في أن تجـد تعويضهـا في الآخـرة... البعـض يراهـا قديسـة والبعـض يراهـا ضحيـة ظـروف صعبـة، لكـن أنـا أراهـا ضحيـة أفـكارٍ وتقاليـد أضاعـت زهـرة عمرهـا.

- إذن فأنـت تريدهـا أن تطـرد مـن رأسـها تلـك الأفـكار والتقاليـد الباليـة في نظـرك و طلـق لجسـدها وعقلهـا العنـان... مـاذا بعـد؟

- سـتقابل يومًـا مـا نصفهـا الآخـر الـذي لـن يكـون بالتأكيـد أسـير هـذه الموروثـات.

- أو لا تقابل فتصبح مثل (نيكول).

- على الأقل لن تكابد الحرمان و الكبت اللذين تعانيهما.

- على الأقل هي لم تدخل في دوامة الاكتئاب التي دخلتها (نيكول).

- ذلك لأن عقلها يدافع عن سلامته فيعتصم بأفكار الإيمان والشرف و يجد فيها تعويضه.

- فلماذا لم يدافع عقل (نيكول) عن نفسه وعن سلامته؟

- لعلَّ هذه النقطة فعلاً هو ما كسبته (سارة).

سكت لثوانٍ ثم ابتسم و قال:

- أقول لكِ شيئًا غريبًا؟ برغم أنني أرى (سارة) فتاة جميلة بل ومغرية وبرغم أننا نعيش تحت سقفٍ واحد، إلا أنني أراها أختي فعلاً، يبدو أنه سحر القلادة، لدرجة أنني لو كنت قابلتها في ظروف أخرى لأعجبت بها وبسلامها الداخلي و لربما أحببتها.

ضحكت (سالمة) و قالت:

- إذن فأنت يمكن أن تقع في الحب فعلاً و تخلع بدلة الدونجوان الذي لا يكتفي بامرأة واحدة لأكثر من أسبوع.

أجابها ضاحكًا:

- فكرتك خاطئة عن الشاب الدونجوان، أي كازانوفا مهما تعددت علاقاته قابل لأن يقع - وبسهولة - في الحب.

ابتسمت وقالت:

- وهل وقع (الدونجوان جوزيف كازانوفا) في الحب؟

أجابها بجدية:

- يبدو ذلك.

ضحكت و قالت:

- لا أصدقك، (جوزيف) المليونير الوسيم يترك فاتناته اللواتي من كل لونفي العالم و يجئ ليقع في الحب هنا؟

- وهذا ما أشعر به فعلاً رغم غرابته، فتاةٌ أَسَرتْنِي بذكائها و حكمة عقلها برغم ما بيننا من اختلافٍ في كل شيء... أظنك تعرفينها جيداً!

●●●

(٥٢)

غالبًا لو سألتُ الناس هنا ما هو معنى التوتر أو الملل فلن يجدوا إجابة...قالت (سلمى) لنفسها...

هذه معاني لم يختبروها هنا ولم يجربوها.

الحياة هنا كأنها تسير بالعرض البطيء و لا أحد يلهث وراء شيء، ويبدو أنني الوحيدة - من دونهم كلهم - التي كنت أشعر بالملل أول ما سقطت في فجوة الزمن تلك...هل لأنني من اعتدت حياة السفر والنشاط ووسائل التكنولوجيا؟ أم لأن فلسفة الحياة هنا مختلفة تمامًا؟

لا أحد تقريبًا يصنع شيئًا بمفرده بل كل الأنشطة جماعية، لا مجال للانفراد بالنفس ولا وجود لما نسميه في زماننا بمساحات الخصوصية، هذه تعبيرات حداثية ممنوعة من الصرف هنا لأنها ببساطة عملات غير معروفة.

من ينفرد بنفسه ولو لليلة يقلق عليه من حوله ويتفقدونه كأنه مريض، و من يريد الانفراد بأفكاره فعليه الخروج إلى شاطئ النيل أو إلى أحد البساتين، وهذا أمرٌ لا يمكن أن تفعله فتاة بمفردها بل لا بد لها من صحبةٍ من النساء.

وفي مقابل إيقاع الحياة البطيء فإن دورة الحياة البشرية هنا سريعة، بعض الفتيان و الفتيات لا يعرفون فترة المراهقة لأنهم ببساطة يكونون أزواجًا وزوجات وقتها، طبيعي جدًّا أن تُزف فتاةٌ وهي بنت

الثانيـة عشـرة مـن عمرهـا! والأُسَـر (العاقلـة) تتريـث حتـى تتـم الفتـاة سـن الخامسـة عشـر فتكـون قـد نضجـت قليـلاً!

قـد تجـد شـابًّا هنـا في الثلاثينـات مـن عمـره ويحمـل حفيـده فـوق كتفـه!

هنـا لا يحملـون همًّـا لتكاليـف الـزواج و لا حتـى لتدبيـر بيـت الزوجيـة، الوالـد يقـرر تزويـج ابنـه فتخطـب لـه أمـه أو أختـه أو إحـدى ذويـه، والزفـاف يتـم خـلال أسـابيع في غرفـة يخصصهـا لـه أبـوه في دارهـم، فقـط عليـة القـوم هـم مـن يشـترطون مسـكنًا مسـتقلاًّ لابنتهـم وهـذا أحيانًـا يكـون بيتًـا منفصـلاً أو جناحًـا مسـتقلاًّ في دَوَّار والـد العريـس.

الحيـاة هنـا جنـة المسـنين، ليـس فقـط لأنـه لا مجـال لشـعورهم بإحسـاس الوحـدة، بـل لكـمٍّ الوقـار الـذي يعاملـون بـه مهمـا بـدر مـن نـزق العواجيـز مـن أحدهـم.

لـولا مكتبـة جـدي وهـذه الـدروس التـي أواظـب علـى إعطائهـا لتطبعـت بهـم ولذابـت شـخصيتي التـي أتيـت بهـا، صحيـح أن جلسـاتهنَّ مسـلية وثرثرتهـنَّ ممتعـة و لكـن ذلـك لأنهـنَّ لـم يجربـنَّ معنـى أن تكـون للفتـاة رسـالة غيـر البيـت والأسـرة.

وأخيـرًا أقنعـت أمـي و أقنعـت بعـض الفتيـات في مجلسـي أن نتمشـى سـويًّا سـاعة العصـاري - مـن يـومٍ لآخـر - قـرب النيـل أو أحـد البسـاتين القريبـة، جميـلٌ فعـلاً أن تسـتمتع بالطبيعـة البِكْـر مـن حولـك ولا تحتـاج للخـروج في سـفرٍ إلـى الواحـات أو إلـى شـاطئ بعيـد لـم تهتـك المدنيـة عذريتـه بعـد.

أقصى ما تجده من تلوث هنا ما قد تثيره عربة أو كارتّة يجرها حصان من غبار، أو دخان يتصاعد من كومة قشٍ صغيرة اعتاد أن يشعلها أحدهم لسببٍ لم أعرفه أبدًا!

●●●

وذات عصرية خرجت (سلمى) مع بعض رفيقات الدرس وقررن التمشية قرب أحد البساتين هذه المرة بدلاً من تمشية النيل، وبعد جولة لم تطل قررن العودة، و لما كان طريق العودة قريبًا من بيت إحداهن دعتهن أن يعرجن معها على بيتها، فاستجاب بعضهن واعتذرت (سلمى) هي وإحدى الفتيات - (منيرة) - لأن بيوتهنّ في الطرف الآخر من الطريق، ومضت (سلمى) و معها (منيرة) في طريقهنّ.

(منيرة) فتاة حديثة السنّ أقرب إلى الطفولة لكن (سلمى) تحبها لذكائها وخفة ظلها فلا تعاملها على أنها طفلة، وفي وسط الطريق اقترحت (منيرة) أن يعرجن من خلال أحد البساتين لأنه يختصر الطريق كما أنها تحب أن تدخله كلما مرّت عليه كي تقتطف بعض أوراق شجرة النبق التي فيه، وأخذت تشرح (لسلمى) فوائد الاستحمام بمنقوع ورق النبق هذا وأنه أيضًا وقاية من السحر والحسد.

لم تُرِد (سلمى) أن تدخل معها في نقاشٍ لا يناسب سنها فطاوعتها ومضت معها، ولما خرجا من البستان وقفت (منيرة) عند مفترقٍ صغير وقالت:

- أنا بيتي من هنا وبيتك من هذا الاتجاه الثاني كما تعرفين.

ولم تنتظر من (سلمى) ردًّا وإنما انطلقت في طريقها وهي تحجل بقدمٍ وراء أخرى، ووقفت (سلمى) مترددة للحظات وهمَّت أن تنادي على (منيرة) لتوبخها على تركها في منتصف الطريق، لكنها لمحت بعينها برج الحمام المميز القريب من دارها فأدركت أن (منيرة) كانت على صواب.

ومضت (سلمى) مسترشدة بقمة برج الحمام وانعطف بها الطريق يمينًا فانعطفت معه لكنها أدركت بعد قليل أنها تبتعد عن هدفها، إذن كان هناك زقاق أو ممر فرعي من الطريق كان ينبغي أن أسلكه، فعادت أدراجها تبحث عن هذا الممر، وعبثًا حاولت ذلك و إنما وجدت ممرًّا يأخذها إلى الجانب الآخر بعيدًا عن اتجاه برج الحمام.

وقفت (سلمى) في غيظ حانقة على كل الطرق التي هنا؛ ليس فيها طريق واحد مستقيم إنما كلها متعرجات و تقاطعات، قررت أن تعود إلى النقطة التي تركتها عندها (منيرة) لكنها لم تصل إليها، تسارعت دقات قلبها و بدأت في التعرق لما أدركت أنها تتوه، همَّت أن تركض في أي اتجاه ولكن كل اتجاه كانت تحس أنه سيأخذها بعيدًا عن المدينة.

أنا لم أته من قبل في أي دولة زرتها ثم أتوه هنا على أطراف بلدتي!

وقفت في حيرة ثم قررت أن تمضي في أي اتجاه تشعر أنه سيقربها إلى أي بيت تلجأ إليهم طالبة العون والإرشاد، ومضت في الطريق

الذي أحست بخيالات أسطح البيوت تَتَراءَى في أُفُقِه، لكنها كلما مضت أحست بأنها تبتعد، وأحست بالدموع تتجمع في عينيها وبرغبة في الصراخ كي يسمعها أي أحد لكنها كتمت صراخها وقالت لنفسها؛

لن يسمعني هنا إلا مارٌّ بالصدفة.

وجفلت أن يكون هذا المار أحد الذئاب البشرية، وطافت بخيالها كل حوادث الاختطاف والاغتصاب التي رأتها في السينما أو التي سمعت عنها من وسائل الإعلام، لكن سحبها من خيالها صوت أحد الذئاب الحقيقية يعوي من بعيد، وكذَّبت إحساسها بأن صوت الذئب يقترب منها خصوصًا وأن الشمس بدأت تميل في طريقها نحو المغيب.

لكن إحساسها لم يكن كاذبًا وأصبح صوت الذئب أكثر اقترابًا و لم تدرِ ماذا تفعل، الحل الوحيد أن تسقط مغشيًّا عليها، أن يطفئ عقلها أجهزته حماية لها من التلف بسبب الخوف الرهيب الذي تشعر به.

يبدو أن عقلها قد اعتاد الإغماء هذا العام...

وبدأ عقلها بالفعل يستعد لذلك كأنه يستجيب لإرادتها، لكن سحبها من بئر الإغماء صوت رصاصة انطلقت في الهواء واختفى صوت الذئب ليفاجئها مكانه صوت شاب يصيح فيها:

- ماذا تفعلين هنا؟ من أنتِ؟

أجابت و هي تنفجر بالبكاء:

- أنا بنت الحاج (محمد البكري) وقد تهت في طريق عودتي للبيت.

اقترب منها الشاب وهو يقبض على بندقيته بيمناه واضعًا إياها فوق كتفيه الاثنين بشكل أفقي و يسحب فرسه بيده اليسرى ويبتسم ويقول:

- أنتِ (سالمة) أم (توحيدة)؟

استغربت (سلمى) منه ثلاث مرات؛ مرة لأنه يعرف اسمها واسم أختها وأخرى لأن لهجته مختلفة قليلاً عن لهجة أهل البلد وثالثة لأن ملامحه أوروبية شقراء ، فقالت و قد أخذ بكاؤها يهدأ وبدأت تطمئن قليلاً:

- أنا (سالمة)، هل تعرفنا؟

- بالطبع، وإن كنتِ أنتِ لا تذكرينني جيدًا لأنني كثير السفر وبالأمس فقط قدمت من الشام بعد غياب، أنا (عبد الحميد) ابن الحاج (إدريس الحسيني)، والدتي هي ابنة خالة والدتك و والدي ابن عمتها الغير شقيقة.

- طبعًا طبعًا، حمدًا لله على عودتك سالمًا.

قالتها (سلمى) وهي تدعي المعرفة الوثيقة بينما ذاكرة(سالمة) تخبرها بصدق وجود هذا الشخص وهذه الأسرة فعلاً في محيط أقاربها، و تنهدت وحمدت ربها أن بعث لها هذا الشاب المنقذ..ويا له من شاب!

- هيا اركبي لأوصلك.

انتبهت (سلمى) من خواطرها و قالت بحذر:

- هل سنركب معًا؟

- بالطبع لا، ستركبين أنتِ و أنا سأسحب الفرس.

وعبثًا حاولت (سلمى) أن تضبط قدميها على ركاب الفرس من توترها الذي لم يهدأ بعد، ففوجئت ب(عبد الحميد) يتَّكِئ على إحدى ركبتيه على الأرض وينصب لها الركبة الأخرى كي تتخذها متكئًا تصعد من فوقه، وأحست (سلمى) أنها تعيش داخل إحدى قصص الأميرة والفارس، و حانت منها التفاتة سريعة نحوه لتنظر أين تتجه عيناه وهي تركب فوجدته ينظر للأفق البعيد ولا يحاول اختلاس نظرة ما.

ومضى بها يقود الفرس وهي تشعر وكأنها في حلم عجيب، حتى أفاقت على صوته وهو يقول:

- أحسست وكأنكِ لم تتذكري والدي و والدتي جيداً.

- بلى بلى أذكرهما وأذكر والدتك يرحمها الله ولكن اعذرني إذ لم أتعرف عليكَ سريعًا.

- هذا لأني كثير السفر.

وأخذ يقص عليها حكاية عائلته التي هي عائلة أمها وهبوطها من القدس إلى مصر لتستوطن رشيد، لكنهم احتفظوا ببعض الأراضي والبيوت في القدس في رعاية العائلة الأم هناك، وأنه يتبادل مع إخوته

وأبناء عمومته السفر إلى هناك لتفقدها، كما أن له تجارته ما بين موانئ الشام والإسكندرية، و لذلك فهو كثير التغيب عن رشيد.

وحكت هي بالمقابل سبب تواجدها في ذلك المكان كما حكت عن مجلسها و الدروس التي تعقدها، و لَم تدرِ لِمَ أخبرته أنها و صاحباتها يتمشين دائمًا بعد كل درس، ثم امتد بهما الحوار إلى مكتبة جدها وما قرأته منها فوجدته يجاريها في معارفها و إن كان يهتم أكثر بكتب الشعر وأدب الرحلات.

وهبط الحصان بجناحيه أمام باب الدار، و حكت لأهلها سريعًا ما حدث ففسرت حكايتها طلقة الرصاص التي سمعوا دويَّها منذ قليل، وشكر الوالد (لعبد الحميد) صنيعه وحمد الله على سلامة ابنته وإن كانت عيناه يملؤهما اللوم لها.

وبعد أن انفض الجمع سحبتها (توحيدة) من يدها إلى غرفتهما وهي تقول:

- ما بك يا (سالمة)؟

ردت باستغراب:

- ما بي؟

- انظري إلى المرآة و أنتِ تعرفين، هذه اللمعة لم أرها في عينيكِ منذ سنين!

●●●

(٥٣)

صياح و عراك بين (نوف) و (نواف)، وكلاهما لا يسمع الآخر وكلٌّ منهما يكيل للآخر الاتهامات:

- أنا لست ملزمة أن أكون رسول الغرام بينك و بين ضرتي، بل لست ملزمة أنا أتعامل معها أصلاً، ماذا كنت تريدني أن أصنع؟ أن أطارحها الغرام نيابة عنك؟

- أنتِ تعمدتِ جرحها وتطفيشها وتقطيع ما بيننا، كان بإمكانك التسويف...افتعال أي مشكلة، لا تقولي أنك فجأة فقدتِ براعتك ونفدت جعبتك من حيل النكد...ابتكار أي خصام تمر به الأشهر المتبقية، ألا تأبهين على الأقل لحجم المشاريع التي تديرها (كوليت)؟

- وماذا يجبرني؟ قل لي ماذا يجبرني على ذلك؟ أنت من الأنانية وحب الذات بحيث تريدني أن أحافظ أنا لك على زوجتك، ومن الطمع بحيث لا تكتفي بالانسجام الذي ملأ حياتنا بعد تحولنا...تأبى أن تقنع به وتطمع هل من مزيد.

- أنتِ تريدين تقرير مصيرنا ووضع اختياراتنا وحدك، تسلبينني حقي في الاختيار، صدقتِ أنك صرتِ فعلاً الرجل في معادلة حياتنا، لو كان بيدك لألغيتي وجودي تمامًا وطلقتِ (كوليت).

ونقاش طويل يدور بهذه الوتيرة في دوائر متعاقبة متشابهة كأنك تستمع إلى شريط أغنية يدور و يعيد نفسه، حتى قطع (نواف) هذه الدوائر وخرج من دوامتها ليقول:

- هيا أصلحي ما أفسدتيه.

فسألته باستنكار:

- وكيف ذلك؟

- اذهبي إليها وطيبي خاطرها بأي حجة.

- أذهب إليها؟ هل أنت غبي!

وبهت (نواف) من الكلمة فقال في غضب:

- أنا غبي؟ أنتِ طا...

ثم تدارك لسانه وخيَّم الصمت المطبق عليهما فاستدار (نواف) وخرج من الغرفة.

●●●

أخذ (نواف) يدور حول نفسه مثلما يدور عقله حائرًا يفكر كيف يتصرف، إنه بعد أن ابتسمت له الحياة مع (نوف) ووصلا إلى مدار شاهق من الرضا والمتعة، ها هي الحياة تنقلب به وتسقطه في غورٍ عميقٍ من الشقاء مع (نوف) و (كوليت) في آنٍ واحدٍ، وبعد أن كان يعدّ الشهور الباقية كي ينعم بالسعادة معهما بعد أن فهم دهاليز ومتاهات

عقل المرأة وقرأ دليله وتعليمات تشغيله من الداخل، إذا به الآن في طريقه لأن يخسرهما معًا.

أي عينٍ نارية أصابته سهام الحسد منها في مقتل؟...

لا ...لن أستسلم، إنني لم أبنِ كل ما بنيت إلا لأنني إنسان قوي، فلن أنهزم أمام تقلب نفسيات و عواطف النساء وغيرة الضرائر.

ولكن ما العمل؟ لا بدّ أن أتدارك الأمر مع (كوليت) والآن.

●●●

سحب جرس الباب (كوليت) من بحر دموعها فتجاهلته في البداية، و لكنه أصرّ على انتشالها من دوامات بحر أحزانها، فقامت وغسلت الخطوط والدوائر السوداء التي ذابت و سالت حول عينيها وعلى خديها، نظرت إلى شاشة الباب...آخر إنسانة كانت تتمنى لقاءها الآن...

(نوف) التي يبدو أنها أخذت قرارًا ألا ترجع حتى تدخل أو تحرق الجرس...فلننظر ماذا تريد مني من أوغَرَتْ عَليَّ زوجي...قالت (كوليت) لنفسها.

فتحت (كوليت) فدلفت من تحسبها (نوف) لتفاجأ بأنها تحتضنها في تعاطفٍ و مواساة، انتزعت (كوليت) نفسها من أحضان جسد (نوف) وقالت:

- ماذا تريدين مني؟

أجابها (نواف) :

- لكِ الحق أن تغضبي وأن تظني كل الظنون فيَّ وأن تحمليني مسئولية تغير (نواف) عليكِ.

- وهل هناك تفسير آخر؟

- بربِّك، لو كنت أنا من غيرته ناحيتك، فماذا يدفعني للمجيء إليكِ؟

- كي تلبسي قناع الحمل الوديع، كي تغسلي يديكِ من دمائي، كي تشهدي لحظة إجهازك على حياتي مع (نواف).

- مهما قلت لكِ ومهما حلفت بأيمان المسلمين..والمسيحين أيضًا! فلن تصدقيني، و لكني سأسألك أسئلة وأنتِ سيدة أعمال أي لكِ عقل يفكر بعيدًا عن العواطف، فخذي أسئلتي بشكل مجرد وعلى أنها ليست مني.

سكتت (كوليت) وهي تنظر إلى (نواف) في ارتياب فأكمل هو:

- منذ متى تغير (نواف) عليكِ؟

أجابت (كوليت) بعد صمتٍ مرتاب:

- في آخر يومٍ كان معي فيه في بيروت.

- ألم تسألي نفسك لماذا ذلك اليوم؟ لو كنت أنا من أوغَرْت صدره نحوك فلماذا لم يكن متغيرًا منذ لحظة وصوله؟

فكرت (كوليت) ثم قالت:

- ما أدراني ما قلتيه له في مكالمة هاتفية مثلاً في ذلك اليوم.

- وهل عهدك (بنواف) أنه الرجل الذي ينقلب فجأة بمكالمة هاتف؟ بل و يأخذ هذا الموقف بغير أن يواجهك؟

فكرت (كوليت) أكثر وقد أخذت كلمات (نواف) تتسلل فعلاً إلى عقلها ثم قالت:

- فماذا حدث إذن؟ ما هذا التغير الكبير الذي أصابه؟ وفجأة؟

تنهد (نواف) و قال:

- طالما أنك سألتِ سؤالاً كهذا إذن فأنتِ بدأتِ تسمعين لي... (نواف) مسحور...بل معشوق عشقًا سفليًّا.

ضيقت (كوليت) نظرات عينيها و قالت في سخرية وقد تحولت ثقتها إلى شكٍ من جديد:

- وهذا العشق السفلي غيَّره عليَّ أنا فقط؟ وهو الذي جعله يشركك فجأة في إدارة أعماله بعد أن كان يرفض مجرد فكرة عملك؟ والسحر هذا هو الذي طار بكم من الرياض إلى دبي؟

- لكِ كل الحق ألا تصدقي حرفًا مما أقول، ولكن سؤال آخر وفَكِّري فيه جيدًا؛ في الأيام الماضية لكِ في دبي وفي آخر يومٍ له في بيروت، ألم تلاحظي على (نواف) أي تغير؟ فيه هو ذاته؟

فكرت (كوليت)؛ إن (نواف) فعلاً ليس هو (نواف)، بعض حركات جسده مختلفة، أحيانًا يضع يده على خصره كما النساء، عندما يضحك يغطي فمه عفويًّا بكف يده. ثم تذكرت حديثه الأخير معها، لقد فلتت منه بضع كلمات عن نفسه بصيغة المؤنث.

فكرت ثم قالت في هدوء:

– فعلاً هناك تغير، ولكن لماذا لم يتغير عليكِ أنتِ أيضًا؟

– ومن قال ذلك؟ أقسم لكِ بالله أن (نواف) لم يمسَّنِي منذ أن عاد من بيروت، و لما لاحظنا عليه تغيره أخذته أسرته إلى شيخ كبير فأخبرهم بخبر عشيقته السفلية تلك التي عشقته منذ كان في الرياض قبل أن يأتيكِ، و أنها كي تنصرف عنه يجب أن يغادر الرياض لمدة عام لأنها موطنها، و لهذا جئنا إلى مكتب دبي كي يدير أعماله منه، وكان لا بد أن أكون معه في المكتب كي أتدارك أي بادرة تبدر عليه، و وجود (أسيل) في حضني هو ما يمنع أي أذية لي، فالأطفال الرضع محصنون من أذية الجآن.

كلام مترابط جعل (كوليت) تكاد تصدق، وجعلت تحدق في عينيّ (نوف) الواسعتين فلم ترَ فيهما إلا صِدقًا، حتى قالت (كوليت) لنفسها: ما أجمل عينيكِ يا (نوف) غير أن عيوني خضراء وأنتِ لا! ثم تداركت نفسها و استسخَفَت تفكيرها و قالت:

– ولماذا سنة؟

تنهد (نواف) وقال بعفوية:

- حتى يعود الشِعْرَى!

- ماذا؟

سألت (كوليت) باستغراب فقال هو:

- هكذا قال لنا الشيخ، كلام لم نفهمه عن تعامد نجوم وطاقات كواكب، خلاصة ما فهمناه أن الطاقة السالبة لتلك العشيقة بدأت مع تعامد الشروق الاحتراقي لنجم الشِعْرَى وستزول مع عودة تعامده، على أن يبتعد (نواف) عن الرياض كي يمنع طاقتها عن النشاط من جديد.

- وما الذي يجعلني أثق في تلك القصة؟

- وماذا ستخسرين؟ من جعلك تصبرين الشهور الماضية يجعلك تصبرين مثلها لبقية العام، فلتؤجلِي أي قرار لكِ حتى ذلك الوقت.

قالت (كوليت) في براءة:

- هل تنصحينني أن أعود إلى بيروت حتى يعود ذلك الشِعْرَى ولكي لا أثير غيرة تلك العشيقة؟

وفَهِمَ (نواف) زوجته وطريقتها في رمي الأسئلة التي تبدو عفوية بريئة لكنها فخاخ تختبر بها من أمامها، فقال فورًا:

- بل ابقِ بجواره، لعل وجودنا نحن الاثنتين يقوي فيه الحنين إلينا ويُضْعِف تلك العاشقة الفاجرة!

صمتت (كوليت) لثوانٍ ثم قالت:

- هل أصبحت حبيبتك فجأة يا (نوف) و تريدين مصلحتي؟

- لستِ عدوتي ولستِ أيضًا حبيبتي، أنتِ ضُرَّتي ولكننا شركاء في مركبٍ واحد، ووضعنا القديم لم يكن يضرني سوى ما أقارنه من تضييق (نواف) عليَّ و تساهله معكِ، ولكني أعتقد أن ذلك سوف يتغير بعد أن يعود إلينا (نواف)...على الأقل سيسمح لي بأن أعمل.

●●●

وفي اليوم التالي كانت (كوليت) تطير عائدة إلى بيروت، فلا معنى لأن تنتظر عودة الشِعْرَى في دبي تاركة أعمالها ومسئولياتها في لبنان.

وظن (نواف) أن العاصفة قد مرت و انتهت، لكن سحابات الحزن ودوامات الغضب كانت قد تجمعت في قلب (نوف)، و كلمة الطلاق التي كادت أن تندّ منه جعلتها تفكر في جدية:

لن أكون تحت رحمة كلمة يلقيها عليَّ زوجي في لحظة غضب...

لن أعود (نوف)...بل سأبقى (نواف)...

حتى بعدما يعود الشِعْرَى!

●●●

(٥٤)

لـم تصـدق (سـالمة) أن (جوزيـف) يُلمِّـح لهـا بهـواه، إنهـا كانـت تنظـر إليـه فقـط كرفيـق رحلـة الأقـدار هذه...اثنـان يتعاطـف كلٌّ منهمـا مـع ظـروف الآخـر المشـابهة لظروفـه كمـا يتعاطـف الخاضعـون معًـا لجلسـات العـلاج الجماعـي، أمـا أن يتحـول هـذا إلـى حـب؟ بالتأكيـد هـو يمـزح أو أن مشـاعره تخدعـه...

- بالتأكيـد أنـا لا أمـزح، و لسـت قليـل التجـارب في النسـاء حتـى تخدعنـي مشـاعري.
- وكل هـؤلاء النسـاء اللاتـي كـنّ في حياتـك؛ قلـت لهـن أيضًـا كلمـات الحـب؟

وابتسـم (جوزيـف) في نفسـه، (فسـالمة) التـي يظنهـا فريـدة مـن نوعهـا تتحـدث كمـا تتحـدث فتيـات اليـوم.

- هـل تعلمـين شـيئًا يـا (سـالمة)؟ جميـع مـن عرفتهـنّ مـن الفتيـات لـم أقـل لواحـدة منهـن كلمـة أحبـك، كنـت واضحًـا تمامًـا في علاقاتـي ومختصـرًا مسـافاتي.

- ولكـن كيـف يـا (جوزيـف)؟ كيـف؟ لـن أحدثـك عمـا بيننـا مـن اختلافـات في كل شـيء تقريبًـا فلعـلّ هـذا هـو مـا جذبـك إلـيَّ، ولكنـي سـأذكرك بظروفنـا إن كنـت قـد نسـيتها.

- بالتأكيد لم أنسها، لكن كما تعلمين نحن مخيرون في البقاء أو العودة...ابقي معي ولا تعودي للماضي.

- أنت؟ هل ستظل (يوسف) أم ستعود (جوزيف)؟

- سأعود (جوزيف).

ثم قال و هو يبتسم في ثقة:

- انتظري حتى أستعيد ذاتي الحقيقية؛ اسمي و جسدي و أموالي و حياتي التي في أمريكا...حياة رائعة أتمنَّى أن تشاركيني كل شيء فيها.

- ومن تراها أمامك الآن هي (سلمى)، يمكنك أن تنتظر الأشهر المتبقية ثم تعرض حبك عليها.

- لكني أحببت عقلكِ أنتِ يا (سالمة) قبل أن أعجب بجسد (سلمى) الذي في تاريخي الكثير مثله بل والأحلى منه، أحببت حكمتك، نظرتك للأمور، إن لديكِ إجابة سهلة لكل أسئلة الوجود و الحياة المعقدة، أحببت عبقريتك التي تستوعب في شهر ما يحتاج غيرك لشهور طويلة كي يستوعبه.

- لكني قُدِّرَ عليَّ أن أكون (سالمة) و يجب أن أعود (سالمة)، لا أستطيع أن أغير القدر المكتوب.

- ألا تقولي أن الله قد أعطانا الإرادة الحرة؟إذن فنحن نستطيع الاختيار و نستطيع تغيير المكتوب و إلا كنَّا مسيرين غير مخيرين، ثم لعلك إن اخترتِ البقاء هنا يكون هذا هو قدرك المكتوب أصلاً.

سكتت (سالمة) فقد كانت حجته مقنعة تمامًا، ثم قالت:

- فما بال (سلمى)؟إن قرارًا كهذا لا يخصني وحدي، لا بد أن توافق هي أيضًا، ولا أظن أنها بطريقة حياتها التي كانت تعيش بها هنا ستطيق حياة الماضي، أنا أظنها الآن تعد الشهور والأيام.

- افترضي أن (سلمى) أعجبتها حياة الماضي، أو أنها وقعت في الحب هناك فقررت البقاء، هل كانت لتستأذنك؟ أم ستختار لنفسها ما تريده فحسب؟

فكرت (سالمة) في حيرة ثم قالت:

- لكن الصواب أن يتصرف الإنسان بناءً على قناعاته هو لا على قناعات غيره.
- حتى إذا كنتِ لا تريدينني أو تخافين من حجم اختلاف ما بيننا، فكري في نفسك يا (سالمة) وفي مستقبلك هنا.
- أقسم بالله لك يا (جوزيف) أن كلامي ليس رفضًا لك أو خوفًا منك، إنني معك أكون على راحتي و أحس كأنك كل أهلي، لكن (سلمى) ما ذنبها؟ إنها بمثابة ابنتي فكيف أكون أنانية هكذا معها؟

وأحس (جوزيف) بخبرته الواسعة في النساء بالحيرة الحقيقية التي فيها (سالمة) فقال ضاغطًا على مشاعرها:

- كيف تتركين المستقبل إلى الماضي؟ كيف تدفنين موهبتك بعد أن رأت النور؟

- ليس بالمستقبل الرائع كما تظن، هي فقط مجرد تكنولوجيا واختراعات استوردناها منكم، لكن الواقع أليم والحياة كلها توتر وأمراض نفسية لم نكن حتى نسمع عنها.

أجاب (جوزيف) بحماس:

- وقلت لكِ إن ما أرسمه لحياتنا من أحلام إنما أرسمها في أرض الأحلام...سنتزوج وتهاجرين معي إلى أمريكا و تختارين الدراسة التي تحبين، لا تضيعي وقتكِ الآن في محاضرات كلية (سلمى)، بل عليكِ من الآن أن تحددي أي المجالات التي قرأتِ فيها تستهويكِ أكثر فنخطط لدراستك لها في أمريكا، فلنبدأ من الآن في التخطيط لمستقبلنا هناك.

- وأنت يا (جوزيف)؟

- ماذا عني؟

- أنت تعلم أنني مسلمة ولا يمكن أن أتزوج إلا من مسلم، هل ستقبل أن تعتنق الإسلام؟ أنت أصلاً لا تؤمن بوجود أديان!

●●●

(٥٥)

لا . هذا غير ممكن طبعًا.

فكرت (سلمى) في بالها...

لا يمكن أن أقع في الحب هكذا، وأين؟ هنا في الماضي في زمنٍ غير زماني و كيانٍ غير كياني؟

ما الذي دهاني؟ حتى (توحيدة) لا تكف عن النظر لي بطرف عينها وهي تبتسم في خبث، ألهذا الحد تفضحني عيناي؟

ألهذا الحد لا أكفُّ عن التفكير فيه طوال الوقت؟

ولماذا؟ هل لجماله اليوسفي؟

أنا لست بهذه السطحية، و سبق وأن تعاملت في أسفاري خارج مصر بل وفي مصر مع من لا يقلون عنه وسامة وجاذبية.

هل ما أشعر به رد فعل عاطفي حيال ظهوره في ذاك الموقف العصيب كفارسٍ منقذ يركب حصانًا أبيضًا؟

لكن فرسه كان أحمر اللون!

ألهذا الحد تفيض مشاعر الأنثى تجاه البطل الذي يلفها بثياب الأمان؟

لكني لست عاطفية لهذا الحد.

أبسبب حديثه العذب و كلامه الشيِّق عن أسفاره؟

كان ذلك ليَفتِن غيري من الفتيات ممن لم تسافر معشار ما سافرت.

أم بسبب ثقافته و حبه للأدب؟

فلستُ بقليلة الثقافة حتى أنبهر بكلامه هذا.

ألأنه مسَّ ذلك الوتر في قلبي والذي كان قد أصابه العطب منذ صدمتي في (هشام) فبدأ الوتر يعزف من جديد؟

لماذا أصلاً أحاول تبرير ما أشعر به؟ بل لماذا أقاوم مشاعري بكل تلك القوة؟

لا بد أن أعترف أنه قد هزَّ كياني بقوة...نعم يجب أن أعترف أن ما كنت أنكره من أن الحب شرارة تندلع فجأة في القلب كان حقيقةً أنا الآن أكتوي بنارها.

لكن ماذا بعد؟ هل سأجرؤ على هذا القرار؟ وهل سترضى جدتي (سالمة)؟

هل سأتحمل أن أعيش باقي حياتي في حدوتة سالف العصر والأوان هذه؟

وضحكت وهي تفكر:

أستطيع وقتها أن أجني مالاً طائلاً وأنا أتنبأ للناس بما سوف يحدث في المستقبل.

لماذا أصبحت فجأة لا أضيق بحياة الناس هنا ولا عدت أعتبرها بدائية بل وصرت أعدد مزاياها في نفسي؟

لكن...من قال أن (عبد الحميد) أعجب بي أصلاً؟ من قال أنه سيتقدم للزواج من أرملة وهو البِكْر الذي لم يسبق له الزواج؟

ولماذا أكثر من ترديد اسمه كأنه نغمٌ عذبٌ فوق شفتاي؟

لا...لا...ما أفكر فيه بعيد عن المنطق وما أشعر به مجرد فورة مشاعر فجرتها شهامته و وسامته، أراهن أنني لو رأيته ثانيةً سينطفئ ذلك الإعجاب المراهق.

نعم...لا بد أن أراه مرة أخرى حتى أطفئ تلك النار التي اندلعت في غير تنورها وأصرف العفريت الذي حضر في غير محله...ولكن كيف؟

إنها العفريته (منيرة)، يمكن أن أكرر معها المشوار السابق، لقد ألمحت له أننا نتمشى عقب كل درسٍ من دروسي، وذكرت له مواعيد وأيام الدروس ، فإما قابلته بالفعل في الموعد المتوقع فأنظر كيف يصنع قلبي تجاهه، وإما أن لا يحضر فأفهم أنني أعيش أوهامًا من جانب واحد، فيكون طرد هذه الأوهام أيسر.

ما هذا التفكير يا (سلمى)، من قال لكِ أنهم يفكرون الآن كما يفكر عشاق ما بعد قرن ونصف؟

العشـاق هـم العشـاق في كل مـكان وزمـان، منـذ عنتـرة وعبلـة إلـى قيـس وليلـى إلـى روميـو وجولييـت إلـى أحمـد ومنـى!

●●●

هـا قـد وصلنـا أنـا و (منيـرة) إلـى نفـس نقطـة ذاك اليـوم، بعـد أن كررنـا أنـا وهـي ورفيقاتنـا نفـس النزهـة السـابقة، لابـد الآن أن نقـف أنـا وهـي نتحـدث قليـلاً في انتظـار أن يظهـر أو لا يظهـر، لايمكـن أن أصـرف (منيـرة) وأقـف بمفـردي فأبـدو كالملهوفـة عليـه، ولابـد أن أصطنـع أي مواضيـع أكلـم فيهـا (منيـرة) في انتظـار ظهـوره، الحمـد لله أن الثرثـرة فطـرة في لسـان النسـاء لا تحتـاج لمجهـود.

لماذا يبدو الوقت متجمدًا لا يتحرك؟ يبدو أنه لن...

يـا ربـي، هـل هـذا هـو؟ نعـم هـو بحصانـه يتـراءى مـن بعيـد و يتجـه ناحيتنـا، لا بـد الآن أن أصـرف (منيـرة) لكـن بعـد أن يرانـا معًـا.

- (منيـرة)؛ لقـد سـقط الشـال منـي، يبـدو أننـي فقدتـه عنـد شـجرتك التـي تصرين علـى اقتطـاف أوراقهـا.

- هيا بنا نرجع لنستعيده.

- أنتِ أخف مني، اركضِي في طلبه و أنا سأنتظرك هنا.

وبالفعـل انطلقـت (منيـرة) تحجـل حجلتهـا المفضلـة، وهـا هـو (عبـد الحميـد) يقتـرب منهـا حتـى تميـزت ملامـح كلٍ منهمـا لعـين الآخـر فنظـرت لـه (سـلمى) بابتسـامة سـريعة ثـم تصنعـت الخجـل و أسـدلت خمارهـا علـى وجهها.

- كيف حالك يا (سالمة)؟

- كيف حالك أنت يا (عبد الحميد).

ابتسم وقال:

- أراكِ ما عدتِ تخافين الذئاب.

- ليس بعد أن إطمأننت أن هناك من يتصدى لهم ببندقيته.. هل تأتي عصر كل يومٍ في هذا المكان أم أنها مصادفة؟

ابتسم (عبد الحميد) لما فطنه مما وراء سؤالها ثم قال:

- عندما آتي رشيد أحب أن أتمشى قبل الغروب هنا أحيانًا، لكن يبدو أنني أحببت ذلك المكان فصرت آتيه كل يوم.

اخضبَّ وجه (سلمى) بالحمرة حتى أحست بحرارته تلفح خمارها ثم استجمعت نفسها و قالت:

- لكنك لا تلبث أن تسافر تاركًا المكان و رشيد كلها.

- يبدو أن المكان ورشيد وأهلها قد ملكوا عليَّ أمري حتى ما عدت أشتهي السفر الكثير، وإذا اضطررت لسفرٍ ما فأحب أن أصطحب هذا المكان معي.

- وكيف تصطحب مكانًا معك؟ هل هذا ممكن؟

- قولي لي أنتِ إن كان ذلك ممكنًا أم لا.

وضحكت (سلمى) ضحكة خفيفة و كتمت صوتها كي لا تفضح نبض قلبها أمامه، وقالت:

- أظن أن الحاج (محمد البكري) أقدر مني على إجابة هذا السؤال.

وحمدت الله أن ظهرت (منيرة) وهي تحمل في يدها الشال الذي سقط منها عمدًا في البستان، فقالت:

- (منيرة) قادمة ولا بد لي أن أنصرف.
- وإجابة السؤال؟
- إجابته الآن عندك.

ومضت إلى حيث وقفت (منيرة) تراقبهما من قريب، فلما جاءتها أعطتها شالها وقالت لها:

- أليس ذلك الشاب هو صاحب الذئب؟
- نعم هو، لما رآني أنتظرك وحدي جاء ليطمئن أن ليس هناك مكروه.
- إمممم؛ يبدو أنني مدينة بالاعتذار للشال.
- اعتذار للشال؟ كيف ذلك؟

ردت (منيرة) بخبث:

- كنت ألومه على سقوطه منكِ لكن يبدو أنه كان ضحية مثلي!

- يا لكِ من عفرية سيئة الظن.

●●●

(٥٦)

تجَمَّد (يوسف) و (سعيد) في مكانيهما لدقائق طويلة وكأن شريط الزمن قد علق بهما على تلك اللحظة، وأخذ (سعيد) ينظر في بلاهة إلى من يظنه (جوزيف) ولكن يحس الآن و كأن روح (يوسف) قد تلبسته، ثم قطع (سعيد) الصمت الطويل وأعاد شريط الزمن للدوران وقال:

- أختك (سارة)؟

رد (يوسف) وهو يبتلع الكلمات داخل فمه وبعد أن تحول للغة الإنجليزية مرة أخرى:

- كأنها أختي و أنا فقط أرد غيبتها.
- وهل ما قلته عنها يعيبها من وجهة نظرك كأمريكي؟
- أقصد أنه يعيبها بمقاييسكم أنتم.
- وهذه الكلمات المصرية الفصيحة؟ و كلامك معي كأنك تعرفني من قبل وتعرف شخصيتي ومبادئي؟ و معرفتك بالكثير من حياة (يوسف) و (سارة)؟
- عادي...هذه مجرد كلمات عربية أحفظها من زياراتي الكثيرة لبلاد عربية.
- لكنك لم تلاحظ أن أسئلتي الأخيرة كانت بالعربية وبرغم ذلك أجبتني، وأنني الآن أكلمك بالعربية أيضًا!

بهت (يوسف) ولم يدرِ بماذا يجيب، فقال (سعيد) بحذر:

- أئنَّك لأنت (يوسف)؟

تنهد (يوسف) وقال لـ (سعيد) بالعربية:

- اجلس وسأقص عليك القصة كلها!

وبعد أن استغرق قرابة الساعة في حكاية قصته كان طوالها (سعيد) فاغراً فاه كأنه يستقبل الكلام من خلاله وليس من خلال أذنيه، ثم قال:

- وهذا يفسر تلك التغيرات والتصرفات الغريبة التي طرأت على (يوسف) الذي في مصر، والمقالب والأفكار الشيطانية التي لم أعهدها فيك أبداً.

رد (يوسف) وقد تحولت ملامحه إلى الغضب:

- وأنا الآن يفترض بي أن أقتلك أو على الأقل أضربك ضرباً مبرحاً جزاء ما قلته على (سارة).

تلعثم (سعيد) واحمر وجهه خجلاً وقال:

- هذا كلام مزاح، مجرد تهيؤات أتخيل فيها أن البيئة حول الإنسان وثقافتها السائدة تجعله...

قاطعه (يوسف) وقال:

- هل كنت حقًّا تحب (سارة)؟

زاد وجه (سعيد) احمرارًا وقال:

- أقسم لك أنه كان حبًّا مكتومًا في صدري و لم أحاول حتى أن أصارحها به لأنني أعرف ظروفي وأنني لن أقدر على الزواج و...

قاطعه (يوسف) مرة أخرى و قال:

- عندما نعود إلى مصر يكون لنا حديثًا آخر في هذا الموضوع.

صاح فيه (سعيد):

- نعود؟ هل قلت نعود؟ هل تنتوي فعلاً أن تترك ما أنت فيه؟

رد (يوسف) باستغراب:

- هل تريدني أن أبقى (جوزيف) كما أنا؟

- هل فقدت عقلك؟ تسوق لك الأقدار كل ذلك النعيم فتركله بكل بساطة وغباء؟

ضيَّق (يوسف) من عينيه وقال:

- هل تريدني أن أغتصب حياة الرجل؟ أمواله وحياته بل وجسده أيضًا؟ مالك يا شيخ (سعيد)!

طأطأ (سعيد) رأسه و قال:

- إنه اختبار عسير حقًّا.

ثم ابتسم وقال:

– أعد له أمواله واحتفظ بهذا الوجه الجميل.

ابتسم (يوسف) وقال:

– أشكرك على هذه المجاملة وأذكرك أن الحال من بعضه.

– أنا أتحدث عن جد، هل حقًّا تنتوي العودة إلى مصر؟ ألم يكن حلمك الهجرة إلى أمريكا؟ كيف تترك هذا الحلم و تعود إلى كابوسك القديم؟

– أنا الآن ادَّخرت ولا زلت أدَّخر مبلغًا محترمًا من المال يضمن لي أن أبدأ حياة طيبة في مصر؟

– وهل المسألة مال وفقط؟ ألا ترى فرق الحياة في كل شيء؟...كل شيء! إن حياة الموظف العادي هنا أهنأ من حياة المليونيرات عندنا، ألا تسير في شوارعهم يا رجل؟

– و (جوزيف) ما ذنبه؟

– (جوزيف) وأهله بل وسائر الأمريكان الآن كلهم في الأصل مهاجرون مستعمرون لهذه الأرض من أهلها الأصليين، اعتبر نفسك مهاجرًا أوروبيًّا أخذت مكان هندي أحمر!

– وأمواله؟ بل ماذا عن جسده؟

– أرسل له كل أمواله فقد كونها بجهده وهي من حقه، أما حكاية الجسد والجنسية فلا يد له فيهما، هو وُلد بهما، أنت تعرف رأيي؛ الإنسان مواطن عالمي، تاريخ الأرض كله هجرات قبائل و شعوب، كل

شعوب أوروبا الحاليين هم شعوب هاجرت منذ قرون و استوطنت مكان غيرها ...قبائل ساحت في أوروبا و استعمرت أرض من كانوا قبلهم، منهن من جاءت من أقصى شمال أوروبا أو وسطها أو من غرب آسيا بل ومن الهند أحيانًا ...اليابانيون الذين يسكنون آخر أطراف الأرض ليسوا هم أهل اليابان الأوائل و إنما شعب آخر يسمى (شعب الأينو) لم يبق منه إلا بضعة آلآف...كل الأمريكان السود هنا اُختطِفَ أجدادهم من أفريقيا، لو خيِّرت واحدًا منهم الآن لما اختار أن يعود لأرض أجداده... الجنسية مجرد ورق وجواز سفر، كل أعراق الأرض اختلطت ببعضها، جسد جوزيف هذا ستجد فيه عرق من الجرمان أو الواندال أو الهون أو الأنجلوسكسون بل ربما هو خليط من كل تلك القبائل الأوروبية القديمة، أنت نفسك بل كل مصري ستجد فيه عرق سامي أو حامي أو تركي، الفراعنة لم يبق منهم إلا الآثار حتى لغتهم انقرضت، الإنسان مواطن عالمي والحدود من صنع أهل السياسة.

– وماذا عن ذاتي أنا؟ كيف سأعيش بهذا الفصام في ذاتٍ بغير جسدها؟

– هل من فقد ذراعه أو تشوه وجهه في حادث يفقد ذاته؟ ألا يجري بعض الناس عمليات تجميل تغير ملامحهم بالكلية؟ أنت (يوسف) في أي جسد كنت، وحالك هذا قدرٌ تغير و رزقٌ جديد لك أن تقبله أو أن تركله بقدمك.

– وأمي وأختي؟ هل سأغترب عنهما للأبد؟ أنا لا أطيق أن أحرم منهن.

- دع الأمر لي، أنا مستعد أن أسافر لأشرح لهما ومعي شريط فيديو مسجل منك باللهجة المصرية تطعمه بالأدلة التي لا يعرفها سواكم لتؤكد كلامي، ثم قم باستقدامهما إلى أمريكا كما فعلت معي، وعلى الأقل بذلك نضمن ألا يؤذيهما (جوزيف) أو ينتقم منهما بحيلة من حيله تلك.

فكر (يوسف) ثم قال:

- إنك لغويٌّ مبين، لقد كنت أغلقت باب ذلك التفكير منذ البداية وأنت الآن تعيد إيقاظ الشياطين في عقلي.

- هذا لأنك طوال عمرك بطيء التفكير ونظرتك للدنيا تحت قدميك و غارق في بحور الفلسفة النظرية حتى وصلت إلى الخامسة والثلاثين من عمرك ولم تنجح في شيء سوى أن بِعْت تلك القلادة.

ثم أخذ يزين له:

- اختراعي الآن اقترب من الظهور إلى النور، وعمّا قليل ستبدأ تجربته على المتطوعين، أنت تعرف ما يقوله خبراء شركة الأدوية عنه وتوقعاتهم له بأن يكون طفرة عقارية لا تقل عن طفرة الفياجرا أو البنسلين، تخيل أننا نؤسس سويًّا شركة لإنتاجه وتسويقه، تخيل حجم الثروة التي تنتظرنا...فكر ولا تُضِعْ الفرصة فلم تتبق إلا أشهر قليلة!

●●●

(٥٧)

قرارٌ ليس سهلاً ذلك الذي تنتويه يا (نوف)...قالت لنفسها.

وليس أمامك إلا شهور قليلة لاتخاذ الجواب النهائي الذي لا رجعة فيه، ستودعين أنوثتك و أمومتك بعدها إلى الأبد.

هل سينسيكِ الإرث الذكوري من جسد (نواف) كل ذكريات اللون الوردي ولمسات الحرير و الحناء؟

هل ستعوضك مشاعر الأبوة تجاه (أسيل) عن أحاسيس أمومتك نحوها؟

أكثر ما يغيظني أن (نواف) لم يفكر للحظة في أن يحتفظ بثوبه الجديد بينما لا أعتز أنا بهذا الثوب قدر اعتزازه هو بثوبه.

لا يهم...لن أخسر بقدر ما سأكسب؛ الحرية...القوة...الاستقلالية؛ هذه بعض مكاسب فقط، و لكن الأهم أن يرى (نواف) كم خسر بطمعه وأنانيته، و أنه أضاع الفرصة التي يتمناها كل أزواج وزوجات العالم في الوصول إلى قمة الانسجام و الذوبان كما وصلنا.

يا ربي...ما هذا التفكير؟ لا يمكن أن أتخذ قرارًا كهذا كمجرد ردة فعل تجاه (نواف)، لماذا أضعه دائمًا في عقلي و محور تفكيري؟ يجب أن أتَّخذ قراري لنفسي و بنفسي المجردة والمستقلة.

سـأبدأ مـن الآن في تعويـد نفسـي علـى التأقلـم علـى هـذا الوضـع للأبـد، سـتكون شـهور اختبـار.

لقـد أتقنـت الكثيـر مـن خبايا وأصـول العمـل، لا حاجـة إذن ل (نـواف) في العمـل، بـل لا حاجـة لنـا بـكل هـذا الكمّ مـن المشـاريع وطموحـات التوسـع، سـأكتفي بالاحتفـاظ وإدارة مـا هـو قائـم، وكل مشـروع لـه إدارتـه المسئولة عنـه، و يتولّـى متابعتهـم جهازنـا المحاسـبي المركـزي، ويكفينـي أن أتابـع الخطـوط العريضـة والحسـابات النهائيـة واتخـاذ القـرارات العاجلـة.

لقـد حلَّت بذلـك معضلـة متطلبـات العمـل التـي اضطرتنـي للاسـتعانة (بنـواف)، فليتفـرغ هـو لرعايـة (أسـيل) كأي أم صالحـة!

- ماذا؟ لا داعي لذهابي إلى المكتب؟ ماذا تقصدين؟

- أقصـد أن (أسـيل) بحاجـة إلـى مزيـد مـن رعايتـك، المربيـة لا تهتـم بهـا إلا إذا أحسـت برقابتـك المسـتمرة عليهـا، وأنـا قـد ألممـت بـكل خيـوط العمـل في يـدي.

سـكت (نـواف) و أخـذ يدقـق في عينـيّ (نـوف) التـي بادلتـه نظـرة بنظـرة، فقـال لهـا:

- ما خطبك يا (نوف)؟ ماذا يدور في رأسك؟

هزَّت كتفيها لأعلى و قالت:

- لا شـيء، لقـد اقتـرب موعـد عودتنـا وأريـد أن أعيـش دور الرجـل بحذافيـره في الشـهور القليلـة تلك...وفرصتـك أنـت أيضًـا أن تمـارس دور الأنثـى والأم كامـلاً.

- وهل نبتت تلك الفكرة فجأة في رأسك؟ أم أنها ردة فعلك تجاه ما كان لنا مع (كوليت)...أنا غير موافق على ذلك.

- للأسف لقد أخذت قراري، وأخبرت العاملين في المكتب أن السيدة (نوف) لن تداوم معنا بعد اليوم وستكون كل المراجعات معي كما بالسابق، لا أظن أنك ستحب أن تكسر كلامي أو تضطرني لأن أجعل الأمن يمنعونك من الدخول.

بهت (نواف) وهو لا يصدق ما يسمع، فأكملت (نوف):

- و أرجوك ألا تثير المشاكل - في المكتب أو في البيت - فأضطر لإعادتك إلى الرياض.

- ما خطبك يا (نوف)؟ ألم نكن قد تجاوزنا كل المشاكل و بدأنا حياة جديدة؟

نظرت له بحدة و عتاب ثم قالت:

- جيد أنك ما زلت تتذكر ذلك، و بالتأكيد تتذكر من منَّا أفسد هذه الحياة الجديدة وعليه أن يتحمل تبعات ذلك.

- إذن فأنتِ تعاقبينني!

ردت عليه بتهكم:

- لا سمح الله يا زوجي العزيز.

ثم أكملت بجدية:

- إنما هي خياراتنا الحرة ومن بدأ طريقًا فليكمله.

انتبه (نواف) لكلماتها الأخيرة ففكر ثم قال:

- ماذا تنوين بالضبط في نهاية العام يا (نوف)؟

سكتت لثوانٍ ثم قالت:

- لا أنتوي إلا ما أجده خيرًا لنا جميعًا.

●●●

(٥٨)

أحيانًا يُهيَّأ لـ (جوزيف) أن (سالمة) تتهرب من حبه الذي يعرضه عليها فتتحجَّج بمصير (سلمى) وبالاختلافات التي بينهما وبعقبة الدين التي تضعها أمامه.

وأحيانًا يظن ظن اليقين أنها تبادله نفس المشاعر، تفضحها في ذلك نظرات عينيها إليه المليئة وُدًّا وارتياحًا، وأن ما تقوله ليست معوقات تضعها وإنما عقبات تناقشها معه كي يتجاوزاها سويًّا.

إنها من قوة الشخصية لتقولها بصراحة؛ أنا مجرد زائرة من زمن بعيد و أنت في نظري حفيد أحفادي...لقد أنهت هي من قبل صداقات (سلمى) بكل الشباب بكلمة واحدة...

قال (جوزيف) لنفسه...

أما أن تناقش ما تناقش وأن تسألني كم فتاة قلت لها كلمات الحب، بل و تقرأ باهتمام الأوراق التي جمعتها لها عن الدراسة في أمريكا وتشاهد الأفلام الأمريكية كي تتعرف على الحياة فيها؟ فهذا معناه أنها على أقل تقدير تفكر فيّ وفي عرضي بكل جدية.

أنا أصلاً (كجوزيف) أتعجب من قلبي وتعلقه بها، صحيح أنها جميلة وخفيفة الظل جداًّ ولا أملّ حديثها، لكنها واحدة من عشرات وربما مئات - لا أذكر عددهن أبدًا - الفتيات اللاتي عرفتهنّ، ومنهن من كانت أخف ظلاًّ أو أمتع حديثًا، ومنهن الفاتنات اللاتي زينت صورهن أغلفة المجلات، فلماذا (سالمة)؟

هل كما قلت لها من قبل إن الدونجوان عندما يقع في الحب فإنه يقع بعقله لا بقلبه؟ أم أنها مغامرة فريدة أن أتزوج فتاة جاءت من الماضي البعيد؟

مغامرة لم ولن يقوم بها أحدٌ سواي!

أن يكون عندك ما ليس عند أُحدٍ غيرك، فذلك إحساس فائق النشوة و الزهو.

لكني فعلاً وجدت في (سالمة) ما لم أجده في كل من عرفت من فتيات، وجدت فيها سلامًا نفسيًّا و تصالحًا حقيقيًّا مع الذات، وجدت فيها حضنًا دافئًا برغم أني لم ألمس حتى يدها، وجدت عندها وضوحًا في الرؤية وأجوبة كثير من الأسئلة التي كانت تعصف بذهني، حتى و ن لم أقتنع بأجوبتها كل الاقتناع؛ إلا أن كلامها مترابط ونظامها متكامل ليس فيه تناقض ولا ثغرات.

لكني أشفق عليها و على نفسي مني، أخاف تقلباتي، أخشى أن تكون نزوة أفيق منها بعد فترة.

أحس وكأنها تشدني إلى الماضي أكثر مما تعيش هي معي الحاضر.

وحتى الإسلام الذي صارحتني بوجوب تحولي إليه كي تتزوج مني – وبرغم أنه إجراء شكلي لا يهمني كثيرًا – إلا أنني غير مرتاح إليه، صحيح أنها أقنعتني بأن للسماء يد و اتصال مع الأرض إلا أنني لم أقتنع بعد بصحة أي دين، فضلاً عن أن أعتنق أكثر هذه الأديان غربة عن ثقافة العصر...

- ولماذا يجب أن أتحول للإسلام؟

- لا يمكنني كمسلمة أن أتزوج من غير ديني.

- هذه شكليات تجاوزتها الأيام، الدين مكانه قلب أي إنسان فحسب، الدنيا تغيرت جدًّا يا (سالمة) و تجاوزت الماضي كثيرًا.

ردت عليه بكل عفوية وهي تنظر للأفق البعيد:

- لا شيء تغير، لا جديد في هذه الدنيا.

رد عليها مصعوقًا و عيناه تتسعان كأنهما فنجاني قهوة:

- ماذا؟ أنتِ تقولين ذلك؟ أنتِ من رأيتِ الفروق والتغيرات بعينيكِ؟

حولت نظرتها إليه و قالت:

- ولذلك أعني تمامًا ما أقول، شكليات، كل ما تغير في الدنيا مجرد شكليات لكن الأساس واحد، فقط طريقة تعاطي الناس مع الأمور والتي يظنونها قد تغيرت بينما لم يتغير منها سوى مظهرها السطحي، قل لي أنت ماذا تغير؟

قال وعيناه تدوران في الهواء:

- انظري لكل ما حولك وقارنيه بالماضي.

- لذلك أقول لك لم يجد جديد، الناس كانت تنتقل بالدواب فصارت تنتقل بالمركبات و الطائرات لكن السفر هو السفر، كانت تبيع وتشتري بالذهب ثم بالنقود و أخيرًا بالكروت الممغنطة لكن البيع

والشـراء واحد...النـاس منـذ قـديم يأكلـون ويتزوجـون ويبنـون البيـوت والمدن ويربـون أبناءهـم ويزرعـون ويتاجـرون ويقيمـون الصناعـات ويكونـون المجتمعـات و يضعـون لهـا القوانـين وأنظمـة الحكـم، مـا الجديـد إذن؟ مجـرد تغييـر في الشـكليات.

حتـى أنظمـة الحكـم مبـادئ الفكـر الحديثـة كلهـا أصـلاً قديمـة، حتـى الديمُقراطيـة والشـيوعية وضِعَت مبادئهـا منـذ قـرون بعيـدة، أقصـى التزمُّـت الدينـي وأقصـى الانحـلال الخلقـي عرفهمـا التاريـخ منـذ آلاَف السـنين، كل المعامـلات الماليـة – بـل حتى فكـرة و معامـلات البنـوك – هـي معامـلات قديمـة جـرى تطويـر أشـكالها، حتـى أنـواع الترفيـه بـل حتـى الألعـاب الأوليمبيـة فكـرة قديمـة، حتـى مجالـك الفنـي الـذي أبدعـت فيـه يـا (جـو) لـه جـذور تاريخيـة مـن المسـرح أو اختـراع القصـة أو رسـم الشـخصيات الخرافيـة، أنـت فقـط أضفـت لـه تقنيـات التكنولوجيـا، حتـى النـوادي عرفتهـا معظـم الشـعوب، كل أنـواع الفنـون لـم يضـف هـذا العصـر إليهـا فنًّـا واحـدًا سـوى السـينما التـي هـي مجـرد تطويـر لفـن المسـرح القـديم... أقـول لـك شـيئًا؟ سـمِّ لـي نشـاطًا واحـدًا جديـدًا تمامًـا طـرأ علـى البشـرية منـذ مئـات السـنين البعيـدة!

فكـر (جوزيـف) وطـال بـه التفكيـر و لـم يفلـح عقلـه للوصـول إلـى جـوابٍ واحـد، فغيـر مسـار السـؤال و قـال:

– لكـن عصرنـا هـو عصـر التنويـر، عصـر الانفجـار المعرفي والعلمـي، عصـر الاتصـال بـلا حواجـز، امتـزاج كل الحضـارات و الثقافـات، كل شـيء علـى مائـدة واحـدة أمـام الجميـع، بضائـع الدنيـا في سـوقٍ واحـد والفـرز

بينها على قدم وساق، والبضائع الجيدة تطرد الرديئة، حتى أصبحت الدنيا كلها تقريبًا على ثقافة واحدة...ملابس واحدة... لغة عالمية واحدة...ذوق واحد، كثير من الأفكار و الثقافات واللغات ماتت و غيرها في الطريق لأن يموت، فلن يبقى إلا ما يصلح للحياة أو بعض ما يحافظ عليه أهله كطقوس بعض الأديان و فنون و آثار و إبداعات فنانيهم.

- ومن قال أن هذا هو نهاية المطاف، قد يأتي غدٌ قريب يُنسف فيه كل ذلك نسفًا، بل إن هذا العصر لم يقدم أي فكرٍ جديد...أي فلسفة جديدة، كل ذلك اقتاته عصركم من عقول أصحابها الذين ماتوا منذ مئات السنين، حتى فكر هذا العصر و فلسفته سُمي بما بعد الحداثة ؛لأنه ببساطه لم يقدم شيئًا سوى نقده لمرحلة الحداثة التي لم تقدم شيئًا هي الأخرى يستحق أن يطلق عليها اسمه! ، هذا عصر لم يقدم فكرًا جديدًا فصبّ كل جهده في تطوير التقنيات و تطبيقاتها و وسائل الراحة والرفاهية، لكن لا يلبث الناس أن يملؤا ذلك الفراغ ليبحثوا وراء الفكر والفكرة... وراء الأصالة.

- إذا خيرتك بين العيش في ماضيكِ أو في هذا العصر - بغض النظر عني أنا - فماذا تختارين؟

صمتت (سالمة) في حيرة ثم قالت:

- لست أدري، كلا الزمنين له ميزاته و عيوبه، الماضي يطغى عليه إحساس الظلام والرتابة والحاضر تملؤه أحاسيس الضياع والتوتر، الماضي كان يحتاج للإفاقة والحاضر يحتاج بوصلة و علاجات نفسية،

إن عدت للماضي فلن أفتقد أبدًا ما في الحاضر من تكنولوجيا ولكن سأفتقد ما فيه من أنهار علم ومعرفة، وإن بقيت في الحاضر هذا فسأفتقد دفء الماضي وسلامة نفسي...

سكتت لثوانٍ ثم نظرت في عينيه وقالت:

- أنت تستطيع أن تكون عامل الترجيح بينهما ولكنك أكثر حيرة وضياعًا مني!

●●●

(٥٩)

ما كنت أظنه مستحيلاً قد حدث، وما كنت أسخر منه وقع لي، وما كنت أضيق بمقامي فيه صرت لا أريد أن أتركه، والعصر الذي كنت أعدّ الأيام حتى أعود إليه أصبحت لا آبه له، والمشاعر التي كنت أقرأ عنها فأضحك من سذاجتها أنا الآن غارقة فيها، وخالة (عبد الحميد) جاءت لتشرب القهوة مع والدتي، و الحياة هنا التي كنت أراها فيلمًا من أيام السينما الصامتة دبت فيها ريشة الألوان وصدحت فيها أعذب الألحان...ولكن...

ولكن ماذا بعد؟ إن قرارًا مصيريًّا يجب اتخاذه الآن، أبقى أو أعود؛ تلك هي المعضلة...إنه قرار لمصير جدتي (سالمة) أيضًا وكيف لي أن أعرف رأيها؟

و (توحيدة) تصدح بزغروتة طويلة عذبة رقص قلبي بها طربًا، وجاء (عبد الحميد) ووالده بعدها بيوم لزيارة والدي رسميًّا، وامتلأ عقلي حيرةً بمشاعر متضاربة، واستأذن (عبد الحميد) من أبي أنه سيحتاج للسفر إلى الشام لمتابعة تجارة له هناك و منها إلى القدس ليُهيِّيء بيته للعروس، بينما سيتابع أبوه و إخوته إعداد بيته هنا فيكون لنا بيتان؛ في رشيد وفي القدس...

ماذا؟ القدس؟ هل يمكن أن يرى (عبد الحميد) يومًا أن الحياة في القدس أفضل فيقرر أن نستقر هناك؟ إنهم جميعًا بالطبع لا يعلمون شيئًا عن المصيبة التي في انتظار القدس خلال قرنٍ من الآن.

وسـرحت (سـلمى) بخيالهـا؛ إنهـا الآن في موقـف صعـب، وجـواب نهائـي يجـب اختيـاره لهـا و (لسـالمة) و لأبنـاء هـذا الـزواج، سـواء أكنـت أنـا الزوجـة أم (سـالمة)...

لكن المستقبل يقـول إن (سـالمة) عاشـت و تزوجـت وأنجبـت في مصـر حتـى جِئـتُ أنـا إلـى الدنيـا، إذن فاحتمـال الاسـتقرار في القـدس غيـر وارد...

لكنـك الآن يـا (سـلمى) تقررين بـإرادة حـرة و تختاريـن مـا قـد يغيـر المسـتقبل، فمـا العجـب إذن أن يغيـر (عبـد الحميـد) الماضـي هـو أيضًـا ويقـرر الاسـتقرار في القـدس؟

لكـن مـن قـال أن زوج جدتـي (سـالمة) الـذي أتـى منـه نسـلها هـو (عبـد الحميـد)؟ لعلـه كان شـخص آخـر وأنـا الآن أغيـر الماضـي برمتـه وأصنـع مسـتقبلاً مختلفًـا، لـو اسـتطعت فقـط أن أدرك باقـي مسـتقبل (سـالمة) فأعـرف مـن تزوجتـه؟ لـو اسـتطعت سـؤالها هـي شـخصيًّا عـن طريـق (حسـن) و (برقـان)؟

لكـن (سـالمة) الآن لا تـدرك إلا ماضيهـا الـذي كان قبـل لحظـة الاسـتبدال، وباقـي ماضيها لا تعرفـه هـي الآن، وإنمـا أنـا التـي أكملـه الآن وأقـرر اختياراتـه.

وأحسـت (سـلمى) بعقلهـا يـكاد يعطـب مـن ذلـك التفكيـر المتداخـل الـذي لا تعـرف أيـن الماضـي فيـه وأيـن المسـتقبل، فقـررت أن تحصـر تفكيرهـا في الحاضـر فقـط، حاضرهـا هـي مـع (عبـد الحميـد).

●●●

(٦٠)

لا أظن أن كلام (نوف) الأخير معي مجرد تلميح أو محض تهديد أو سحابة غضب تأخذ وقتها وتمر

قال (نواف) في نفسه...

(نوف) أخذت قرارها و بدأت في تنفيذه، تتصرف في كل شئون العمل بدون الرجوع إليَّ في أي شيء، جمَّدَت كل المشاريع التي تحت التخطيط أو في إطار دراسة الجدوى، و اكتفت بمتابعة المشاريع القائمة بالفعل.

لن تصدق أن (جويل) هي من تنقل لي الأخبار الآن أولاً بأول، وأن (كوليت) هي من طلبت منها أن تساعدني ظنًّا منها أن تغير (نواف) وقراره بمنع (نوف) من العمل إنما هو شطحة من شطحات سحر (نواف).

الميزة الوحيدة في قرار (نوف) بمنعي عن العمل أنها جعلت (كوليت) تصدق حكايتي لها عن عشيقة الرياض السفلية.

طلبت (نوف) من مكتب الرياض كل ملفات المشاريع التي تحت إشراف (كوليت) وأخذت تدرسها ورقة ورقة، لم تتخذ فيها أي قرار حتى الآن، فحق الإدارة بيد (كوليت)، وأي عقود تصرف ببيع أو شراء أو تحرير شيكات كبيرة يجب أن يوقع عليها (نواف) و (كوليت) معًا.

تتعامل معي بتحفظ و تحفز في آنٍ واحد، ولا ترد على معظم مكالمات (كوليت) والتي برغم الإهانة التي وجهت لكرامتها تتصل بمن تظنه (نواف) للاطمئنان عليه...كم أنتِ عاطفية وحنونة أيتها المرأة.

لدرجة أن (كوليت) تستقصي الأخبار مني...أنا و (كوليت) و(جويل) أصبحنا جبهة واحدة!

بدأت (نوف) في تكوين صداقات و علاقات اجتماعية خاصة بها هنا في دبي، لم تعد تشاورني في أي شيء.

احتججت... تعاركت...صرخت، و هي تمضي في طريقها لا تأبه بشيء.

(لا أنتوي إلا ما أجده خيرًا لنا جميعًا)...كلماتها تلك ترنّ في أذناي طوال الوقت.

سأكون مغفلاً إن لم أفهم أن (نوف) قد قررت قلب المائدة على الجميع والاحتفاظ بكيانها الجديد حتى بعد عودة ذلك الشِعْرَى...

مصيبة...

ما العمل إذن؟ كلما واجهتها إما أن تنكر وإما أن تجيبني بسخرية واستخفاف وتحدي.

هل أفضح الموضوع بين أهلي وأهلها ليضغطوا عليها؟ سيقع الخلاف بينهم في إرسالي إلى مستشفى (الأمل) للصحة النفسية أو إلى أحد الشيوخ لرقيتي وإخراج الجنّ من جسدي، لكن سيتفق الجميع على جنوني.

واستمر (نواف) يفكر لعدة أيامٍ حتى هداه تفكيره لما رآه الحل الأمثل...

هل تريد أن تلعب دور الرجل؟ إذن فلتلعبه بجميع قواعده!

●●●

- أين ذهبت يا (نواف)؟

- سافرت...مللت الوحدة والفراغ بعد تقاعدي الإجباري فوضعت نفسي في أول طائرة.

- و (أسيل) معك؟

- وهل تستغني الرضيعة عن أمها؟ طبعًا معي فلن يكون هناك من هو أحنّ عليها من أمها.

ووقعت كلمات (نواف) على قلب (نوف) كالغصة، فهمت أنه يضغط على مفتاح الأمومة عندها، فقالت:

- وأين ذهبتم؟

- لم أقرر بعد، ولكن تأكدي أنني لن أكون في السعودية كلها.

ردت بتماسك:

- ومتى ستعود؟

- لم أحدد، شهرين...أربعة...سنة...عدة سنوات...لست أدري، لكني سأعود إلى الرياض عندما تبلغ (أسيل) سن المدرسة!

- هل تظن أنك تلوي ذراعي (بأسيل)؟

- بالطبع لا، أنتِ الآن رجل تتمناه ألف امرأة بل ومن جميلات العالم، ستتزوجين وتنجبين غيرها، أما أنا فبالتأكيد لن يمسَّنِي رجل كما تعلمين سأعيش من أجل (أسيل)، فاطمئِنِّي عليها بالاً ولا تفكري فيها كثيرًا.

دمعت عينا (نوف) رغمًا عنها لكنها تماسكت و قالت:

- أفهم من ذلك أنك ستحرمني منها للأبد؟

- لا أحد يجرؤ أن يحرم طفلة من أمها، إلا إذا استغنت الأم عن أمومتها...بالإذن يا (سيد نواف)! فلا زالت رحلتي طويلة.

ثم أغلق الخط بينما انفجرت (نوف) في وصلة بكاء عنيفة.

●●●

(٦١)

لم تكن الحيرة بين الحاضر والماضي هي الحيرة الوحيدة في عقل (سالمة)، إنها منذ أسبوع ترى كل ليلة في منامها ما تراها رؤيا حق وليست مجرد أضغاث أحلام.

ترى (سلمى) تجري في الحقول في رشيد نحو (هشام) الذي يجري نحوها هو أيضًا وكلٌّ منهما ينادي على الآخر باسمه في شوق و لهفة...

هشاااام...سلمى !!!!

ولما اقتربا من بعضهما ظهر فجأة (عبد الحميد) وصرخ فيها؛ احذري يا (سلمى) هذا ليس (هشام)، وفجأة تحول (هشام) إلى ذئب مفترس حاول أن يهجم على (سلمى) لكن (عبد الحميد) قبض حفنة من طين الأرض ورماه بها فبدأ يحترق وأخذ لهبه يصعد في السماء ولكنه جذب (سلمى) معه في صعوده، فأخذت تصرخ وتنادي علي (عبد الحميد) الذي قبض حفنة طين أخرى ورماه بها فتحول إلى دخان تصاعد حتى ابتلعه طبق طائر كان يرابض في السماء، بينما سقطت (سلمى) بين ذراعي (عبد الحميد) و قد تحولت ملابسها إلى ملابس العروس، وانطلقت حولهم الزغاريد من كل مكان.

يااااه...(عبد الحميد) مرةً أخرى؟

قالت (سالمة) لنفسها...

أول مرة رأيته فيها كانت مصادفة عندما كنت مع أمي نزور أمه في بيتهم، وجاء هو من طلب كان يقضيه في الخارج ، كنت وقتها لم أناهز الـ ١٢ بعد، ومنذ أن وقعت عيناي عليه وقع في قلبي من وقتها، كنت لا أترك أمي تزور أمه مرة إلا وذهبت معها، كنت أحيانًا أراه وأحيانًا أخرى يكون في بعض أسفاره برغم أنه كان لا يتجاوز الـ ١٥ من عمره وقتها، لا أنسى المرة التي نظر لي فيها من بعيد و ابتسم ابتسامات ذات معاني، لكنه أمه ماتت بعدها وانقطعت زيارات أمي لبيتهم و سافر هو في سفرٍ طويلٍ من أسفاره، وما لبث قلبي أن تعافى من جراحه فلا مجال لغلبة مثل تلك المشاعر في أيامنا تلك.

يا الله...تدور الأحداث وتتعامد إشراقات النجوم وتتقلب بنا الدنيا وتسقط (سلمى) في بئر الماضي لتقع في حب (عبد الحميد) مكاني؟

لكن القلب الذي ينبض في صدرها هو قلبي أنا...(عبد الحميد) ذكرياتي أنا...أنا أولى به حتى وإن قرر المقام في القدس التي يكثر من زيارتها فلن أتردد لحظة حتى بعد أن عرفت ما عرفت من مصير القدس!

ثم جاءتها الحيرة الثالثة من (جوزيف) الذي يغريها بأحلام أرض الأحلام لتزدهر مواهبها هناك فتكون عالمة أو فيلسوفة كبيرة و ليست مجرد أنثى تلد و تُربِّى أولادها ثم تموت ويواريها تراب النسيان.

(جوزيف) الآن نفسه في وضع لا يحسد عليه!

بـدا متوتـرًا وهـو يخبرهـا برؤيـا مزعجـة يراهـا هـو أيضًـا كل ليلـة تقريبًـا، لقـد تعلـم ألا يهمـل الأحـلام و الـرؤى:

- أرى (يوسـف) وهـو يخلـع ثيابـي التـي في أمريكا ليعطيهـا لـي، وتبـدأ ملامـح كل واحـد منـا تتبـدل لتعـود إلـى ملامحـه الأصليـة، لكـن يظهـر (سـعيد) فجـأة و ينهـره عـن فعـل ذلـك و يجـذب الثيـاب بعنـف ويلقيهـا فـوق (يوسـف) فتعـود ملامحنـا كمـا كانـت، ثـم يرمينـي (سـعيد) بحفنـة مـن كيماوياتـه فتنشـق الأرض مـن تحتـي لأسـقط بمؤخرتـي فـوق قمـة الهـرم المدببـة و أسـتيقظ لحظتهـا كل مـرة مـن منامـي و أنـا أصـرخ مـن الألـم!

- الرؤيـا لا تحتـاج إلـى تعبيـر، لكنـك كنـت مطمئنًّـا لصـدق (يوسـف) معـك بـل وبدأتمـا في التعـاون سـويًّا.

- أنـا لا أثـق في (سـعيد) هـذا، بالتأكيـد هـو مـن لعـب في مفاتيـح عقـل (يوسـف).

- ومن أدرى (سعيد) بحقيقة ما حدث لك و (ليوسف).

- أنـتِ لـم تتعاملـي مـع (يوسـف) إنـه إنسـان طيـب حـد السـذاجة وإلا لمـا فكـر منـذ البدايـة في أن يعـود إلـى هنـا بعـد نهايـة العـام! لا بـد أنـه سـقط سـقطة في الـكلام مـع (سـعيد)، و سـعيد هـذا ذكـي جـدًّا و طمـوح جـدًّا.

- ولم لا تتصل (بيوسف) وتنهي حيرتك وتوترك.

- بالفعـل اتصلـت بـه، صحيـح أنـه فنَّـد لـي مخـاوفي، لكنـي لسـت

ساذجًا، ليس هذا (يوسف) الذي أعرفه، صوته مختلف ونبراته مرتبكة وكأنه طفلٌ صغير يتهرب من مصيبة فعلها، بل إنه وبدون مناسبة أخذ يحدثني على أن أموالي في الحفظ والصون وأنه مستعد لأن يبدأ في تحويلها من الغد، وهذا الكلام بالذات أكد لي مخاوفي وصدق أحلامي.

صمتت (سالمة) تفكر ثم قالت:

- يجب أن تكون مستعدًّا لكل الاحتمالات، حتى إذا اكتفى فقط بإعادة أموالك إليك فهي ليست بالشيء القليل، وحتى إذا افتقدت حياتك في أمريكا فهذه الأموال الطائلة تستطيع أن تهاجر بها إلى أمريكا أو حتى كندا كمستثمر.

- إلا هذا الاحتمال، لا يمكن أن أرضى بهذا الوجه وذلك الجسد، شكلي وجسدي أهم من أموالي ومن حياتي في أمريكا و من أي شيء آخر.

وفكرت (سالمة)...

من حق (جوزيف) أن يغضب إذا فقد وجهه وجسده اللذان يعشقهما، لكنه غاضب حد الاكتئاب.

وأنا التي يفترض أنها هي الأنثى لم أهتم كثيرًا لذهاب صورتي والتي هي بحمد الله أكثر جمالاً من صورة (سلمى) التي سأكمل بها حياتي إن اخترت البقاء مع (جوزيف)، ولم أهتم كذلك بوضع معيار الشكل في مفاضلتي بين حياة الحاضر و الماضي.

(جوزيف) يريدني أن أستغني عن كل ماضيّ...ويغتم هو لفقد مظهر واحد من حاضره...

(جوزيف) نرجسي بشكل كبير، الشكل والمظهر والإبهار أهم عنده من الجوهر، هذا النرجسي يصعب عليه أن يحب إلا ذاته أو ما يدور معه في الفلك حول ذاته، بل من العسير عليه أن يتنازل عن أن يكون ساحر نساء...

يبدو أن الاختيار أصبح أسهل الآن!

●●●

(٦٢)

- مصيبة يا (يوسف)..مصيبة!

نظر (يوسف) بدهشة إلى (سعيد) وقال:

- ماذا دهاك؟

- psycho chemical weapon!

نظر له (يوسف) في بلاهة و قال:

- ماذا؟

- أعني سلاح كيميائي نفسي...هناك من يعبث في التركيب من وراثي، مجرد إحداث تغيير صغير في أوضاع الجذور الحرة التي في التركيب الكيميائي للعقار، والنتيجة أن العقار ينقلب من علاج لمراكز الإدمان في المخ إلى سلاح كيميائي يدمر مراكز الإدراك في المخ.

- وكيف عرفت ذلك؟

- في البداية نبهتني (نيكول) أنها تشك في وجود فيروس أو حصان طروادة يتجسس على الكمبيوتر عندنا، ثم زادتني وقالت أنها تشعر أن هناك من يتعقب خطواتنا حتى أحيانًا ونحن نتنزه، لم آبه كثيرًا لكلامها فأنا أعرف ما عانته في أيامها الأخيرة وأعرف أنها تعشق أفلام الجاسوسية والمغامرات، ولم يكن

لـدي مـا أخـاف عليـه فمعظـم أسـرار العقـار تعمـدت ألا أدونهـا وإنمـا موجـودة هنـا...

وأشار (سعيد) إلى رأسه، ثم أكمل:

- لكنـي بـدأت أنتبـه لمـا حولـي فلاحظـت أن المعمـل لا يكـون كمـا أتركـه كل يـوم، هنـاك مـن يعبـث بأدواتـي و عيناتـي، بـل وبـدأت ألاحـظ نقصًـا - وإن كان ضئيـلاً - في ميـزان و كميـات العينـات، وبحيلـة بسـيطة لا مجـال لشـرحها لأنـك لسـت متخصصًـا عرفـت أن المتسـلل يجـري تجـارب مختلفـة عمـا أجريـه أنا...هـذا ليـس لـه إلا التفسـير الـذي قلتـه لـك؛ هنـاك مـن يراقبنـا مـن وراء السـتار ويعمـل بشـكل مـوازٍ معـي لتطويـر ذلـك السـلاح.

سكت (يوسف) و بدا عليه التركيز الشديد ثم قال:

- وهـذا يفسـر ذلـك الرجـل الـذي جاءنـي منـذ أيـام ولـم أهتـم بكلامـه وقتهـا كثيرًا.

- أي رجل؟

- رجـل خمسـيني يبـدو عليـه الوقـار الواضـح و الغمـوض و شـدة الأناقـة و يتكلـم بكل ثقـة و قـوة، و طلـب منـي تحديـد موعـد قريـب للنقـاش في شـراء حـق الملكيـة الفكريـة و إنتـاج عقـارك، سـاعتها لـم أهتـم كثيـرًا بكلامـه فأنـت تعـرف أننـا مشـغولون باللمسـات الأخيـرة لإنتـاج الفيلـم.

قال (سعيد) في غضب:

- ولماذا لم تخبرني وقتها يا (يوسف)؟

رد عليه بحدة:

- قلت لك أنني كنت مشغولاً بالفيلم، وشيء طبيعي أن تهتم شركة أو هيئة بشراء عقارك، وها أنت قد عرفت أن هناك من يبحث وراءك، فماذا أنت صانع؟

هدأ (سعيد) وإن بدا عليه التوتر ثم قال:

- لست أدري إن كان المهتم السري بالعقار مخابرات أو هيئة أو منظمة، لكن ما أدريه بكل تأكيد أنني لن أسمح بتحول عقاري من نعمة إلى نقمة، من دواء إلى مخدر أو إلى سلاح سيستعمل أول ما يستعمل ضدنا.

- ولماذا يذهب تفكيرك لهذا؟ لماذا لا يكونون باحثين آخرين من الشركة و يقومون بتجارب تأكيدية على تجاربك؟

- أنت طيب لدرجة كبيرة، و لماذا يُجرونها من ورائي؟ خوفًا على جرح مشاعري مثلاً! وهؤلاء الذين يراقبونني؟ وهذا الذي جاءك مفاوضًا؟ هل يختبرون ولاءنا مثلاً؟

سكت (يوسف) وهو يفكر ثم قال:

- وهل تظن أن أيًّا ممن تخمنهم سيتركونك وشأنك؟ فضلاً عن أن يتركوني أنا أيضًا؟

وساد الصمت المتوتر بينهما لدقائق حتى قال (سعيد):

- اسمع، لقد كانت فكرة سوداء أن زينتُ لك البقاء هنا، لا بد أن نخرج منها بأقل الخسائر و أكبر المكاسب، وأول هذه المكاسب هو الخروج برأسي ورأسك سليمين.

- وعقارك؟ والفيلم الذي شارف على الاكتمال؟ والشِعْرَى الذي قارب على العودة...سامحك الله يا (سعيد).

صاح (سعيد) محتجًّا:

- وما أدراني أن عقاري كان ليجذب حوله القراصنة؟ وهل قرار عودتك أو بقائك كان ليغير من الوضع شيئًا أو ليطرد عنا الجواسيس؟ لا تخلط الأوراق ودعنا نفكر في رويَّة...لا بد من حيلة تجعلنا نخرج بأقل الخسائر!

●●●

(٦٣)

(سلمى) الآن مخطوبة لـ(عبد الحميد)، وسفره إلى الشام والقدس جاء لها كحبل إنقاذ من حيرتها، عليها أن تحسم قرارها فيما بقى لها من أسابيع.

كان سفره أيضًا اختبارًا لحبها أن تفيق منه كما أفاقت من قبل لمَّا سافر (هشام) إلى أمريكا، لكن ذلك لم يحدث و لم يزدها بعده عنها إلا شوقًا إليه، و لا يكاد يمرّ يوم دون أن تُخرِج صورته الزيتية التي رسمها له أحد الرسامين الأجانب المحترفين في الشام و أهداها (عبد الحميد) لها قبل سفره.

إذن فالحب لا يزال عنصرًا في المعادلة، وموافقة (سالمة) العنصر الثاني، والقدس هي العنصر الثالث، وخرج الاختيار بين الماضي والمستقبل تمامًا من المعادلة، فما عادت تحس بالفرق وتساوت عندها مميزات وعيوب الزمنين، بل اعتادت (سلمى) حياتها التي هي فيها وصارت تستمتع بما كانت تضيق به من قبل، حتى بجلسة القرفصاء المؤلمة في أعمال المنزل أو في المرحاض!

لكنها حافظت على رسالتها في تعليم وتثقيف من حولها من فتيات، والتهام ما في مكتبة جدها من كتب، حتى جاء يومٌ فوجئت فيه ب (خضرا) تحضر درسها...لقد أتيتِ في أوانكِ يا (خضرا) فما أحسبك جئتِ إلا برسالة.

وكما توقعت (سلمى) فقد انصرف الجميع بعد الدرس وبقيت (خضرا) في الانتظار، وسكتت (سلمى) تمامًا وكأنها كانت تتوقع بقاء (خضرا) بعد الدرس لتقول لها شيئًا، فبادرتها (خضرا) وقالت:

- هل وصلتِ إلى قرار؟ أم لا زالت الحيرة تأكل قلبك؟

لم تشأ (سلمى) أن تدعي عدم الفهم فقالت:

- المشكلة أن الأمر لا يخصني وحدي، ولو قررت البقاء فلا بد من موافقة جدتي.

- وبافتراض أن جدتك وجدت حياتها في المستقبل ولا تريد أن تعود، فهل سَيَسْهُل بذلك عليكِ الاختيار؟

ردت (سلمى) على الفور:

- بالتأكيد!

ثم سكتت قليلاً و قالت:

- ولكن حكاية القدس هذه تقلقني، صحيح أننا لن نعيش - لا أنا ولا حتى أولادي - حتى نرى النكبة، وربما ألا يقرر (عبد الحميد) الحياة هناك أو أقنعه أنا بالاستقرار الكامل هنا، لكن مجرد القلق ينهشني.

- مع أنه يفترض أن تكون معرفة الإنسان للمستقبل عامل أمانٍ له، وأنه سيعرف أين تكمن العقبات فيتجنبها وأين تكمن المغانم فيغترفها.

- أو يحدث العكس، فيرى العقبات و يسير نحوها رغمًا عنه، ويرى المكاسب ولا يستطيع اغتنامها مهما حاول، ولذلك أوقنت أن معرفة الإنسان لغيبه شيء سيء، لكني لست أدري ماذا أصنع بذلك الجنين الذي دبّ في قلبي.

- وإذا قلت لكِ أن (عبد الحميد) كان جنينًا يومًا ما في قلب (سالمة) وهي بعدُ لا تزال على أعتاب المراهقة؟

- غريبة! لم تخبرني ذاكرة جدتي أي شيء عن ذلك.

- لأنه لم يكن بينهما إلا نظرات خاطفة وابتسامات، وعدا ذلك فهي مشاعر دفنت في حنايا قلبها لمَّا باعدت بينهما الظروف وقتها.

هزَّت (سلمى) رأسها بينما أكملت (خضرا):

- وإذا قلت لكِ أن (جوزيف) يعرض على (سالمة) حبّه والهجرة إلى أمريكا وأنها مترددة لأسبابٍ كثيرة منها ظهور (عبد الحميد) في الصورة مرَّة أخرى؟

تعجبت (سلمى) و قالت:

- أوَعَرِفَت جدتي بحكايتي مع (عبد الحميد)؟

ابتسمت (خضرا) ولم تعلق فقالت (سلمى) في استنكار:

- ومترددة في الهجرة إلى أمريكا؟ و مع شاب مثل (جوزيف)؟

- إذن لو أنتِ مكانها فمن تختارين: (عبد الحميد) والقدس؟ أم (جوزيف) وأمريكا؟

سكتت (سلمى) فقد أصبحت تفهم لغة (خضرا) وما ورائيات كلامها، فكل كلام لها وراءه كلام، وأنها تفتح لها أبواب الاختيار من جديد.

وهنا استدارت (خضرا) لتنصرف، ثم وقفت وقالت:

- بالمناسبة؛ (يوسف) عاد ليتردد في أمر عودته إلى جسده وبلده فأصبحت الخيارات الآن أكثر و أصعب!

●●●

(٦٤)

دخـل (أورهايـون) قبـو فيلتـه حيـث وجـد (داهـار) ينتظـره ووجهـه يتهلل ويشع بالنـار، لكنهـا نـار البِشـر و الفرحـة، ومـا إن رآه (داهـار) حتـى هتـف بـكل إجـلال وهـو ينحنـي بحركـة مسـرحية :

- الأستاذ الأعظم والرئيس المبجل (نسيم أورهايون)!

وكأنه يحيي ملك من ملوك العصور الوسطى.

قهقه (أورهايون) وهو يقول:

- تعجبني خفة ظلك يا (داهار)، ممن اكتسبتها يا عفريت!

رد (داهار) وهو يضحك هو أيضًا:

- هـل تصـدق إذا قلـت لـك أننـي اكتسـبتها مـن المصريـين؟ لقـد كانـت فـترة بنـاء الأهرامـات مـن أجمـل أيـام حياتـي، فبرغـم مـا كابـده العمـال في بنائهـا مـن مشـاق لكـن كانـت تخـرج مـن النكـت منهـم مـا يجعلنـي أسـتلقي علـى قفـاي مـن الضحـك.

- وبالتأكيـد وراء سـرورك هـذا خبـرٌ مفـرح غيـر اسـتعراض مـا عنـدك مـن خفـة ظـل.

رد (داهار) بكل ثقة:

- بالتأكيـد، ولـو كنـتُ إنسـيًّا لطلبـت منـك مليـون دولار ثمـن هـذه البشـارة.

قال (أورهايون) باهتمام:

- ها ؟ هات ما عندك.

- قلادات (حسن) و (برقان) الثلاث...نزلت طاقاتهن كثيرًا.

صاح (أورهايون):

- أتقسم؟

ضحك (داهار) وقال:

- واللات والعزَّى.

ثم دخل في وصلة ضحك و هو يقول:

- عن أي قَسَم تتحدث؟

سكت (أورهايون) ثم قال في اهتمام:

- حانت لحظة الانتقام، الآن تطير بين القلادات، وكل قلادة تصل إليها تخاطرني بوجودك عندها كي أتلو من هنا طلسمها المعادي لها، ليتني أستطيع رؤية وجه البرغواطي وإبنه وقتها.

وفي أقل من ساعة كانت القلادات الثلاث مطفأة!

●●●

(٦٥)

- والعمل يا (برقان)؟ بل كيف انطفأت القلادات أصلاً؟

هزَّ (برقان) رأسه في أسًى وقال:

- ما أعرفه يا شيخ (حسن) أنها لا تطفأ إلا بتلاوة طلسم معادي، وما علمته أن (داهار) كان يطوف حولها في ذلك الوقت.

- إذن فهو (أورهايون) بكل تأكيد.

وهز رأسه في أسًى و هو يقول:

- هل انتهى الأمر على ذلك النحو؟

وفوجئ بصوت والده يأتيه من خلفه و يقول:

- لا لم ينته بعد، لكنه صار أصعب!

التفت (حسن) و (برقان) إلى حيث يقف الشيخ (محمد) وراءهما فأكمل قائلا:

- القلادات يمكن إعادة شحنها بشرطين؛ أن يتراجع من قرر البقاء في وضعه الجديد عن قراره، وأن يذهب بنفسه حاملاً القلادة إلى حيث عُثر عليها أول مرة فتستعيد نشاطها من جديد!

صمت الثلاثة يفكرون ثم قال (حسن):

- كلا الأمرين أصعب من بعضهما، فأن يتراجع من قرر البقاء عن قراره فهذا أمر ليس لنا فيه حيلة، والأصعب مسألة إعادة الشحن

هـذه، لعـل قـلادة الهنـد هـي الحلقـة الأسـهل، بـل و لعـل قـلادة بابـل يمكـن إعـادة شـحنها بكثيـر مـن المغامـرة مـن (يوسـف) أن يسـافر بهـا إلـى هنـاك وهـو في ثوبـه وجسـده الأمريكـي هـذا، لكـن مـاذا عـن (سـالمة) وقـلادة القـدس؟

رد الشيخ (البرغواطي) و قال:

– ولمـاذا تسـافر (سـالمة) إلـى القـدس؟ إن (سـلمى) مالـت إلـى البقـاء في الماضـي أكثـر بكثيـر ممـا مالـت جدتهـا إلـى البقـاء في الحاضـر، فلتسـافر (سـلمى) بهـا إلـى القـدس!

رد (حسن) في دهشة:

– إنهـا لـن تسـافر إلـى القـدس إلا بـأن تقنـع أسـرتها بـأن يسـافروا لزيـارة أهلهـم هنـاك وهـذا شـبه مسـتحيل، أو أن تسـافر زوجـة (لعبـد الحميـد) و هـذا إن حصـل فمعنـاه أنهـا قـررت ألا تعـود.

رد الشيخ (محمد) وهو يهمّ بالانصراف:

– دع الأمر لصاحب الأمر، وادعوا الله أن يلهم كل واحد مـن السـتة بالصـواب في قـراره.

●●●

(٦٦)

- معنى خطتك هذه يا (سعيد) أنك قررت التخلي عن حلمك ومشروعك.

رد بأسًى:

- أتخلَّى عنه مؤقتًا خير لي من أن أتخلى عن مبادئي...لا يمكن أن أسمح لعقاري أن يتحول من نعمة للبشرية إلى نقمة عليها.

- لكن، هل نحن متأكدون من ظنوننا؟ أم أن القصص والأفلام قد شطحت بخيالنا ونظرية المؤامرة التي تعتنقها قد جمحت بتفكيرك؟

- هذه هي مشكلتك يا (يوسف)، لا بد أن يخرق الشيء عينيك حتى تراه بوضوح، إما أن نتصرف الآن وبسرعة قبل أن يدركوا أننا نشعر بنواياهم، وإما أن نصل إلى نقطة كشف الأقنعة واللعب على المكشوف، ووقتها لن نستطيع الفرار من أيديهم.

- ومتأكد من نجاح خطتك؟

- على الله، المهم أن تكون أنت متأكد من قرارك النهائي بالعودة (كيوسف) فالموعد قد اقترب جدًّا.

نظر له بعتاب ثم قال:

- لا تنس أنك أنت من زينت لي البقاء، والآن دعنا نراجع خطتنا، في البداية ستعود أنت إلى مصر بحجة زيارة والدك المريض فعلاً.

- بالضبط، وسأترك كل أوراق مشروعي وأسطواناته وعينات تجاربي هنا كي لا أثير أي شك.

- لكنك بذلك تترك للصقر ما يريد صيده من الحمائم.

- حمام بلا لحم، مجرد جسد بلا روح، روح العقار أحتفظ بها هاهنا...

ووضع أصبعه على عقله الذي أصبح يشير إليه كثيرًا هذه الأيام، ثم أكمل:

- لم أدونها في أي ورقة ولا على أي أسطوانة، أحفظها كما أحفظ سورة الفاتحة، هل رأيت مسلمًا يقرأ الفاتحة من المصحف!

هز (يوسف) رأسه و عقب قائلاً :

- وأنا سأجاري ذلك الرجل الغامض إن جاءني مرة أخرى و بل سأتفق معه على الأمور المادية، فأنا بالنسبة لهم (كجوزيف) لست إلا صائد صفقات و طائر مسافر يكره أن يتقيد بمشروع ثابت على الأرض.

- والأهم أن تفاوضه بصدق، أنا أعلم أنك مفاوض بارع لكنك ممثل رديء.

- أنت لا تترك أي فرصة تنتقدني فيها إلا واقتنصتها.

- هذا والله من خوفي عليك ليس إلا.

- لا تخف، هي أيام و يخرج الفيلم للنور و أسوي أموري المالية مع (جوزيف) ثم أطير بحجة البحث وراء قصة أخرى في بلد آخر.
- وأنا سأنتظر عودتك في مصر...(يوسف) جسدًا وروحًا...

ثم أكمل في أسًى:

- ليتولني الله وليعوضني خيرًا عن حلمي الذي لم يولد بعد، يكفيني أنني قطعت شوطًا كبيرًا في تجاربه، وأتيحت لي الفرصة والإمكانيات لتجريب معادلاته معمليًّا، ومن يدري؟ فلعل الفرصة تأتي مرة ثانية لإنتاجه.

سكت (يوسف) لدقيقة ثم قال:

- ستكون حسن النية كثيرًا إن ظننت أن الأمر سينتهي ويُنسى بمجرد فرارنا.
- على الأقل أكون قد صنعت كل ما بوسعي وأديت ما يخلص ضميري.
- ليس بعد... هناك مهمة أخرى يجب عليك أن تؤديها!

نظر له بدهشة:

- ما هي؟
- يجب أن تأتي معي لبابل في العراق!

رد عليه بدهشة أشد:

- ماذا؟ بابل؟ والعراق؟

- ألست من وسوست لي بالبقاء حتى انطفأت القلادة؟ هل تظن أنني بشكلي الأمريكي هذا أستطيع السفر إلى هناك وحدي؟

ثم أكمل وهو يضحك:

- المهم أن تكون لا زلت تتقن اللهجة العراقية!

●●●

(٦٧)

أيام وليالي لم تذق فيهم (نوف) إلا طعم التفكير، فقدت شهيتها لكل شيء، تشعر وكأنها حجر سابح في الفضاء لا يعرف له هوية ولا يحدد لنفسه اتجاه سباحة.

تفتقد ابنتها...تفتقد ذاتها التي كانت متجسدة أمامها في شخص (نواف)...تفتقد حتى (نواف)، بل تفتقده بشدة!

تبكي كلما نظرت في المرآة فتراه أمامها ينظر إليها، لم تكن تدري أنها تحبه إلى هذه الدرجة...تعشقه لدرجة أنها تتحسس جسده الذي بحوزتها فتقشعر أوصالها وتذوب حنينًا إليه، ثم لا يلبث حنينها إليه أن ينقلب غضبًا عليه وعلى كل الرجال؛ لا يقدِّر أحدهم معنى أن تفنى أنثى في حبه فلا يذوب في كيانها كما تذوب هي في كيانه، وإنما يأبى إلا أن يسكب حُبَّه في عدّة كئوس بجوار كأسها.

لقد أحسنت لي ذراعي يا (نواف)...سلبتني كل شيء بحركة واحدة، تعلم تمامًا أن هرموناتك الفائرة في جسدي لن تصنع مني رجلاً مهما ألحَّت عليَّ وطأتها، ففي كياني أنثى وردية لا يمكن أبدًا أن ترتدي الثوب الأزرق.

تدرك أن (أسيل) بالنسبة لي كمقلة عيني...لا تُستأصل ولا تُستبدل.

لكنـه العنـد يـا (نواف)...لـن أستسـلم بهـذه السـهولة، فأنـت أكثـر ضياعًـا منـي، سـتعود يومًـا مـا بعـد أن تنقطـع بـك السـبل في بـلاد الله، وبعـد أن تيـأس مـن نجـاح ضغطـك عليَّ...إنمـا هـي معركـة عـضّ علـى الأصابـع والخاسـر مـن يبـدأ بالصـراخ!

وغرقت (نوف) وسط أفكارها و دموعها حتى بللت وسادتها...

لا تـدري هـل مـا تـراه الآن هـو منـامٌ يأتيهـا في يقظتهـا؟ أم هـو مشـهدٌ حقيقـي يتجسـد لهـا في منامها!

هـي بـين بين...لكن مـا تـراه الآن واضـحٌ وجلـيٌّ كأكثـر لحظـات حياتهـا وضوحًا.

تـراه يدخـل عليهـا غرفتهـا، ملامحـه واضحـة تمامًـا رغـم أنهـا لـم تـره مـن قبـل، تسـمع صوتـه في أذنيهـا و هـو يقـول لهـا:

- السلام على من اتبع الهدى و العقل.

اعتدلـت (نـوف) في جلسـتها علـى سـريرها بعـد أن كانـت ممـددة عليـه و قالـت:

- من أنت؟

- أنا (محمد البرغواطي) يا ابنتي!

صرخت في دهشة و ذعر:

- من؟ وكيف أتيت إلى هنا؟

- جاء بي من أتى بكِ إلى هذا البلد وذلك الجسد.

نظرت له بغضب و قالت:

- ما حلَّ بي من هذه المصائب إنما هو بسببك و بسبب ابنك وعفريتك.

- وهذه التي تسمينها مصيبة هي ما تريدين البقاء فيها وتمتنعين عن العودة منها.

اندهشت قليلاً و قالت:

- وهذه أيضًا تعرفها؟

لم يردّ البرغواطي فأكملت (نوف):

- وأتيت كي تساعد (نواف)؟ أم لكي تنقذ قلائدك؟

- بل جئت لِكَي أسألك بضعة أسئلة، والأمر إليكِ بعدها فانظري ماذا تختارين.

نظرت له (نوف) مستفهمة فقال:

- لو استسلم (نواف) و التمَّ شملك معه ومع (أسيل)، فمن منكما أبوها ومن أمها ؟

صمتت (نوف) ثم قالت:

- هي بين أبويها على كل حال.

- فما بال إخوتها؟

دهشت و قالت:

- إخوتها؟ أين هم إخوتها؟

- أجيبي أنتِ على سؤالك؟ أين إخوة (أسيل)؟ ألا تشتاقين إليهم؟

فطنت (نوف) لمقصد الشيخ من سؤاله فسكتت ونزلت دمعة خفيفة من عينها وثم تفاجأت بالشيخ يمدّ يده إلى غطاء سريرها الذي يغطيها ويرفعه بحركة مفاجئة فانكشف عن ساقيها، فانتفضت (نوف) وهي تصرخ:

- هل جننت؟

فأجابها بهدوء:

- مما تخجل يا سيد (نواف)؟ ألست رجلاً مثلي؟

طأطأت (نوف) رأسها ثم رفعتها و الدموع تملأ عينيها وقالت:

- وهل يرضيك ما يصنعه معي يا شيخ؟ هل يرضيك طمعه؟ لقد ذُبنا في بعضنا كالسمن السائل في العسل، فأبى إلا أن يجرحني بل ويطلب مني أن أراضي ضُرَّتي و أحتفظ له بها حتى يعود إليها.

- هل أسألك سؤالاً محرجًا بعض الشيء؟

- تفضل.

- مـاذا كانـت نظرتـك (لكوليـت) عندمـا اختليتـي بهـا؟ بـل كـم مـرة اغتسـلتي هـذا الأسـبوع؟

احمرَّ وجه (نوف) بشدة ثم قالت:

- أنا لم أقصر معه في شيء.

- ومـن اتهمـكِ بالتقصيـر؟ ولكـن لمـاذا تنظريـن إلـى الرجـال نظرتـك إلـى النسـاء؟ (كوليـت) برغـم أنهـا ضُرَّتـك ولكـن انظـري كيـف اشـتهيتها لمَّـا صِرتـي رجـلاً...آدم غيـر حـواء يـا (نـوف).

- تقول ذلك لأنك رجلٌ مثله.

- أتدريـن شـيئًا؟ أنـا لـم أعـرف في حياتـي غيـر (أم حسـن)، لكـن هـذا التوحيـد ليـس هـو الأصـل بـين الرجـال، فـالله لـم يخلـق كل الرجـال علـى غـدد رجـلٍ واحـد ، و قـلَّ بـين الرجـال مـن لا يعـرف إلا زوجتـه ولا يـرى غيرهـا، وصدقينـي حتـى العصفوريـن في القفـص تقـوم بينهمـا المشـاكل أحيانًـا، وتأكـدي أن كأس الدنيـا لايخلـو أبـدًا مـن شـوائب في شـرابه ورواسـب في قعـره، فانظـري إلـى الجـزء المملـوء مـن كأسـك بـدلاً مـن أن تكسـريه.

سكتت (نوف) وأطرقت رأسها وهي تقول:

- وماذا أصنع الآن يا شيخ (محمد)؟

- القـلادة لا تـزال في يدك، والشِعْرَى لـم يعـد بعـد، وهـاتفـك لا يـزال في جيبـك.

وتناولـت (نـوف) القـلادة في يدهـا وأمسـكتها بقـوة، ثـم أغمضـت عينهـا لثـوانٍ لتمنـع دموعهـا مـن النـزول ثـم قالـت وهـي تفتـح عينيهـا:

- ولكن يا شيخ (محمد)...شيخ (محمد) أين أنت ؟

ولـم تجـد (نـوف) أحدًا أمامهـا، وأفاقـت مـن حضرتهـا، فلـم تـدرِ هـل كانـت تـرى مـا تـراه في منامهـا أم في صحوهـا؟ إنهـا لا تشـعر أنهـا كانـت نائمـة بـل وجـدت نفسـها متكئـة علـى ظهـر سـريرها.

هـل كانـت تهيـؤات أحـلام يقظـة؟ لا ...إنهـا تمسـك القـلادة في يدهـا وطـرف غطـاء فراشـها مكشـوف عـن سـاقيها.

وهبـت مـن فراشـها و أسـرعت تبحـث في غرفتهـا؛ النافـذة موصـدة والبـاب مغلـق بالمفتـاح مـن الداخـل كمـا اعتـادت أن تفعـل كلمـا سـافر (نواف)...إنهـا لا تشـعر بالأمـان إلا مـن حـرارة أنفاسـه تدفـئ وجنتيهـا.

وتركـت دموعهـا تهطـل غزيـرة هـذه المـرة، وأسـرعت إلـى هاتفهـا تتصـل (بنـواف)، ورد عليهـا في أقـل مـن ثانيـة و كأنـه كان يتوقـع اتصالهـا، وقبـل أن تقـول هـي أي شـيء بادرهـا قائـلاً:

- لقد كان معي أنا أيضًا يا (نوف)!

وغرقا سويًّا في وصلة طويلة من بكاء الحنين و نحيب الشوق!

●●●

(٦٨)

- دائمًا ما تأتين في الوقت الذي أحتاجك فيه يا سيدة (خضرا).

- ها...هل وصلتِي إلى قرار؟

- كما قلتِ لي سابقًا، فالقلب الذي دق (لعبد الحميد) هو قلب جدتي، منذ أخبرتني ذلك وأنا أراه جدي بقدر ما أراه حبيبي، و (عبد الحميد) إنما أعجب وتقدم للزواج من (سالمة)، إنها الأقدار وقد جعلت لكل منهما نصيبًا في الآخر.

- قلت لكِ سابقًا أنك الآن تختارين بإرادتك الحرة و...

قاطعتها (سلمى) وقالت:

- أعرف ذلك، لكنه حاجز نفسي تولد عندي قبل كل شيء، كما أنني إن بقيت هنا فأنا ألغي بذلك كياني (كسلمى) وأذوب في قالب جدتي حتى وإن أصبحت الحياة هنا تروقني أكثر من المستقبل، لكن لا مناص للإنسان من أن يعيش أقداره وأيامه هو...

وسكتت قليلاً ثم استطردت:

- لكني سأعيشها من الآن فصاعدًا بعقلٍ ونظرةٍ مختلفين.

- بالمناسبة؛ (سالمة) و (جوزيف) اتفقا أخيرًا أن زواجهما ضرب من الجنون.

قالت (سلمى) بدهشة:

- كيف تعرفين هذه الأخبار يا (خضرا)؟

ابتسمت (خضرا) و سكتت ألا تعليق، فأكملت (سلمى):

- أنتِ غويطة جداً...لم تخبريني بذلك إلا بعد أن أخبرتك قراري كي لا تؤثري عليه، و لكن صدقيني فأنا لم أقرر العودة رغبة في (جوزيف)، إنني الآن أشعر بانعدام وزن، لا أجد نفسي لا معه ولا مع (عبد الحميد)، و لكني أريد مساعدتك.

- و كيف أساعدك؟

- أنا الآن مخطوبة (لعبد الحميد)، وربما يقرر الأهل إتمام الزواج قبل عودة الشِعْرَى، وأريد أن أعرف منكِ جوابًا نهائيًّا من جدتي في هذا الزواج، هل أتممه أم أفسخه؟

ردت (خضرا) في استنكار:

- هل ستتزوجين (عبد الحميد) و تمنحيه جسد جدتكِ و أنتِ فيه؟ أم ستتمنعين عنه حتى تعود (سالمة)؟

- لا هذا ولا ذاك! أنا لدي خطتي لكنها متوقفة على قرار جدتي...وعلى رحلة إلى القدس لا بد منها...وكل ذلك قبل أن يعود ذلك الشِعْرَى.

●●●

(٦٩)

- لا داعي لكل هذا القلق يا (جوزيف)، العقدة الأصعب في رجوعك تمَّ حلها، و (يوسف) أخبرك أنه سيعود لأصله و لن يبق مكانك، بل واعترف لك صراحة أنه فكر بالفعل في عدم العودة، لكن أمورًا أقوى دفعته لصرف النظر تمامًا عن ذلك .

رد عليها والهم يكسو ملامحه:

- بل كانت هذه هي الحلقة الأضعف (فيوسف) بطبعه ليس مغامرًا ليقرر تغيير حياته للأبد ويبقى في جسد (جوزيف)، كان سيتراجع وقت الجد ويخاف من ذلك التغيير الذي بلا عودة، ولكن بقيت الحلقة الأقوى؛ مسألة تنشيط القلادة يا (سالمة)...أن يذهب (يوسف) إلى العراق وهو في هذا الثوب الأمريكي لهي مغامرة منه، وأكاد أجزم أن (يوسف) الآن يفاضل بين المغامرتين - أن يظل (كجوزيف) بقية عمره أو السفر إلى بابل - وبالتأكيد سيختار أهونهما على طبيعته المستكينة غير المغامرة.

نظرت له متأملة ثم قالت:

- ألهذه الدرجة تشفق من فكرة أن تفقد ذاتك الأولى؟ ماذا ستفعل حين تشيخ و تفقد جمالك وشباب جسدك ولا أريد أن أقول إن أصابك حادث أو مرض لا قدر الله.

رد عليها بكل ثقة:

- في حالة الشيخوخة سأكون قد عشت في حياتي كل ما كنت أتمناه حتى الثمالة و الشبع منها، ثم أعيش ما في فترة الشيخوخة من جمال، فالشيخوخة لا تخلو من مميزات، أما في حالة المرض أو الحادث « لا قدر الله»

وأشار مبتسمًا بأصابع يديه علامة ما بين قوسين وهو يكمل:

- فأنا أفضل الموت على أن أعيش عاجزًا أو مُشَوهًا!

دهشت (سالمة) من كلامه و قالت:

- يااااه، ألهذه الدرجة تعشق ذاتك يا (جوزيف)؟

- ليس عشقًا للذات يا (سالمة) و لكنها حياة واحدة، فإما أن أعيشها كما ينبغي أو لا داعي لهذه الحياة أصلاً.

ابتسمت (سالمة) و قالت:

- إذن فهذا العام كان وقتًا مستقطعًا من حياتك كأنك دخلت في غيبوبة توشك أن تفيق منها.

- بالعكس...لقد تعلمت الكثير هذا العام، ورأيت من المعاني في الحياة ما لم أكن أراه، وجدت الله الذي كنت أبحث عنه، وأقنعتيني أنتِ أنَّ لله يدٌ في الأرض ورسائل أرسلها لنا، وسيكون هدفي في المرحلة المقبلة أن أفتش في هذه الرسائل حتى أصل إلى الرسالة التي تقنعني منهن.

وسكتا للحظات ثم قال هو:

- وأنتِ يا (سالمة)؟ هل هذا هو قرارك النهائي؟

ابتسمت و قالت:

- كما قلت لك، فإن رؤياي عن (سلمى) و (عبد الحميد) قد تغيرت في منامي، وصرت أرى أنني أنا التي تسقط من السماء بين ذراعي (عبد الحميد)...ولكن كما أخطرني (برقان) فإن عودتي متوقفة على نجاح (سلمى) في إعادة حفز القلادة في بيت المقدس.

هزّ رأسه في أسًى و قال:

- خسارة يا (سالمة)، أنتِ أكثر ما سأفتقده بقية حياتي، والخسارة الأكبر أن تدفني أنتِ مواهبك وعبقريتك في رعاية زوج وإرضاع أطفال.

- سيكون الأمر مختلفًا جدًّا هذه المرة، لن أرضعهم حليبًا فحسب، لقد رأيت وتعلمت بل ورضعت الكثير من حضارتكم هذه السنة، لكن أرضنا أخصب من أرضكم، تخيل لو زرعنا بذوركم الجديدة في أرضنا؟ سيكون نباتنا أفضل وأعظم فائدة بكثير، سأرضع أبنائي - بل وأبناء من حولي - بذور النور ليزرعوها حين يكبروا في الأرض الطيبة ليخرج نباتها حسنًا خاليًا من تشوهات عصركم.

ابتسم (جوزيف) وقال:

- ألن ترضعيهم كراهيتنا ورفض ما عندنا؟

ابتسمت بدورها وقالت:

- المهم أن تتركونا أنتم لنزرع نباتًا مختلفًا عن زرعكم.

- أتدرين ما أتمناه الآن يا (سالمة)؟ أتمناه بكل صدق وبغير أن تفهمي ما يريبك مني؟

- ماذا؟

قال وعيناه تنضحان بنظرات الصدق بينما يغالب دمعه أن يهطل:

- أتمنى أن أحتضنك ولو لمرة واحدة قبل أن تذهبي عني إلى الأبد!

ابتسمت (سالمة) ونظرت إلى الأرض ثم رفعت عينيها وقالت:

- أن تعرف أن ذلك لا يمكن حتى وإن كان حضنًا بريئًا بلا ريبة، بل وحتى إن كنت أتمناه أنا أيضًا! ولكن هناك حل!

نظر إليها متسائلاً فقالت:

- سنغمض أعيننا معًا ونتخيل ذلك، على أن تقسم لي أنك لن تراني في خيالك إلا حضنًا بريئًا كأنني أمك.

- أقسم لكِ بالله على ذلك يا...أمي!

وأغمضا أعينهما سويًا، و سمح لدموعه أن تنزل بغير حساب.

(٧٠)

برجاء ربط أحزمة المقاعد، اقتربت طائرتنا من الهبوط في مطار (أحمد آباد).

مالت (نوف) برأسها على كتف (نواف) وقالت:

– لماذا أصريت على أن نسافر من الرياض إلى جدة ومنها إلى أحمد آباد، رغم وجود طيران مباشر لها من دبي؟

– أحببت أن نبدأ رحلة عودتنا من نفس نقطة التحول الأول، بل ولم أرد أن تكون فترة دبي سوى وقتًا مستقطعًا من حياتنا.

ابتسمت وقالت:

– وكم تحب أن نمكث بعد تحولنا؟

غمز لها بعينه وقال:

– أطول مدة ممكنة...أريد أن نعوض حرمان العام كله.

ابتسمت في حياء وهي تنظر إلى الأرض ثم رفعت رأسها إليه وقالت:

– أما اشتقت إلى بيروت؟

قال (نواف) محذرًا:

– (نوف)...هل بدأنا؟

- هذه المرة فهمتني خطأ، أنا فقط أسأل حتى أستغل أيام غيابك في تجهيز معرضي في الرياض.

وضحكا سويًّا و عجلات الطائرة تحتك بمدرج أرض المطار.

●●●

(٧١)

كان يفترض بي أن أطلب من (جوزيف) نسبة أكبر من ١٠٪ من أرباح الفيلم.

قال (يوسف) لنفسه وهو يبتسم في غبطة...

أفكار الفيلم أساسًا لم تكن لتأتيه لولا أن حلَّ مكاني وفي بيتي وفي حارتي.

وخبراء شركة بيكسار يتوقعون نجاحًا باهرًا للفيلم...ستصبح من أصحاب الملايين يا (يوسف)!

ولكن – و يا للورطة – فإن حفل الافتتاح في غضون أيام قليلة، لقد حزن (جوزيف) لذلك كثيرًا فقد كان يتمنى الحضور هو، ولكن مسئولو الشركة لم يجدوا أي مبرر لطلبي منهم تأجيل الحفل لأسبوعين، اليوم الواحد سيساوي ملايين، و عودة الشِعْرَى لن تكون مبرِّرًا وجيهًا عندهم للتأجيل، وإنما ستكون دليلاً يؤكد أن قصة الفيلم قد أثرت على عقل (جوزيف)!

حزن (جو) بينما ارتبكت أنا...فمطلوب مني إلقاء كلمة في الحفل بعد عرض الفيلم.

الأرباح المنتظرة والنجاح المتوقع قد واسيا (جوزيف) عن حضور الحفل لدرجة أنه تحمس وقال لي أنه سيكتب هذه الكلمة ويرسلها إليَّ لكي ألقيها.

في البداية تنفست الصعداء لخروجي من هذه الورطة، لكني بعد ذلك فكرت؛ الفيلم و الحارة وأبطالهما من حياتي أنا...الفيلم أقرب إليَّ بكثير من (جوزيف).

وهكذا وجدتني أعدّ هذه الكلمة بنفسي...برؤيتي وفلسفتي أنا.

بينما (نيكول) مشغولة تمامًا في إعدادات هذا الحفل...

اختارت بدلتي، واتفقت لي مع مركز التجميل الذي سيعدني في أبهى صورة لليلة الاحتفال، واتفقت مع مصور له سمعته على جلسة تصوير لنشر هذه الصور على المجلات و صفحات تواصلي الاجتماعي.

الحماس الذي عندها والفرحة التي تشرق في عينيها لا يكونان من مجرد صديقة!

إنها لا تملّ من تكرار البروفات لكلمتي في الحفل عدة مرات يوميًّا، وحمدت الله أن الكلمة نالت إعجابها و إن كانت قد استغربتها:

- من أين لك بهذا الكلام يا (جو)؟

ويوم الحفل كانت معي - منذ الصباح - خطوة بخطوة، وفي قاعة الاحتفال تلمع عيناها بدموع الفرح الصادق، وفي أثناء العرض تلتفت إليَّ في كل مشهد لتنقل لي بتعبيرات وجهها تفاعلها مع المشهد.

وانتهى عرض الفيلم إيذانًا بأن تضج القاعة بالتصفيق، وإيذانًا لدموع الفرح أن تهطل أخيرًا من عينيها، وإيذانًا لي بأن ألقي كلمتي والتي لا أعرف كيف سألقيها في حين أن قلبي يصم أذناي من قوة دقاته.

لا أذكر كيف قلت كلمات الديباجة الأولى المعتادة والمليئة بالشكر لهذا والترحيب بذاك، و لكني أذكر جيدًا أنني ألقيت الكلمة نفسها في ثبات وثقة:

- الطفل الصغير لا يهتم أبدًا بالنظر إلى نفسه في المرآة، لكنه عندما يبلغ المراهقة يهتم بمراقبة التغيرات التي تطرأ عليه، وفي شبابه الجميل يكثر من النظر في مرآته بزهو وإعجاب، ثم في منتصف عمره تتحول نظرة الإعجاب إلى قلق وهو يراقب ظهور تجعيدة هنا أو نبات شعرة بيضاء هناك، أما حين يهرم فإنه يعود كما كان طفلاً...لا يهتم بوجود المرآة!

عندما كنت صبيًّا صغيرًا و كان والدي يصحبني إلى مدينة الملاهي كنت أحب دخول بيت المرايا لأضحك على الصور المضحكة التي تظهرني بها، لكني اليوم و أنا أتجهز للحفل ذهبت إلى مركز تجميل لديه مرآة بلجيكي فاخرة مزودة بإضاءة قوية تظهر أدق التفاصيل.

لكن لماذا اعتبرت مرآة اليوم أصدق من مرآة الملاهي؟

ولماذا يهتم الشاب و الفتاة بالنظر إلى المرآة ولا يهتم الطفل ولا العجوز؟

هل لأننا نهتم بنظرة الناس إلينا؟ لكن ماذا لو كانت نظرة الناس كلهم خاطئة؟ وعقولهم تخدعهم؟ و كانت مرآة الملاهي – مثلاً – هي الصادقة؟

هـل لـو كانـت أجسـامنا نحـن البشـر في الحقيقـة كمـا نراهـا في مـرآة الملاهـي؟ هـل كنـا سـنضحك عليهـا؟ أم سـنعتبر أن هـذا هـو الشـكل الطبيعـي لأي إنسـان؟ وهـل إذا جاءنـا وقتهـا مـن الفضـاء إنسـان علـى شـكلنا الحالـي، هـل سـنضحك علـى شـكله؟ أم سـنتمنَّى أن نكـون مثلـه؟

مـا هـو المقيـاس إذن؟ هـل هنـاك نمـوذج أعلـى للجمـال و الكمـال؟ أم أن مقاييسـنا النسـبية هـي الفيصـل؟

أحيانًـا يكـون مـا تـراه أنـت جميـلاً يـراه غيـرك قبيحًـا، ومـا تـراه مضحـكًا قـد يبكـي عليـه غيـرك بحرقـة.

الفرعـون و الشـاب الأوروبـي و الأميـر الذيـن ضحكنـا علـى تصرفاتهـم و ردود أفعالهـم في الفيلـم، لـو كانـوا لـم يولـدوا إلا في حـارة الفيلـم و في زمانهـا الحالـي، كيـف سـتكون أحوالهـم و تصرفاتهـم؟

هـل يمكنـك أن تحكـم علـى تجربـة إنسـانية بغيـر أن تعيـش نفـس ظروفهـا؟ هـل يمكنـك أن تـدرك مقـدار مـا أنـت فيـه مـن تقـدم أو تأخـر بغيـر أن تقيـس نفسـك بغيـرك؟

مـاذا لـو جـاء أحفـاد أحفادنـا بمفاهيـم جديـدة و شـاهدوا هـذا الفيلـم فاعتبـروا أن مـا عنـد أهـل هـذه الحـارة مـن دفء إنسـاني واجتماعـي أهـم مـن أي تقـدم تكنولوجـي أو ثـراء مـادي؟ مـاذا لـو اعتبروهـم بالتالـي أرقـى منـا ؟

أين هو إذن المقياس الحقيقي و المطلق للتقدم؟

يقولـون أن مقيـاس أصالـة الفـن هـو قدرتـه علـى الخلـود عبـر الأجيـال باختـلاف أذواقهـم، فمـا هـو المقيـاس إذن في أي تقـدم آخـر؟

هـل يمكننـا أن نجـد هـذا المقيـاس الحقيقـي و هـذه المرآة الحقيقيـة؟ أم سـيأتي علينـا يـومٌ نشـيخ فيـه فـلا نهتـم للنظـر إلـى أي مـرآة!

وانتهت بذلك كلمتي...

وخيـم الصمـت علـى الحضـور لثـوانٍ قبـل أن يهبـوا واقفـين في عاصفـة مـن التصفيـق!

●●●

(٧٢)

- لقد غيرت الكلمة التي أرسلتها إليك تمامًا يا (يوسف)؟

- وهل أعجبتك يا (جو)؟

- جدًّا!، أنا لم أكن لأكتب مثلها، لكن المشكلة أنها حولت الفيلم من كوميدي إلى تراجيدي بل قل فلسفي.

ضحك (يوسف) و قال:

- هذا في حفل الافتتاح فقط، لكن العروض الجماهيرية ستخلو من هذه الكلمة بكل تأكيد.

ابتسم (جوزيف) و قال:

- أتدري؟ لو فاز هذا الفيلم بأي جائزة كبرى أو حتى بالأوسكار فسأعمل على أن يُلقي من يتسلم الجائزة نفس هذه الكلمة، إن لم أكن أنا الذي سألقيها.

- وهل ستدعوني أنا و (سعيد) لحضور ذلك الحفل؟

- سأدعوك أنت أما (سعيد) فلا أظن.

قهقه (يوسف) و قال:

- أعتقد أن غضبك منه سيزول عندما تعرف أنه سيسافر معي إلى بابل لإعادة تنشيط القلادة.

استغرب (جوزيف) وقال:

- ولماذا يسافر معك؟

- تخيل أنت؛ أمريكي أشقر يتجول في بابل بحثًا عن مغارة هاروت وماروت، بالتأكيد سيكون الوضع آأمن لو كان بصحبته شاب عربي يتكلم اللهجة العراقية بطلاقة.

- وهل وافق (سعيد) على هذه المخاطرة؟

- هذا أقل شيء يرد به الجميل لي و لك - على حد تعبيره - وإن كان عقاره لم يظهر للنور بعد.

- في هذه الحالة سأدعوه بل و سأدعو كل أسرته و أحبابه.

ضحك (يوسف) ثم قال:

- أتمنَّى وقتها أن نرى (نيكول) معك ولكن ليس كسكرتيرة أو كصديقة، صدقني يا (جو) هذه فتاة من ذهب.

- بالتأكيد أن رحلة ذلك العام قد غيرت كثيرًا من تفكيري و مفاهيمي.

ثم ضحك (جوزيف) و قال:

- وإذا قلدنا أفلامكم في مصر فإن النهاية السعيدة هي أن تتزوج أنت من (سلمى) و (سعيد) من أختك (سارة).

- قد تحدث الثانية، أما الأولى فهي صعبة، سيكون قلب (سلمى) مثخنًا بالآلام و عقلها في حالة عدم اتزان وستكون في حاجة لبعض الوقت حتى تحدد لها هوية.

- بالمناسبة؛ لا بد أن نلتقي في أقرب فرصة بعد عودتنا.

ضحك (يوسف) وقال:

- في أقرب حفل زواج من هذه الحفلات.

●●●

(٧٣)

- ما هو ذلك الطلب المُلِحّ يا (سالمة) والذي يجب أن تخبريني إياه بنفسك وعلى انفراد؟ لو علم أبوكِ أننا تقابلنا هنا وحدنا لفسخ الخطبة.
- ماذا أصنع يا (عبد الحميد) ؟ نحن لا نجلس سويًّا وحدنا أبدًا عندما تأتي لزيارتنا، فلم يكن أمامي سوى تلك الحيلة، والبركة في (منيرة) وفي الذئب الذي جمعنا أول مرة.

ابتسم (عبد الحميد) و قال:

- قولي ما عندك إذن قبل أن يلحظنا أحد الثعالب فيخبر أباكِ.
- (عبد الحميد)؛ أنا أريد أن يعقد زواجنا في المسجد الأقصى!
- ماذا؟ ولم ذلك؟
- أنت تقول أنك جهزت بيت عائلتكم القديم الذي في القدس وأننا سنسافر إليه بعد زواجنا هنا في رشيد وتكون حياتنا بين المدينتين، و أنا أحب أن أبدأ حياتي معك من هناك وأن نأخذ بركة الحرم القدسي في عقد زواجنا فيه، وطالما في كلتا الحالتين سنسافر، فما المانع إذن ؟
- المشكلة أنه في هذه الحالة لا بد أن يسافر أهلك معكِ للقدس لعقد ذلك الزواج، ومشكلة العُرس أيضًا، هل سنقيم حفله هنا قبل عقد زواجنا؟

– وما المانع أن نقيم عرسنا هنا بدون عقد، ثم نسافر بعده مباشرة إلى القدس ومعه من تيسر حضورهم من أهلي وأهلك؟ و صدقني لو علم أبي أن هذه رغبتك وأنني أوافق عليها فسيحب أن يحج إلى الأقصى كما حجّ من قبل إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي.

سكت (عبد الحميد) يفكر ثم قال:

– وأنا من كنت أظنك ستحاولين إقناعي بعدم جدوى إصلاح ذلك البيت هناك والاكتفاء ببيت رشيد خصوصًا وأن ليس لي تجارة هناك.

– بل خير ما صنعت هو إصلاح وتزيين ذلك البيت، وسواء احتفظت به بعد ذلك أو وهبته لأحدٍ من أهلنا هناك، فما أجمل أن نبدأ حياتنا ببركة هذه المدينة...إذا كنت تحبني بصدق يا (عبد الحميد) فاسع لذلك بكل ما في وسعك.

– ومتى تحبين أن يكون ذلك؟

ابتسمت في فرح وقالت:

– في أسرع وقتٍ ممكن.

ثم قالت في نفسها:

– قبل أن يعود الشِعْرَى.

●●●

(٧٤)

كانت رحلة (يوسف) و (سعيد) إلى بابل ومغارتها أسهل بكثير مما تخيلا، فقط كان على (يوسف) أن يخرج لسانه العربي ويحاول - قدر ما أسعفته المسلسلات المدبلجة التي تواظب أمه على مشاهدتها - أن يجعل لكنته شامية.

وجود (سعيد) معه كان قرارًا صائبًا تمامًا...

ذلك الوغد لا يزال يتقن اللهجة العراقية برغم مرور كل تلك السنوات...

قال (يوسف) لنفسه.

أتمَّا مُهِمَّتِهِمَا وغادرا المغارة وبابل والعراق كلها في أسرع وقت، لم تتبق سوى أيام قلائل ويعود الشِعْرَى ولا بد أن يكون (يوسف) وقتها في سياتل كي يتسلم (جوزيف) شقته وأمواله وحياته...و (نيكول)!

ولكن قبل أن يتم ذلك فلا بأس من الترويح والسياحة لعدة أيام بعد ذلك العام الطويل، ولا بأس أن يكافئ صديقه (سعيد) ويحاول تعويضه عن حلمه الذي تجمد مرة أخرى، هي بضعة أيام يقضونها في (إسطنبول) قبل أن يعود (يوسف) إلى سياتل وييمِّم (سعيد) وجهه شطر القاهرة ليقابل (يوسف) من جديد ولكن في ثوبه الأصلي.

هما الآن في حضرة مسجد (سلطان أيوب) و ساحته المزدحمة، ومنه استقلاَّ التلفريك إلى قمة التل المطل على خليج القرن الذهبي.

جلسا على أحد الموائد البسيطة في مقهى (بيير لوتي) القابع في جمال فوق تلك التلة، ولا يملكان سوى الصمت المستكين في حضرة تلك الإطلالة الرائعة لذلك المقهى على خليج القرن الذهبي، منظر قد تنسى معه أن تتنفس، ولا يريدان للوقت أن يمر، حتى ذلك الرجل الذي ينتظران حضوره في موعدٍ ضربوه بينهم؛ يتمنيان أن يتأخر عن موعده...

رجل عربي يصعب أن تحدد لهجته بالضبط ، اتصل (بيوسف) على محموله وقال أنه من طرف (حسن البرغواطي) وأن لديه ما يقوله بخصوص اختراع (سعيد)...لو قال لهما أي اسمٍ آخر لفرًّا منه ومن إسطنبول كلها، وقطع عليهما حبل الصمت الجميل:

- السلام عليكم، (سامر كتبي) الذي هاتفتكم بالأمس.

وبعد السلامات والتحيات والتعارفات قال (سعيد):

- لهجتك غريبة يا أستاذ (سامر)، من أي البلاد أنت؟

ابتسم (سامر) وقال:

- أنا سوري الأصل وتربيت في السعودية ومعي جواز سفر سوداني وزوجتي الحالية تونسية و أقيم حاليًا بين تركيا ومصر.

ضحكوا جميعًا ثم قال (سامر):

- والأخ (يوسف) أيضًا، ملامحه أوروبية يندر أن تجدها في مصر؟

نظر (يوسف) و (سعيد) إلى بعضهما ثم قال (سعيد):

- ماذا أخبرك عنا الشيخ (حسن) بالضبط؟ وهل تعرفه جيدًا؟

قال (سامر):

- الشيخ (حسن) له فضل كبير عليَّ إذ عالجني منذ سنة تقريبًا من « أمرٍ ما »

أشار بأصابع يديه ما بين قوسين ثم أكمل:

- ولم يتقاض مني فلسًا واحدًا، ومن يومها والود بيننا متصل، حتى هاتفني منذ فترة وذكر لي اختراع الأخ (سعيد) وأنه يبحث عن تمويل لصناعته، هو يعلم أنني رجل أعمال متنوع الأنشطة ومتشعب العلاقات جدًّا، وطلب مني دراسة هذا المشروع الذي يعتقد أنه سيكون ناجحًا.

نظر (سعيد) إلى (يوسف) ثم أخذ يشرح (لسامر) تفاصيل مشروعه حتى استوقفه (سامر) في النهاية وقال:

- ولكني لم أفهم؛ طالما كنت تجري تجاربك في معامل تلك الشركة الأمريكية، فلماذا تركتهم فجأة؟

تردد (سعيد) قبل أن يقول:

- لا أدري إن كان صوابًا أن أصارحك برغم أن معرفتنا ببعضنا ما زالت حديثة، لكني أشعر بالثقة بك.

ثم أخذ يشرح له قصة التجسس على حاسبه و العينات التي يُعبث بها و الشخص الغامض الذي حاول مفاوضة (جوزيف) حول العقار وخوفه من تحويل العقار إلى ذلك المخدر الكيميائي النفسي، وأشار له إلى بعض مخاوفهم من وجود منظمات أو مخابرات تلاحقهم.

هنا ابتسم (سامر) ثم قال:

- ولماذا لم يخطر ببالك أن يكون ذلك التجسس من شركة منافسة؟
- رد (سعيد) باستغراب:
- ماذا؟
- كل الشركات – وبالذات شركات العقاقير و الأدوية والكيماويات – تقتات على التجسس على بعضها البعض، وكثير من الباحثين العاملين في هذه الشركات يكونون جواسيس لشركات منافسة، يزودونهم بآخر الأسرار والمكتشفات، وبالتأكيد كانوا يعبثون وراء تجاربك ويتجسسون على حاسبك الآلي كي يقتنصوا منها أسرارك قبل نجاح تجاربك وقبل تسجيل حقوق ملكية عقارك...حسنًا فعلت أنك احتفظت بأسرارك

في عقلك، وغالبًا فإن من جاء ليفاوض السيد (جوزيف) هو مدير في إحدى تلك الشركات جاء ليشتري منه حق إنتاج العقار.

قال (سعيد):

- لكنه لم يفصح عن ذلك (لجوزيف) وتكلم معه بطريقة غامضة أثارت ريبته.

رد (سامر):

- وهل كنت تريد منه أن يأتي ليقول؛ مرحبًا أنا مدير شركة كذا التي تجسست على اختراعكم وأريد اقتناصه منكم!

نظر (سعيد) إلى (يوسف) في حسرة، في حين لم يتمالك (يوسف) نفسه فانفجر في موجة من الضحك حتى كاد أن يقع من على كرسيه، ثم قال (لسعيد):

- درس قاسٍ لك يطهر عقلك من نظرية المؤامرة التي تراها في كل ما حولك.

ابتسم (سامر) ثم قال:

- لكن هناك شيء لم أفهمه؟ من هو (جوزيف) وما هو علاقته (بيوسف)؟ و كيف وصلتم إليه؟

هدأ ضحك (يوسف) وإن لم يتوقف وقال:

- انظر، هو موضوع معقد ويصعب شرحه و يطول، والأفضل أن نتحدث في العقار نفسه و نتاجه.

قال (سامر):

- كلام (سعيد) عن اختراعه مبَشِّر ويستحق الاهتمام و الدراسة، لكن يجب أن أتأكد أنه ليس هناك من لديه حق إنتاج هذا العقار ولا براءة أفكاره، لا أنا ولا المستثمرين الذين يمكنني جذبهم نريد مثل هذه المشاكل وبالذات مع الأمريكان.

تنهد (سعيد) ثم قال:

- يمكنك أن تتأكد من ذلك، وإذا أحببت أن نوصلك بالسيد (جوزيف) نفسه للتفاهم معه سنوصلك، أمهلنا فقط بضعة أيام نعود فيها إلى مصر ويعود(جوزيف) إلى سياتل، ونتقابل وقتها في القاهرة.

وهز (يوسف) رأسه و هو يقول في سرِّه:

- ويعود فيها الشِعْرَى.

●●●

(٧٥)

فعلاً إذا قدّرِ اللّه أمرًا فلا بدّ أن تسير كل الظروف في اتجاهه.

قالت (سلمى) لنفسها...

والد (سالمة) لا يوافق فحسب على عقد الزواج في القدس، بل يرحب بذلك بشدة.

وأمها تطلب السفر أيضًا معنا وتترك البيت في رعاية (توحيدة) و(صُبح) التي تعافت من نفاسها .

وها نحن على أعتاب مسيرة يوم من القدس...سأحرص فور وصولنا على دخول المسجد الأقصى كي تنشط القلادة كما أخطرني (برقان) في منامي .

سيكون عقد الزواج بعد صلاة الجمعة، أي بعد ثلاثة أيام من وصولنا...

سيكون الشِعْرَى قد عاد.

وتلى (حسن) طلسمه.

وعادت جدتي من المستقبل لتوكّل أبيها في تزويجها من (عبد الحميد).

هنيئًا لكِ (عبد الحميد) يا جدتي.

وكم استوحش بيتي في القاهرة و أسرتي الصغيرة فيه...

فهل ستعوضني أحضانهم عن ذكريات ذلك العام؟

هل سأعود (سلمى) التي كانت قبل عام؟

لا أظن ذلك أبدًا!

●●●

(٧٦)

- لا تحزن سيدي (أورهايون) من إعادة تنشيط القلادات، فإنما هي مجرد جولة لك مع (البرغواطي).

قهقه (أورهايون) و قال:

- متى ستقتنع يا (داهار) أنك رهيب القدرات لكن محدود العقل؟ من قال لك أنني خرجت خاسرًا؟

نظر له (داهار) في عدم فهم فقال (أورهايون):

- (البرغواطي) و لأنه يريد إصلاح ما أفسده ابنه ويريد مساعدة ضحاياه في المقام الأول، لم يهتم بأن يكشف لي جانبًا جديدًا من أسراره و قوته، تعطلت القلادات فأصرَّ أن يعيد شحن طاقاتها، هو بذلك قد كشف لي عن بعض مراكز طاقاتهم وكيف يتعاطونها ويستقون منها ما فيها ...لا بأس أن تخسر مباراة ودية في سبيل أن يفصح لك خصمك عن بعض أسراره وطريقة لعبه في مباراة البطولة المنتظرة.

●●●

(٧٧)

وتنفس (حسن) الصعداء بعد أن عاد كل شيء لأصله.

لقد مرَّ عليه العام كأنه دهر طويل، لو سأله أبوه الآن كم عمرك يا (حسن)؟ لقال إنه أكثر مما تتطلبه خزائن الأسرار بعشر سنين!

و (برقان) ينظر إليه بنفس النظرة الطفولية التي نظر إليه بها أول مرَّة قابله فيها ويبتسم كأنه طفل شقي.

واحتضن (حسن) كتاب الخزانة الثقيل و تنهد وقال (لبرقان):

- أخيرًا انتهينا من ذلك الكابوس؟

- لا تنكر أنه كان عامٌ جميل ملئ بالمغامرات.

ابتسم (حسن) في أسًى و لم يعقب فقال (برقان):

- أتدري؟ ذلك الطلسم الذي تُلِي في غير موعده لهو من أهون الطلاسم التي في تلك الخزانة، في حين أن هناك طلسم رهيب في صفحة رقم (أ ٣٣)...لو تعلم ما يمكنه أن يصنع؟

رد (حسن) بدهشة:

- ماذا يصنع؟
- طلسمنا السابق لم يغير إلا حياة ستة أشخاص عاديين، بينما ذاك الطلسم يمكنه أن يبدل ما بين رموز وقيادات البشرية

المتضادة، أن يبدل مثلاً ما بين رئيسي CIA وKGB! ما بين بابا الفاتيكان وإمام الحرم! بين رئيسي كوريا الشمالية والجنوبية...تخيل لو حدث ذلك لمدة عام؟ سنعيش عامًا من الجنون يا (حسن)...

وقبل أن يكمل كلامه نظر إليه (حسن) في ابتسامة باهتة ثم فتح غلاف الكتاب وأغلقه ثانية بكل قوة!

●●●

(٧٨)

صحيح أن (جوزيف) قد انتقم ممن أهانوه في موقف سيارات الأجرة...

وصحيح أنني سأترك الشارع والحارة بل وحي مصر القديمة كله ولن أشاهد أحدًا منهم بعد ذلك...

لكن الصورة عندهم أن (يوسف) و ليس (جوزيف) قد أجبر على خلع ملابسه أمام الجميع...

والصورة أيضًا أن (يوسف) قد ابتلع إهانته و استمر يمارس عمله...

وانتقام (جوزيف) لم يغير شيئًا من هذه الصورة...

وهذا ال (بعليكة) لم تُرَد إليه الإهانة بعد...

لا...لن أترك الحي قبل أن أثأر لصورة (يوسف)، وليس على طريقة (جوزيف) في الضرب من وراء الستار، بل وجهًا لوجه مع ذلك ال (بعليكة)!

ولكن كيف؟

لا بأس من الاستعانة ببعض حيل (جوزيف) ، ولا بأس من استعمال بعض من المال الوفير الذي خرجت به من عام الشِعْرَى هذا...

لقد أوصيت (سعيد) أن يحمل لي معه من سياتل لعبة أصبع النار التي اشتريتها من هناك خصيصًا لهذا الغرض... لعبة رخيصة الثمن يستعملها الهواة المبتدئون و بعض من يحبون صنع المقالب في أصدقائهم.

وببعض المال استأجرت بعض البلطجية...لا لن يقوموا هم بالمهمة، فلن أغسل صورتي إلا بأن أضرب (بعليكة) بيديّ، لكنهم جزء مهم من الخطة...

- ولكن كيف يا (يوسف)؟ إن (بعليكة) معتاد الإجرام و محترف العراك؟

قال له (سعيد) في إشفاق بعد أن استمع إلى خطته، فرد عليه (يوسف):

- هل نظرت إلى جسده؟ إنه مهلهل من أثار المخدرات و السهر والعربدة و سوء التغذية، إنه فقط زارع للخوف بين قلوب السائقين، هو بغير أعوانه كالمراهق الحدث؛ مجرد حنجرة جوفاء.

- لكنه ميت القلب من كثرة ما عركته الشوارع.

- ولهذا طلبت منك لعبة أصبع النار...عنصر المباغتة!

●●●

وفي اليوم الذي حدده (يوسف) للثأر لكرامته، و بعد أن انتهى من شراء وتجهيز شقته الجديدة وانتقل إليها بالفعل مع أمه وأخته

(سارة)، سار مع من استأجرهم لموقف السيارات حيث يقف (بعليكة) واختار الوقت الذي يتواجد فيه أغلب السائقين...مهمة من استأجرهم فقط أن يضمنوا ألا يتدخل أحد في العراك بين (يوسف) و (بعليكة)...

- أرأيتم يا رجال؟

صاح (بعليكة) وهو جالس على كرسيه في حشد السائقين ثم أكمل ساخرًا:

- (يوسف) أفندي نبتت له أظافر بعد أن جرى المال في يديه واستغنى عن مهنته القديمة، والآن جاء ليسوي حساباته القديمة معكم...

ثم نظر ل (يوسف) و قال:

- لكن الرجولة ألا تحتمي فيمن استأجرتهم.

رد عليه (يوسف) و قلبه يكاد يشق صدره خارجًا منه و نبضه كأنه الطبل في أذنيه:

- بل أنت من يحتمي فيمن يعيشون معك على عرق هؤلاء السائقين وتشاطروهم رزق عيالهم، لو كنت رجلاً حقًّا واجهني رجلاً لرجل ولا يتدخل أحدٌ فيما بيننا، هيا أرني نفسك يا حقير.

وكأنه قال كلمة السر، فتحلق من بالموقف حولهما تلقائيًّا في دائرة، فتحسس (يوسف) لعبة النار المخبأة بين أصابعه وهو يدعو الله ألا يكون عرق يده قد أفسدها، وتمطع (بعليكة) في ثقة استهزاء

ليتلاعب بأعصاب (يوسف) ثم هبَّ فجأة واقفًا وهو يفتح مطواته في الهواء في نفس الوقت ليرهب (يوسف)...

لا يدري (يوسف) كيف فعلها، لقد تمرن كثيرًا قبلها على قدح زناد اللعبة الملفوفة حول أصابعه كأنه خاتم بنفس لون الجلد، و يكون زنادها موجهًا لبطن يده من الداخل، و بحركة من الإبهام يقدح الزناد ليشعل كرة القطن الصغيرة المخبأة في يده معها، لتظهر في النهاية وكأنه يخرج قطعة من النار من يده.

هل تمرن بما فيه الكفاية؟ هل اشتعلت وحدها؟ لا يتذكر (يوسف) سوى تعبيرات وجه (بعليكة) الذي تفاجأ بخروج كرة صغيرة من النار في الهواء من يد (يوسف).

لحظة المفاجأة هذه هي ما كان ينتظرها، فاستغل تشتت ذهن (بعليكة) بسببها وهجم عليه بكل سرعته، وبقَدَمِه التي يرتدي فيها حذاء سلامة صناعية ثقيل، و المبطن بمقدمة من الفولاذ لحماية أصابع القدم من الإصابات في المصانع، وبكل عزيمته وقوته ركل (بعليكة) في قصبة ساقه.

رمى (بعليكة) جسده في الأرض وهو من شدة الألم يصرخ بشكل متواصل كصرخات المرأة التي تكابد آلَام الولادة!

وقبل أن يتحرك أحدٌ من معاوني (بعليكة) صاح أحد الرجال الذين استأجرهم (يوسف):

- هـذه تصفيـة حسـابات بـين الرجلـين، دعونـا نحـن خارجهـا ولا داعـي لحـدوث مجـزرة.

وتقـدم (يوسـف) مـن (بعليكـة) الممـدد علـى الأرض وهـو يتلـوى مـن الألـم، و فـكّ لسـان حزامـه ثـم سـحب بنطالـه إلـى ركبتـه، ثـم بصـق عليـه.

التفت (يوسـف) إلـى سـائقي الموقف و قـد تضاربت مشـاعره تجاههم وهـو يتأملهـم، البعـض كان وجهـه متهلـلاً في صمـت لا يجـرؤ علـى إظهـار فرحـه، والبعـض الآخـر كان واجمًـا لا يصـدق مـا يحـدث، وبعضهـم كان خائفًـا أن يطولـه (يوسـف) بانتقامـه.

اكتفى (يوسف) بأن جدحهم بنظرة باردة ثم قال لهم:

- سـتظلون هكـذا طـوال حياتكـم، وغـدًا سـتبحثون بأنفسـكم عـن (بعليكـة) جديـد يتسـلط عليكـم.

ثم ولاهم ظهره وانصرف وهو يقول لنفسه:

- الآن - للمرة لست أدري كم - ولد (يوسف) من جديد!

●●●

(٧٩)

أخيـرًا وصـلا إلـى كوكب (المنتهـى) خـلال سـفرهما الـذي لا ينتهـي عبـر بوابـات السـماء ودهاليـز المجـرات.

إنهمـا منـذ أن طلب منهمـا (برقـان) مسـاعدته في الوصـول لأصحـاب القـلادات الثـلاث والتخاطـر معهـم، والأصعـب مـن ذلـك التخاطـر مـع (سـلمى) لمَّـا سـقطت في بئـر الماضـي مـكان جدتهـا (سـالمة) وإخبارهـا بحقيقـة مـا حـدث لهـا في منامهـا... منـذ ذلـك و همـا مهتمـان بمتابعـة أحـداث هـذه القصـة و متابعـة أصحابهـا طـوال ذلـك العـام.

ولذلك وقف (أبانوخ) متحيرًا و قال ل (هلال):

- أنـا أكاد أُجَـن...إن كان يجـوز لمثلنـا أن يصـاب بالجنون...هـذه القـلادات الأرضيـة وأصحابهـا السـتة ليـس لقصتهـم نهايـة محـددة!

عندمـا كنَّـا في كوكـب (تريسـياس) وجدنـا (سـلمى) تختـار البقـاء مـع (عبـد الحميـد) والـزواج منـه، في حـين يجمـح الطمـوح (بسـالمة) إلـى الهجـرة إلـى أمريكا و تتـزوج مـن (جوزيـف) بعـد أن يرضـخ لضغوطهـا و يعتنـق دينهـا.

لكـن لمَّـا وصلنـا إلـى كوكـب (فيلـون) وجدنـا العوائـق تقـوم بـين (سـالمة) و(جوزيـف) لتتـزوج في النهايـة مـن (سـعيد) ويهاجـران معًـا إلـى كنـدا ويكونـان أسـرة علميـة ويعمـلان معًـا في البحـث العلمـي.

لكن عندما وصلنا إلى كوكب (النوائل) لم يحدث أي شيء مما سبق وعادت (سلمى) و (سالمة) إلى حياتهما لأولى - ما قبل الطلسم - بينما وجدنا (نوف) تضرب بعرض الحائط كل شيء وتقرر البقاء في ثوبها الرجولي مكان (نواف) ثم لا تلبث بعد عام واحد أن تجتاحها الأمراض النفسية وتنتحر في نوبة اكتئاب!

وهكذا من كوكب لآخر، و كل كوكب نصل إليه نشاهد منه ونحن نراقب كوكب الأرض نهاية مختلفة لهذه القصة غير تلك النهاية التي شاهدناها أخيرًا لما وصلنا كوكب (المنتهى)، فأي النهايات هي الحقيقة؟

رد (هلال) و قد ارتدى ثياب الخبرة التي تفرقه عن (أبانوخ) بقرابة الألف دورة شمسية:

- النهاية التي شاهدناها الآن على كوكب المنتهى هي الحقيقية، فهي قرارهم الأخير واختيارهم النهائي الذي اختاره أصحاب القلادات قبل أن يعود الشِعْرَى.
- لكن كل ما شاهدناه من نهايات أخرى كان يفترض أنها بعد أن يعود الشِعْرَى أيضًا.
- كانت تلك نهايات لعودة الشِعْرَى في تقويمات كواكب أخرى موازية، لكنها مختلفة عن تقويم كوكب الأرض، بينما النهاية التي شاهدناها الآن كانت بعد عودة الشِعْرَى في تقويمهم الأرضي...الاحتمال الأخير والاختيار الحر الذي اختاروه بإرادتهم النهائية فتجنبوا بذلك تلك النهايات والمصائر الأخرى.

هز (أبانوخ) رأسه في تعجب و قال:

- كل السناريوهات كانت مطروحة و كل النهايات كانت متاحة كأنها حدثت بالفعل، لكن اختيارهم الحقيقي أبقى على نهاية واحدة وألغى الباقين...دائمًا ما أرى مثل ذلك يحدث في قصص أناس آخرين خلال رحلتنا عبر مجرات الكون و مع ذلك لا يستطيع عقلي استيعابه.

- أما أنا ولأني أكبر منك عمرًا بألف دورة فقد بدأت أفهمه، أما الشيء الذي لم أفهمه أبدًا فهي تلك السيدة (خضرا)...

لقد رأيتها قبل مئات السنين الأرضية وهي تتناقش مع الجد الأكبر ل (سالمة) و (عبد الحميد) لما كان محتارًا في الهجرة من القدس إلى رشيد، ثم رأيناها مع (سلمى)، ورأيناها تناقش (نوف) في غرفة نومها لما فكرت أن تستولي على حياة (نواف)، بينما (نوف) تظنها الشيخ (البرغواطي)، ثم رأيناها بعد عشرات السنين الأرضية تدخل حياة (فريد) حفيد (جوزيف) و (نيكول) وهو يبث لها حيرته في مسألة الهجرة من أمريكا إلى مصر والزواج من حفيدة (سعيد) و (سارة)...

وطوال هذه الآلاَف من الدورات و أنا أشاهدها مع أطياف البشر وهي تحدثهم في قرارات حياتهم بطريقتها الملغزة تلك، ولم أعلم حتى الآن من تكون وفي أي زمن تعيش، وهل تحدث الناس في الحقيقة؟ أم في منامهم؟ أم تتخاطر مع لاوعيهم ... هل تحدثهم عن المستقبل الذي حدث بالفعل ؟ أم عن الماضي الذي لم يأت بعد ؟

وعبثًا حاولت أن أعرف أين اختفت في ذلك اليوم المشهود واللقاء الرهيب في الملحمة التي دارت بين حزب (البرغواطي) وحزب (أورهايون).

حتى بدأت أوقن أنني لن أدرك حقيقتها أبدًا في هذه الحياة الدنيا!

تمَّت

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع إلى الناشر